الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

متاهة آدم

رواية

بُرهان شاوي

بُرهان شاوي

متاهة آدم

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

متاهة آدم

رواية

في تلك اللحظة بالذات من ذلك الفجر البغدادي الضبابي الكثيف. في تلك اللحظة بالذات رأى المهندس آدم المطرود وجه السيدة حواء الصايغ. كان وجهها كبيرا، كبيرا جدا، بحجم السماء، وهي تنظر إليه من الأعالي والدموع تنزل من عينيها، نادبة مصيره المأساوي الغامض والغريب.

وفي تلك اللحظة اقترب الشرطي آدم الضبع منه فوجده يبتسم ابتسامة عذبة. كان آدم المطرود يبتسم للسيدة حواء الصايغ، بينما استغرب الشرطي الضبع هذه الابتسامة على وجهه الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، فاعتبر ذلك سخرية منه ومن جبروت السلطة، فأطلق وابلا من الرصاص على جبين آدم المطرود مهشما جمجمته ومشوها وجهه الباسم البريء.

بعد لحظات من الإعدام الجماعي نزل السائق وهو يحمل معولاً، وأقترب من القبر الجماعي وأخذ يدفع بكومة التراب عند حافة الحفرة على الجثث في تلك الحفرة المظلمة. بينما وقف الضبع مصوبا رشاشه نحو سرب من عصافير الصباح مر فوق القبر الصباحي المظلم، مطلقا سيلا من الرصاص الأعمى.

كانت بغداد بعيدة، وكان الضوء الذي بدأ ينير السماء والأشياء يكشف عن حفر فارغة الأفواه على امتداد البصر، حفرة تنتظر من تلتهمه في أعماقها، وكانت ثمة بقع يبدو من لون التراب المبتل قليلا بندى الصباح أنها ابتلعت أناسا أبرياء ربما تم إعدامهم في مثل هذا الفجر. وكان الناظر إلى هذا المكان يحس وكأنه في مقبرة هائلة، في متـاهـة لا مخرج أو مفـر منهـا. متاهة بني آدم.

تصميم الغلاف: علي القهوجي
لوحة الغلاف: ليلة صيف
زيت على الكانفس للفنان فؤاد ميرزا

ISBN 978-614-01-0482-2
9 786140 104822

nwf.com
نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

متاهة آدم

متاهة آدم
ADAM'S LABYRINTH

رواية

بُرهان شاوي
Burhan Shawi

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0482-2

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (+961-1)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (+961-1)

﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ * قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴾

(سورة الأعراف، الآيات: 24-25).

(كلُّ الأنهارِ تجري إلى البحرِ والبحرُ ليس بملآن. إلى المكان الذي جرت منهُ الأنهارُ إلى هناك تذهب راجعة. كلُّ الكلامِ يقصرُ. لا يستطيعُ الإنسانُ أن يُخبر بالكلّ. العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلئُ من السمع. ما كان فهو ما يكون والذي صُنع فهو الذي يُصنع فليس تحت الشمس جديدٌ...... ووجهت قلبي بمعرفة الحكمةِ ولمعرفة الحماقة والجهل. فعرفتُ أن هذا أيضا قبض ريح. لأن في كثرة الحكمة كثرةُ الغم. والذي يزيد علما يزيدُ حُزنا).

العهد القديم - سفر الجامعة

المحتويات

يقظة آدم 9

متاهة آدم

(1) الكابوس 17
(2) يوم عادي . . عادي جدا 21
(3) محنة حواء المؤمن 25
(4) النساء خُلقن هكذا 34
(5) أحلام وكوابيس 37
(6) هروب آدم التائه 42
(7) حمار في السرير 77
(8) المرأة المجهولة 83

المرأة المجهولة أو متاهة آدم

النهايـة 254
الفصل التاسع: تحولات حواء المؤمن 256
الفصل الحادي عشر: تحولات الدكتور آدم التائه 266
الفصل الثاني عشر: صلاة، وقبر . . أشباح، واغتصاب 282
الفصل الثالث عشر: الجني الأزرق 289
الفصل الرابع عشر: باب الضياع 398
الفصل الخامس عشر: طفل الخطيئة 304
الفصل السادس عشر: شهران من الشك 314
الفصل السابع عشر: بصقة النهاية 319
الخاتمـة 324
سبات آدم . . يقظة آدم 326

يقظة آدم

دوّى انفجار هائل فاهتزت البناية. فز آدم البغدادي من نومه مرعوبا علـى صـوت الانفجـار الـذي ارتجت جدران الشـقة وأرضيتها من قوته. أحس نفســه متعبا. شـعر بصداع شـديد يضغط على جمجمته، وحموضة تصعد من معدته وتصل حتى بلعومه. رفع رأسـه قليلا ليجد نفسـه على الصوفـا الجلديـة فـي الصالـة. لقـد غـرق فـي النوم بعـد أن وضع بعض اللمسـات على مشـاهد وفصول روايته الجديدة التي خطط لها منذ فترة وأنجز منها ما أستطاع.

نهـض قلقـا ليطـل مـن النافذة المشـرفة على مشـهد مفتوح من بغداد فرأى دخاناً كثيفاً يتعالى من جهة منطقة الصالحية، وسمع صوت إطلاقٍ كثيـف للرصـاص وهديـر سـيارات الإسـعاف الـذي يؤكـد بـأن كارثة قد وقعت.

إعتاد آدم البغدادي على هذه المشاهد التي صارت من يوميات بغداد وجزءاً من حياة العراقيين. لا يدري لماذا فكر لحظتها وهو يرنو نحو جهة الانفجار بعدد الأجساد التي يمكن أن يكون الانفجار قد مزقها. يا لعبثية هـذه الحيـاة، إذ صـار العراقيون يتعاملون مع الأرقام، مع عدد الضحايا!! فالانفجار الذي يخلف المئات أو حتى العشـرات هو الذي صار يحظى باستنكار الحكومة والأحزاب، بينما الانفجار الذي يمكن أن يمزق أثنين أو ثلاثة أو سـتة أو حتى عشـرة أشـخاص يمر دون أي اسـتنكار أو انتباه مـن قبـل الحكومـة والأحـزاب، ولا ينتبـه لـه إلا أهل الضحايـا. يا لعبث الحياة في العراق.

فكر لحظة مع نفسـه: لماذا لا يشـعر برغبة في الكتابة عن كل هذه

الأحداث؟ هل هي ليست واضحة بالنسبة له؟ هل هي غير مهمة؟ أو هي لا تصلح لعمل روائي؟ أو أن مثل هذه التحولات التاريخية والأحداث الجسام والمرعبة التي حدثت في بلاده تحتاج إلى وقت أطول حتى يأتي من يستطيع الكتابة عنها؟ وكان يجيب على سؤال نفسه: نعم، هي واضحة ومهمة وتصلح لعشرات الأعمال الأدبية والفنية، لكنه لم يجد الجواب عن سبب عدم رغبته الشخصية في الكتابة عن الأحداث المرعبة.

قبل أشهر انفجرت سيارة ملغومة في تقاطع الشوارع الذي يسكن عند منعطف أحدها، وكان ينظر إلى ذلك المشهد المرعب من نافذة غرفة النوم. بقي لفترة طويلة ينظر إلى الناس الذين تراكضوا إلى موضع الانفجار ليساعدوا الضحايا والجرحى. لاحظ كيف جاءت قوات الشرطة لتفرق الناس وتمنعهم من الاقتراب لاسيما بعد أن جاءت سيارات الإسعاف لنقل الضحايا والجرحى، لكنه ركز على رجل بعينه، أثارته حركاته المريبة، إذ كان برغم المصاب الأليم يتتبع امرأة لم يتبين كم عمرها من نافذته، وكان الرجل يحاول الالتصاق بها في زحمة الناس الذين تجمهروا.

الفضول الأدبي دفعه لتتبع هذا المشهد. لا حظ أن المرأة التفتت للرجل وكأنها انتبهت لمحاولة التصاقه الجسدي بها، فتحركت من مكانها وذهبت إلى مسافة بعيدة عنه، لكنه تبعها أيضا والتصق بها من الخلف أكثر حتى أنه حجبها عن مشهد نظره، وحينما تفرق الناس شيئا فشيئا لاحظ أن الرجل كان يتحدث مع المرأة ويمشي بجانبها على مسافة، وشيئا فشيئا اقترب منها وصارا يمشيان معاً، وابتعدا عن مكان الانفجار قليلا ثم انعطفا إلى الشارع المجاور الذي يتبع التقاطع، فأوقف الرجل سيارة تاكسي وصعد مع المرأة واختفيا عن مدى نظره.

فكر مع نفسه يا لعبث الحياة، ناس تتمزق من الانفجار وآخرون يهرعون لنجدتهم دونما خوف من انفجار مزدوج، بينما هناك من لا يؤثر

فيه مشهد الموت الفظيع بل تراه يتبع شهوته العمياء.

تحـرك آدم البغـدادي مـن عنـد النافذة ليجلس علـى الصوفا الجلدية ثانية. انحنى إلى الأرض مفكرا واضعا رأسه بين يديه، سائلا نفسه: متى ينتهي هذا الموت المجاني؟

قبـل عـام تقريبـا كان قـد التقى أحد معارفه من الكتاب الذين غادروا العـراق فـي تسـعينات القـرن الماضـي، وكان هـذا الكاتب قبـل مغادرته يعمل أستاذا في جامعة بغداد، وكان قد أصدر رواية غريبة البناء والحبكة تقتـرب لحـد مـا مـع عوالم الكاتب التشـيكي فرانتس كافكا، لاسـيما في روايتـه المعروفـة (التحول) والتي ترجمت إلى العربية بعنوان (المسـخ)، لكن هذا الأسـتاذ الأديب غادر العراق لأسـباب مجهولة بالنسـبة إليه، ثم سـمع أنـه ذهـب إلـى إحـدى الـدول الخليجية ليعمل مدرسـا في إحدى جامعاتها، وخلال اللقاءات معه سـمع منه قصصا مختلفة عن رحلته من لحظـة خروجـه مـن البـلاد وحتى عودته القصيـرة إلى بغداد والتي انتهت نهاية فاجعة.

مـن خـلال هـذه اللقـاءات المتكررة معـه راودت آدم البغدادي فكرة كتابة رواية عن كل ما سمعه منه، وفعلا كتب روايته عنه وعن حياته مع زوجته وسفرهما إلى أوروبا وما واجهه هناك.

كان آدم البغدادي يسـأل نفسـه أحيانا أسـئلة تدخل في صلب العملية الإبداعيـة والجماليـة، وأحيانـا كان يجيب عليها بنفسـه مسـتذكرا مواقف وإجابـات النقـاد وعلمـاء الأدب علـى مثل هذه الأسـئلة، إلا أنه لا يتردد من أن يطرح على نفسه الأسئلة ذاتها، فمثلا يسأل: هل يكفي أن يسمع من الآخرين سـردا لحياتهم ومشـاعرهم والأحداث التي مروا فيها لكي تكون مادة لعمل روائي؟ وإلى أي حد يمكن للكاتب أن يغير من مسار الأحداث ويلون عوالمها ويخلق شـخصيات وهمية من عنده؟. من أين يسـتمد الكاتب والمبدع بشـكل عام مادته الإبداعية، من الذاكرة الفردية

أم الذاكرة الجمعية؟ من الوعي الذاتي أم الوعي الجمعي؟ وكيف يمكن للاوعي الفردي والجمعي أن يتدخل في العمل الإبداعي؟ أين دور التجربة الحياتية والروحية في تشكيل المادة الإبداعية؟ وكيف تولد الشخصيات في مخيلته الإبداعية؟ هل تمر بمرحلة كمون أو حمل كما تحمل المرأة أو أنها تنبثق فجأة وتقفز من العدم؟ هذه الأسئلة وغيرها كانت تلح عليه كلما خطط لكتابة رواية.

اشتد نفير سيارات الإسعاف بشكل يقبض النفس ويدفع إلى التفكير بهول الانفجار وكثرة الضحايا. فتش آدم البغدادي عن جهاز الريموت كونترول، فلا شك في أن المحطات التلفزيونية ستبث خبرا عاجلا عن الانفجار وضحاياه. وجد جهاز الريموت كونترول ملقى على الأرض عند حافة الصوفا فأخذه وضغطه فأطلت إحدى المذيعات العراقيات وهي تجري مقابلة مع فنان، بينما كان الشريط الإخباري الذي يحمل عنوان: (عاجل) يشير إلى حصول انفجار نتيجة عملية انتحارية مزدوجة في هجوم على محافظة بغداد. انتقل إلى محطة فضائية أخرى تبث من خارج البلاد فشاهد أنها تبث شريطا مسجلا عن بعض تفاصيل الحادث وكأنهم كانوا هناك لحظتها. ضغط مرة أخرى منتقلا لقناة ثالثة فوجدها تعلن عن تفاصيل تختلف عن القناتين اللتين شاهدهما، فأحس بانزعاج وانقباض وغضب خفي من هؤلاء الذين اقترفوا هذه الجريمة ومن محطات التلفزيون التي تكشف عن لا مبالاتها، وكأنها شكرت الرب على هذا الحادث الذي أنقذها من تكرار برامجها ومنحها مادة لأيام قادمة.

سأل آدم البغدادي نفسه متى ينتهي كل هذا؟ ومن وراءه؟ محطات التلفزيون وجهت من خلال المسئولين الرسميين الاتهام إلى تنظيم القاعدة، لكنه لا يصدق بأن تنظيم القاعدة هو وحده وراء هذه التفجيرات المرعبة.

استمر لدقائق ينظر لشاشة التلفزيون التي أخذت تعرض مشاهد من

تفاصيل المكان وموقع الانفجار موجعة للقلب. ضغط على أحد الأزرار ليوقـف البـث التلفزيونـي. وضع جهـاز الريموت كونتـرول على الطاولة التـي أمامـه ثـم توجـه إلى زاوية المطبخ ليغلي الماء وليصنع لنفسـه كوبا من النسكافيه.

أحـس برغبـة فـي أن يعيـد كتابـة النص الروائي الـذي انتهى منه ليلة أمـس. صـب المـاء المغلـي فـي الكوب الذي كان قـد وضع فيه ملعقتين مـن مسـحوق النسـكافيه، وحمـل كوبـه متوجهـا إلى طاولـة الكتابة التي كانت تحمل بعض الكتب إلى جانب ملزمة من الأوراق المليئة بالكتابة.

جلـس آدم البغـدادي علـى كرسـيه قـرب الطاولـة، وسـحب ملزمـة الأوراق إليـه بعـد أن وضـع الكـوب جانبا. قرأ صفحة الغلاف التي كانت تحمل عنوان الرواية (**السقوط إلى الأعلى**) فشطب العنوان وكتب عنوانا جديـدا هـو (**متاهـة آدم**). فكـر أن عنـوان (**متاهـة آدم**) ربما يعبر عن فكرة الرواية وأحداثها أكثر من (**السقوط إلى الأعلى**).

كان آدم البغدادي قد قسم عمله إلى فصول - مشاهد أقرب للسيناريو السينمائي منه إلى الفصول المتعارف عليها في النص الروائي. أخذ رشفة نسكافيه ثم بدأ بقراءة النص لكي يمرر عليه تعديلاته. وجد أمامه الفصل الأول من العمل والذي كان يحمل عنوان (الكابوس)، فبدأ القراءة.

متاهة آدم

(1)

الكابوس

غرفة واسعة، جدرانها مطلية بورق أبيض. في أقصى الغرفة سرير يغطيه شرشف بنفسجي اللون، وثمة امرأة شابة بثوب وردي تغط في نوم عميق. جدران الغرفة عارية إلا من دمية صغيرة من القماش معلقة بخيط متصل بمسمار صغير جدا على الجدار المقابل لسرير المرأة الشابة.

فجأة يدخل كلب أسود كبير. يقفز الكلب على السرير باتجاه المرأة النائمة. يتدفق الدم كالنافورة ليطلي الجدران البيضاء، وتسقط الدمية من على الجدار.

فزت حواء المؤمن من نومها مرعوبة. تحسست عنقها برعب. نظرت إلى فراشها وإلى الجدران ثم إلى المكتبة التي تضم كتبا كثيرة باللغة العربية وبعض القواميس الألمانية والانكليزية والتي تعود لزوجها الدكتور آدم التائه، وكأنها تبحث عن شيء. استرخى وجهها حينما تأكدت بأن الأمر لم يكن سوى كابوس.

شعرت للحظات بأنها غير قادرة على التفكير. أحست أن رأسها يخلو من أية فكرة، بل إنها عاجزة عن إستعادة تفاصيل الكابوس. كانت حنفية الماء تقطر بانتظام وصوت الساعة المنضدية على التلفزيون يشير إلى الواحدة صباحا، وشاشة التلفزيون تبعث أزيزا لأن البث قد انتهى.

ظلت حواء المؤمن مستلقية على الصوفا الجلدية وملتفة بالبطانية في غرفة الاستقبال. انتبهت أن أحداث الكابوس جرت في غرفة النوم وعلى سريرها وليس في غرفة الاستقبال حيث تمددت على الصوفا.

كان الجمـر متوهجـا فـي الموقد الفحمي والليل يبدو أزرق من وراء النافـذة الزجاجيـة الوحيـدة. نظـرت نحو الباب الذي يفضي مباشـرة إلى خارج الشقة حيث درج البناية الخشبي. لم يقطع سكون تلك اللحظات إلا الإيقـاع المنتظـم لقطـرات المـاء النازلـة من الحنفيـة، وصوت عقرب الساعة.

نهضت بتكاسـل لتشـرب الماء. أطفأت وهي في دربها إلى المطبخ جهـاز التلفزيـون. كانـت حزينة وتحـس بالفراغ. دخلت المطبخ. ضبطت الحنفيـة التـي كانـت تقطر وفتحت الثلاجة. أخرجت قنينة الماء وشـربت منها مباشرة. وضعت القنينة في الثلاجة ثانية ثم توجهت إلى غرفة النوم. بعـد دقائـق عـادت منهـا وهـي تحمل ألبومـا للصور. توجهـت إلى غرفة الاسـتقبال وجلسـت علـى الصوفـا فـي مكانها السـابق. تمـددت وغطت ساقيها وبطنها بالبطانية، وبدأت تقلب صفحات الألبوم بانتظام.

مـر وقـت علـى حـواء المؤمن وهي تقلب صفحـات الألبوم، وأخيراً ألقته قرب رأسها بعد أن شاهدت جميع الصور. بقيت لفترة تتأمل سقف الغرفة. لم يكن هناك سـوى صوت السـاعة وهي تتكتك، وشـيئا فشـيئا غرقت في غفوة دون إرادة منها.

كانت السـاعة تشـير إلى الثالثة، حينما تعالت أصوات لوقع خطوات قادمة من جهة السلم الخشبي. فزت من نومها على صوت محاولة فتح البـاب المقفـل مـن الداخـل. ألقت نظرة سـريعة على السـاعة ثم نهضت باحتراس متجهة نحو الباب لكن دونما فزع، فقد خمنت أنه زوجها آدم، وبالرغم من ذلك وقفت بجانب الباب ويدها على المفتاح ثم سألت:

– من؟

فجاء صوت خافت من وراء الباب:

– افتحي أنا آدم..

فتحت الباب فدخل رجل وسيم في منتصف الأربعينات من العمر، فقالت له بغضب مكتوم ممزوج بنبرة مشبعة بالنعاس:

– أين كنت إلى هذا الوقت المتأخر من الليل؟

– أين كنت.. عند أصدقائي..

ثم أندفع إلى الصوفا ملقيا نفسه بتعب عليها سائلاً:

– هل لدينا ما يؤكل.. أنا جائع؟

– يوجد لدينا رز وفاصوليا..

لم يجبها بشيء وإنما نهض متوجها إلى جهة المطبخ، فعلقت مستاءة:

– يعني أما كان بالإمكان أن تأتي قبل هذا الوقت.. تتركني وحدي وتذهب للسهر خارج البيت..

لم يعلق على كلامها، فواصلت:

– الصبح الساعة العاشرة يجب أن نكون في دائرة المساعدات حتى يعطوني ورقة تحويل للطبيبة النسائية..

نظر إليها للحظات وقال:

– ولماذا يجب حضوري معك..؟

– أنت تعرف أنا لا أتحدث الألمانية بشكل جيد..

– نتحدث عن هذا صباحا

نظرت إليه بغضب مكتوم، أما هو فتجاهل نظراتها منشغلا عنها فلم يكن أمامها سوى أن تتجه إلى غرفة النوم لتلقي بنفسها على السرير والدموع تترقرق في مقلتيها.

لا تدري حواء المؤمن كم مضى من الوقت وهي مستلقية على السرير، لكنها أفاقت لتجد أنها وحيدة في غرفتها. نظرت إلى الساعة المنضدية الصغيرة التي كانت تشير إلى السابعة صباحا. إذن الوقت ما زال مبكرا. أنصتت جيدا فسمعت صوت شخير زوجها يأتي من غرفة

الاستقبال. لا تدري لم أحست بالراحة، فدخلت الفراش وسحبت الغطاء على نفسها لتواصل النوم.

بعد أن أنهى آدم البغدادي قراءة الفصل الذي أعطاه عنوان (الكابوس) فكر في أن يستطرد أكثر في الحديث عن حواء المؤمن والدكتور آدم التائه، لكنه فكر أيضا بأنه من الأفضل ترك الأمور هكذا من أجل أن يمنح القارئ بعض الوقت ليشكل تصوراته عنهما دون تدخل المؤلف، بعد ذلك يتدخل شيئا فشيئا في رسم صورتهما. وضع الأوراق الخاصة بهذا الفصل جانبا ثم أخذ يقرأ الفصل الذي يليه والذي أراد أن يرسم صورة أكثر قربا لحواء المؤمن

(2)

يوم عادي.. عادي جدا

يقع القسم الخاص باللاجئين في الطابق الخامس من بناية بلدية مدينة (ركلنك هاوزن) الألمانية التي تقع ضمن منطقة (الروور) الشهيرة بمناجم الفحم والتي تتبع مقاطعة (نورد راين فستفالن). حين وصلت حواء المؤمن وجدت أمامها صفا من اللاجئين. كان هناك كورديان من العراق وأفريقي وفتاتان إيرانيتان ولبنانيان وفلسطيني وأفغاني جاء ومعه أربعة من أطفاله وابنته الفتية الجميلة.

كان الحديث يدور بلغات مختلفة، ولكن حينما يود أحدهم أن يحدث شخصا آخر لا يعرف لغته فأنه يتحدث معه بالألمانية التي لا يجيدها أي منهم لكن يمكنهم التفاهم بها. وجدت حواء المؤمن أحد أصدقاء زوجها ممن يزورهم أحيانا فأحست بأن ثقلاً انزاح عن صدرها، إذ قررت أن تطلب منه أن يكون مترجما لها لأنها لا تستطيع التفاهم بالألمانية، وهذا ما فعلته.

عادة ما يحصل اللاجئون على ورقة من الدوائر المختصة بالتعامل معهم حينما يريدون الذهاب إلى الطبيب. وحينما أخذت حواء المؤمن الورقة من دائرة الأجانب واجهتها المشكلة نفسها، إذ كيف لها أن تشرح للطبيبة وضعها. فكرت في نفسها أنها ستشرح لها بالإشارات.

الطبيبة التي تراجعها حواء المؤمن إيرانية الجنسية وهي تعمل في عيادة مشتركة مع طبيب يوغسلافي الجنسية مختص بأمراض النساء أيضا. حينما دخلت العيادة وسلمت ورقة التحويل للسكرتيرة التي تدير عمل

الطبيبين، قالت لها السكرتيرة إن الطبيبة الإيرانية مجازة حاليا، وستتأخر لأسبوعين ويمكن للطبيب اليوغسلافي أن يكشف على حالتها الصحية. ارتعبت من الفكرة، لكنها التفتت إلى الصالة فوجدت عددا من النساء التركيات الحوامل والألمانيات وبعض الفتيات الأجنبيات التي لم تحدد جنسيتهن، فجلست بارتباك.

حينما جاء دورها ودخلت غرفة الطبيب، ارتبكت جدا. كان الطبيب وحده في الغرفة لأن مساعدته الشابة قد خرجت مع المرأة التي سبقتها.

انتبه الطبيب لارتباكها فرحب مبتسما وسألها إن كانت تتكلم الألمانية فاحتارت كيف تجيب ونطقت بالمفردة التي معناها (قليلا)، لكنها نطقتها بارتباك ففهم بأنها لا تتكلم الألمانية. أشار إليها أن تذهب خلف الحاجز الموجود في الغرفة لتخفف من ثيابها. أحست بالخجل، لكنه أراد أن يشعرها بأن الأمر طبيعي جدا فأنشغل بإعداد ورقة خاصة بها. لم ينتبه إلى أنها لم تتحرك من مكانها، وحينما رفع رأسه وشاهدها ابتسم وأشار إلى خلف الحاجز بأن تخفف ثيابها هناك، ثم تستلقي على السرير الطبي الموجود في جانب الغرفة.

كان الطبيب منشغلا بارتداء الكفوف الشفافة الواقية، حينما التفت إليها وجد أنها ركضت خجلة وصعدت السرير ثم تمددت عليه وسحبت الغطاء الأبيض الخفيف لتغطي جسدها لحد الصدر. سألها الطبيب (بلغة الاشارة) ما الذي تشعر به، فأشارت مكورة يديها حول بطنها بحركة فهم منها أنها تتحدث عن الحمل، ابتسم الطبيب.

في تلك اللحظة دخلت الممرضة مبتسمة. تحدث الطبيب معها بالألمانية. أشارت الممرضة إليها بأن تنهض وتأتي معها خلف الحاجز، فقامت ظنا منها بأن الطبيب أمر بذلك، وخلف الحاجز طلبت الممرضة منها أن تنزع سروالها الداخلي فلا يمكن للطبيب أن يفحصها وهي في هذه الحال. أصابها الرعب من الفكرة لكنها في الوقت نفسه كانت كالمسحورة، وبحركة لا إرادية قامت بما طلبت منها الممرضة التي

أخذتها لتساعدها على الجلوس على كرسي الفحص النسائي، حيث مدت رجليها على حافتيه المتباعدتين وأدارت الممرضة الكرسي فانحنى جسدها وتكشف وسطها الأسفل للطبيب. أغمضت عينيها، وتركت جسدها للطبيب مستعينة بوجود الممرضة إلى جانبها.

أحست بلمسات أصبع الطبيب واختراقه إياها، ففزت بحركة لا إرادية، ولم يشأ الطبيب أن يفزعها، فأنهى الوضع، ونزع كفوفه الشفافة ليلقيها في علبة من الصفيح مخصصة لها. قامت هي فأشارت إليها الممرضة بعد أن أعادت وضع الكرسي بأن ترتدي ملابسها. تحدث الطبيب مع الممرضة ثم معها بالألمانية، لم تفهم هي شيئا.

حينما خرجت حواء المؤمن إلى الشارع أحست بأنها خفيفة وأن مزاجها أفضل، ثم أخذت تفكر وتسأل نفسها: لماذا شعرت بما يشبه النشوة حينما أولج الطبيب أصبعه في رحمها، بالرغم من أنه فعل ذلك بشكل عادي جدا وبلا مبالاة تقريبا، وبحضور الممرضة، علما أن الطبيبة الإيرانية فعلت ذلك أيضا لكنها لم تشعر بأي شيء، على العكس أحيانا كانت تشعر بالألم.

مرت بالبحيرة التي تفصل الشارع الذي تقع فيه عيادة الطبيب عن السوق الكبيرة للمدينة. رأت عشرات البطات تسبح وعددا من الأطفال وبعض العجائز والشيوخ يلقون لها بالخبز. دخلت السوق. ذهبت مباشرة إلى الصيدلية وهي تحمل الوصفة التي كتبها لها الطبيب.

استلمت حواء المؤمن الدواء ثم أخذت تتجول بين المخازن الكبيرة. رأت بعض الأجانب فعرفت أثنين منهم. حدثها شاب ألماني، لم تفهم منه شيئا، فأسرعت وجلة دون أن تجيبه، بينما ظل هو مستغربا من رد فعلها. لعنت نفسها. قالت لنفسها يجب أن تتعلم الألمانية ولو قليلا، فهي بالتالي خريجة المرحلة الإعدادية، وقابليتها للفهم لا بأس بها كما أنها تعرف بعض الإنكليزية.

دخلت إلى أحد المخازن الكبيرة المختصة بالمواد الغذائية. اشترت

بعـض الفواكـه والخضـار ووضعتها بأكيـاس النايلون. وحينما عادت إلى البيت وجدت بأن زوجها قد خرج.

آدم البغدادي: ممكن تعديل هذا الفصل، بأن يتم التوسع في وصف مشاعر حواء المؤمن الجنسية، وأن يترك الزوج الدكتور آدم التائه نائما في البيت، بحيث يمكن أن تتطور الأحداث بما يمكن أن يكشف أكثر عن عالم حواء المؤمن النفسي ورغباتها الدفينة.

(3)

محنة حواء المؤمن

ما الـذي جـاء بـيّ إلى هذه البلاد النائية، وإلـى هذه المدينة بالذات. لم أكن أحلم بالسـفر إلى هذه البلاد. أبعد رغبة لي في السـفر كانت أن أدور بين محافظات بلادي.

لقد أحببتُ آدم الصالح حينما كنتُ في الخامسـة عشـرة من عمري. استمرت علاقتي به لسنة تقريبا. أتذكر كيف كنت أذهب إلى بيتهم حيث كان يعيش مع أمه، وكيف كان يتحجج لدفع أمه إلى الخروج حينما يكون بيننا موعد. أتذكر ارتباكي حينما قبلني من شفتيّ أول مرة، إذ لم يقبلني أحد من شـفتيّ قبله. كنت أشـاهد ذلك في الأفلام المصرية فقط. أتذكر كيف أحسستُ بالغثيان أول الأمر، وكيف استطابت نفسي لمثل هذه القبل فيما بعد. وكيف كشفت عن جسدي لأول مرة أمامه، وكيف...

أذكر حواء البصري زوجة أخي، التي أجبرها أهلها على الزواج من أخي، إذ كانت هذه المسكينة تحب رجلا آخر، وحين اعترفتُ لها بحبي لآدم الصالـح صـارت تسـاعدني فـي ترتيب اللقـاء بيننا. كنا نخرج بحجة زيارة أهلها، بينما كانت تنتظرني لحين انتهاء لقائي معه.

أذكر الكارثة حينما شـاهدني ابن عمي مع آدم الصالح مصادفة عند بابهـم، فأخبـر أهلـي، حينهـا تعرضـت للضرب المبرح من أخـي الكبير، ووجدت العائلة الحل الأمثل إذ زوجوني لأبن عمي.

أتذكـر ليلـة الزفـاف بتقـزز ورعـب، فقـد اغتصبني زوجـي حينما لم أستجب له طواعية. فسبب لي جرحا ونزيفا بقيت مريضة على أثره لفترة

ليست قصيرة.

لا أدري كيف مرت شهور الزواج تلك، إذ وجدت نفسي مطلقة بعد سنة ونصف لأني لم أنجب لزوجي. أهله كانوا يريدون أن يروا ذريته. خيروني بين أمرين: أما أن أقبل بأن يتزوج امرأة أخرى أو أقبل بالطلاق، فاخترتُ الطلاق بالرغم من أن أخي عارض ذلك وحاول إقناعي بقبول أن تكون لي ضرة فالاسلام يسمح بذلك، إلا أن حواء البصري زوجته سعت بكل السبل لإقناعه بقبول رأيي بالطلاق.

ثمة فكرة طالما شغلتني: كيف يتغير الإنسان وينقلب إلى ضده؟ لأني حينما أسترجع الماضي، أجد نفسي في حيرة أمام زوجة أخي التي ساعدتني في مسألة الطلاق ودافعت عني في مختلف الأحوال والظروف، والتي طالما حدثتني عن الحب والقدر وعن ظلم الأهل والناس والمجتمع. هذه حواء البصري نفسها تحولت إلى ضدي واضطهدتني حينما رجعت إلى بيت أخي بعد طلاقي. لا أتذكر أسوأ من تلك الأيام خلال تلك الفترة التي امتدت لسنة ونصف.

خلال تلك الفترة عرفتُ أن آدم الصالح قد تزوج أيضا، وسعيت للاتصال معه. وحينما قابلته لم نتحدث كثيرا. كان باردا جدا ولم يشأ أن يتواصل معي، بل كان يتهرب من أي ارتباط معي بالرغم من أني كنت مستعدة أن أكون عشيقته لكنه لم يبد أية رغبة في ذلك. أتذكر ذلك جيدا، وهذا ما دفعني إلى القبول بالدكتور آدم التائه، الأستاذ الجامعي، الذي يكبرني بحوالي عشرين عاما، الذي كان سابقا جارهم لكنهم انتقلوا فيما بعد إلى منطقة أخرى، والذي كان وحيدا لوالديه المريضين والعجوزين المحتاجين لمن يخدمهما.

لقد قبلتُ بهذا الزواج بعد سنتين من الطلاق هربا من بيت أخي، ومن مصير المطلقة التي يحاسبها المجتمع على أنفاسها. لذا أحسستُ بالسلام حينما انتقلتُ لبيت الزوجية الجديد.

بعـد فتـرة مـن زواجـي الجديد سـمعتُ بمشـاكل حبيبي السـابق آدم الصالـح مـع زوجتـه بسـبب حـواء زوجـة أخـي، لأنه كان قـد أقام علاقة معها بعد زواجي من ابن عمي، وأن زوجتة قد نشـرت سـر هذه العلاقة الفضيحة، وكان هذا هو السبب الذي دفع أخي إلى طلاق زوجته.

أتذكـرُ كيـف أنـي بمـرور الوقـت صرت سـيدة البيـت الجديد، فأم زوجـي مريضـة جـدا ولـم يكـن لها رأي في شـؤون المنزل. كل شـيء كان بيـد الأب المريـض أيضـا، لكنـه لـم يهتـم لمرضه كثيـرا ولم يلتزم بنظـام تعاطـي الأدويـة. أمـا زوجي الدكتور آدم، كما كانا والداه يناديانه، فقد كان وكأنه لم يتزوج، إذ أنه يقضي معظم وقته خارج البيت أو في غرفة المكتبة التي كان يسهر فيها إلى وقت متأخر جدا منشغلا بالكتابة، ولـم يكـن يتعامـل معـي كزوج إلا نادرا حينمـا يأتي ثملا، ويحدث هذا في غرفة المكتبة، وأحيانا على طاولة الكتابة دافعا بالكتب إلى الأرض، وكان أثناء ذلك يسـألني بغضب إن كان زوجي السـابق ينيكني أحسـن منـه أم أنـه الأفضـل؟ وكان يجبرنـي على الإجابة لأصرخ وأنا ألهث من المتعة: أنت أحسن.. أنت أحسن.

لـم نكـن نتبـادل الحديـث إلا نـادرا، إلى أن انهـارت صحة الأم وتم نقلها إلى المستشفى لترقد فيها استعدادا لإجراء عملية جراحية لاستئصال المرارة التي وجد الأطباء فيها حصى، إذ صرنا نذهب معا لزيارتها والبقاء عندهـا لبعـض الوقـت كل يـوم تقريبا. وبعد إجراء العملية بأقل من شـهر توفيـت الأم نتيجـة لضعـف عمـل القلب، فتـم دفنها في النجف، وصرتُ وحيدة تقريبا مع الأب العجوز المشاكس.

بعـد أشـهر مـن ذلـك، وفـي ظهيـرة يـوم صيفي سـاخن، كان زوجي الدكتـور آدم التائـه غائبـا فيـه عن البيت كعادتـه، وكنتُ قد أعددتُ للأب وجبة الغذاء، ثم قدمت له الفواكه والبطيخ والرطب وذهبت لآخذ القيلولة في غرفتي، رأيت الأب يدخل غرفتي.

هـذه هـي المـرة الأولـى التـي يدخـل إلـى غرفـة نومـي، ودون أيما

كلام جلس على حافة سريري، بالقرب مني. كنتُ مستلقية وفي وضع النهوض، فسألني إن كنت تعبة، فقلت له بشكل لا إرادي: نعم.

فجأة جلس على الأرض أمامي.أخذ قدمي ليمسح عليهما برفق. شعرتُ بالصدمة من تصرفه. لم أعرف ماذا أفعل. قلتُ بصوت خافت: لا داعي لذلك يا عمي، لكنه، أخذ يصعد كفه إلى فخذيّ ويمد يده تحت ثوبي. أردتُ أن أبعد يديه عني لكنه، برغم كبره في السن إلا أنه كان قويا، فلم أستطع النهوض ولا أن أبعد يده عني، ولم أعرف ماذا يمكن أن يحدث، بل ولم أفكر إلا في شيء واحد هو: ماذا لو أن زوجي يدخل الآن ويرى هذا المشهد المحرم؟

أخذت يداه تصعدان إلى الأعلى، ثم مدهما إلى ما بين فخذي وبدأ يداعبني. حينها لم أعرف ماذا أفعل. وجدت نفسي مشلولة الإرادة والجسد. أردتُ أن أقاوم لكن المقاومة كانت في أعماقي ولم تظهر قط. لم أبد أي حركة جسدية بالممانعة، بل كنتُ أستجيب له من أجل أن ينتهي هذا المشهد الغريب، لكني لم أنتبه إليه إلا حينما بدأ يقبل نهدي. وانتبهت إلى نفسي عارية تقريبا وبين يديه. كنتُ شبه مخدرة. أحسستُ بالرضا حينما بدأ ينحدر مقبلا كل تفاصيل جسدي. لم أشعر بلذة ونشوة أكبر وأكثف من تلك التي وجدتها حينما كان يقبل ما بين فخذي بلسانه. كنتُ شبه مغمى عليّ، وفجأة أحسستُ بيدي تمسكان بكتفه من شدة الرغبة المحرمة، لكنه وبشكل غير متوقع قام ليذهب خارجا وبسرعة.

هكذا بدأت بيننا علاقة محرمة غريبة. وامتلأ البيت بالأسرار واللذة المحرمة. إلى أن فاجأنا زوجي ذات ظهيرة، إذ دخل الدار دون أن ينتبه إليه أحد. كان الأب قد تسلل إلى غرفتي كعادته. لكن من حسن حظي أن الأب كان جالسا على السرير بجانبي ولم نكن في وضع مريب. ارتبك زوجي حينما دخل الغرفة وجفل. أنا لم أرتبك فحسب وإنما تجمد الدم في عروقي واحتبست أنفاسي، لكن موقف الأب كان غريبا،

فربما ارتبك للحظة، لكنه استرجع وضعه وكأن الأمر لا يحتمل أي شك أو تفسير مريب.

قـال الأب إنـه كان يحدثنـي عـن مسـتقبلنا، ولمـاذا لا ننجب أطفالا لنزيـن بهـم حياتنـا الجافـة، وأنه يسـألني أن كانت هناك مشـاكل بيننا وأن علينا مراجعة الطبيب.

حينهـا اسـتقبل زوجـي الأمـر بغرابة ولم يعلق علـى كلام أبيه، لكني شعرتُ في أعماقي بأن دودة الشك بدأت تنخر في قلبه، ثم جاءت فترة بقي زوجي فيها بالبيت لأيام عدة. أحيانا كان يعود مرتبكا وخائفا، وأحيانا كان يفز من نومه نتيجة كوابيس كما أظن. كان يخاف شيئا ما.

أذكر بعدها وبشكل مفاجئ بدأ يتحدث عن ضرورة السفر إلى خارج البلاد، لاسـيما وأن وضع البلاد مرتبك، وكما يبدو أن لديه مشـاكل في الجامعـة التـي يعمـل فيهـا وأنـه يكـره البـلاد والنظام الذي فيـه. وما أكد شكوكي أنه أخذ يرجع مبكرا إلى البيت، وبعض الأحيان لا يخرج نهائيا ويبقى في البيت لأيام ولا يخرج إلا لضرورات العمل أو لمراجعة دائرة الجوازات للحصول على جوازات سفر.الغريب أنني لاحظت أنه يتحدث عن سفرهما فقط بدون ذكر للأب.

أتذكر كيف بدأ ينتبه لوجودي وكأنما يكتشـف جمالي لأول مرة، إذ أخذ يقترب مني، بل وأحيانا لا يدعني أنام، مستخدما معي كل الأساليب والأوضـاع، ولا أعـرف لِـمَ أخذتُ أشـفق عليه، بـل وأميل إليه. لقد كان خبيرا بلغة الجسد، كما كنت أحس بالذنب أمامه.

بـدأت صحـة الأب تنهـار. وكان يرفـض تعاطـي الدواء ويضرب عن الأكل. كان يتحجـج ويبحـث عـن أي شـيء للمشـاجرة والاصطـدام مع ابنه. يسخر منه مقللا من شأنه وقيمته ودرجته العلمية. الغريب أن الابن كان لا يرد عليه وإنما يدخل غرفة المكتبة ويناديني إليه ويقفل الباب ولا يسمح لي بالخروج بينما ينهمك هو بالكتابة كالمجنون.

صار الأب أشبه بالمشلول إذ لم يعد يستطيع الحركة بسهولة، وصار

شخصا لا يطاق،إذ أخذ يشتمني بألفاظ جارحة أمام ابنه الذي لا يعلق شيئا على أي كلام يصدر من أبيه، وإنما كان الغضب الدفين يملأ عينيه.

أتذكر ذلك الصباح حينما طُرق الباب ولما فتحتهُ وجدت رجلين بملابس طبية وسيارة إسعاف خلفهما ورأيتُ زوجي معهما. دخل الرجلان مع زوجي إلى البيت وذهبا إلى غرفة الأب، وسمعت جدلا ثم تعالت أصوات بين الأب والابن ومحاولات الرجلين للتهدئة والشرح، ففهمت أنه يريد إيداعه في بيوت العجزة.

وأخيرا انجلى الموقف عن خروج الأب مسنودا مع الرجلين وهو يشتم ويعربد ويصرخ مذكرا بنكران الجميل وعقوق الوالدين ولعنات الأب على الابن إلى يوم القيامة، شاتما إياي وكأني أنا التي أشرت عليه بذلك، مذكرا الابن بأنني سأركب له القرون وأنني عاهرة رخيصة.

بعد فترة وجيزة باع زوجي الدار بمبلغ لا بأس فيه لكنه أقل من قيمته، وباع مكتبته الكبيرة ولم يأخذ معه إلا بعض الدفاتر التي كان يكتب فيها، وبعض الكتب التي واحد منها يحمل أسمه (آدم تائه)، ورحلنا إلى الأردن التي وصلنا إليها مساءً بعد رحلة طويلة.

وفي عمان نزلنا في فندق رخيص، وكان زوجي آدم التائه يخرج صباحا لمراجعة بعض السفارات الأجنبية، ومساءً للالتقاء ببعض العراقيين المقيمين وبعض الفلسطينيين، بينما كنت أبقى في غرفتي أشاهد التلفزيون منتظرة أن يأتي زوجي لأتواصل من خلاله مع العالم وأفهم منه ما ينتظرنا. وحين طالت فترة الحصول على التأشيرات، أجّر زوجي بيتا، لكنه في الواقع ليس بيتا، بل غرفة بالكاد تتسع لأثنين مع زاوية مغطاة بالصفيح فيها حنفية بمثابة مطبخ، إلى جانب غرفة صغيرة هي حمام ومرفق صحي في آن واحد.

في أول يوم لسكننا هناك جاءتني امرأة منقبة بدأت بالحديث معي عن ضرورة الحجاب والابتعاد عن طريق الشيطان وقدمت لي عباءة وحجاب وفوطة وكتاب المصحف الكريم. وحين جاء زوجي وأخبرته

بمسـألة المـرأة المحجبـة، سـخر منهـا، وقال إن علـيّ أن أنتبه من هؤلاء النـاس، وإن الأيمـان فـي القلـب وإن الإنسـان مـا دام لا يـؤذي الآخرين فهو غير مذنب، وإن الرسول الكريم قال إن المسلم من سلم الناس من لسـانه ويده، وإن الحجاب مسـألة شـخصية، فإذا أردتُ أن أتحجب فهذا شـأن يخصنـي وهـو لا يمانـع، وإذا لـم أشـأ فهو لا يجبرنـي عليه. حينها أحسست أني أحب زوجي.

أتذكر كيف أنه ذات صباح دعاني إلى أن أذهب معه لمراجعة إحدى السـفارات الأوربيـة. وبعـد أيـام جـاء فرحـا علـى غير عادتـه، طالبا مني الخروج معه لشراء بعض الملابس لأننا سنهاجر إلى أوروبا.

وحينما جاء يوم السـفر عرفت أننا لم نكن وحدنا. لقد اتفق زوجي مع عائلة عراقية أخرى التقينا معها في المطار. وهكذا سافرنا إلى أوروبا حيث دخلنا برلين من محطة تسمى محطة (تسو غارتن)، وهناك كان من ينتظرنا.

مـا الـذي جـاء بـي إلى هذه المتاهة؟ فمن متاهة حياتي في بلدي إلى متاهة حياتي هنا. ومما يثير سخريتي أحيانا أنني الآن لاجئة سياسية بينما لا أفهم في السياسـة شـيئا ولم أشـارك فيها أبدا، وأتعجب من الأوربيين الذين يصدقون كل أكاذيب الأجانب عن كفاحهم والمخاطر التي تهددهم نتيجة صراعهم مع السلطة في بلادهم.

الحياة هنا منظمة بشكل كبير وهادئة جدا، لكنني غير سعيدة، لماذا؟ أنا نفسـي لا أعرف السـبب. أحسسـتُ أنني وبمرور الأيام صرت قاسـية القلب باردة الأحاسـيس. أشـعر بالوحدة والوحشـة. زوجي الذي انتبهت إلى أنه يكن لي شيئا من المودة يكشف عنها لحظة ممارسة الجنس معي، هو أيضا صار قاسيا.

أنـا متأكـدة بأنـه مـا زال يشـك بعلاقتـي غيـر الطبيعيـة مـع أبيه، لأن تصرفاته تشي بذلك أحيانا، بل صار يتحدث بصراحة عن إعجابه بالنساء الألمانيات أمامي. أنا أبتلع المهانة لأني أشعر بالذنب أمامه، فما لديه من

شكوك أعرف أنها حقيقة، ولو عرف ما جرى بيننا ربما سيقتلني، لكن ثمة شعوراً جديداً بدأ يخترق عالمي، إنها مشاعر الأمومة التي بدأت تغرقني. أحس بالحاجة إلى أن أحمل، أن أنجب طفلا. أريد أن أصير أما.

آدم البغدادي: هذا الفصل فيه الكثير من الأحداث المهمة، ربما يفضل أن يتم الكشف عن علاقة الأب بحواء المؤمن، زوجة ابنه، في فصل خاص وأن يتم التوسع في التفاصيل، وأن تسمّي الأشياء والأعضاء بأسمائها.

لكنه ربما حينها لن أستطيع نشر الكتاب، أو حتى لو نُشر ربما لن يتم توزيعه في الكثير من البلدان العربية، لأنه سيوصف بالإباحية والسوقية والابتذال، وربما سيثير عليه فئات اجتماعية محافظة كثيرة. إذن عليّ أن أكتفي بهذا القدر من التفاصيل وأترك الأمر لمخيلة القارئ.

هل هناك ضرورة لذكر التفاصيل الجنسية في العمل الروائي؟ ألا يمكن أن يفسر بمحاولة ابتزاز مشاعر القارئ وإثارته أو أنه تعبير عن كبت الكاتب الجنسي وتعويضه ذلك من خلال الكتابة، أو هو استمناء ذهني يقوم فيه الكاتب بوعي أو دون وعي.

لكن ربما لهذه التفاصيل علاقة بالصدق الإبداعي، فهو لم يقابل حواء المؤمن الحقيقية في الحياة إلا مرات قليلة وعابرة، واسمها في الرواية مجازي وليس هو الاسم الحقيقي لزوجة صديقه الدكتور، وهو إذ يسترجع صورتها في مخيلته فهو يمنحها مساحة للتحرك مستعينا بتجربته مع نساء أخريات وبتفاصيل حقيقية عرفها من أخريات، وحتى آدم التائه فهو ليس هذا باسمه الحقيقي، فهو ليس الدكتور آدم التائه، وإنما لديه اسم آخر، ولا يستطيع أن يسميه باسمه ويروي كل شيء عنه كما رواه هو له، وإنما هو يأخذ الخطوط العريضة من حياته

ويرسم الشخصية التي في ذهنه.

وهنا، ربما يجب أن أغير من أسلوب وطريقة الدكتور آدم للتخلص من أبيه، إذ ربما عليه أن يخنقه بالوسادة أثناء النوم أو أن يسممه عن طريق تغيير أدويته، لكن ذلك ربما سيكون مبالغاً فيه، فعقوق الوالدين وبهذه الطريقة أكثر قبولا لدى القارئ، وأنه شخصيا يعرف قصصا أشد هولا من هذه وأكثر إثارة للألم من عقوق الأبناء.

(4)

النساء خُلقن هكذا

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً حينما عاد الدكتور آدم التائه مع اثنين من أصدقائه إلى البيت. فوجئت بعودته مبكرا، لكن زوجته ما أن لمحت كيس النايلون المليء بعلب البيرة حتى فهمت بأنهم ينوون قضاء السهرة في البيت.

عاد الدكتور آدم التائه مرحا، وكان بين لحظة وأخرى يلقي نكتة أو عبارة ماجنة عن النساء الألمانيات. ولم يكن هذا بجديد عليها، لكنها الآن تشعر بمهانة أكبر لأنه يتحدث أمام رجال آخرين، بل إن أحدهم أرتبك لوجودها عندما أطلق زوجها نكاته الماجنة. هي تعرف أنه يتعمد الإساءة إليها انتقاما لنفسه وتهدئة لشكوكه وكرامته المهدورة، وكان هو يزاد مرحا كلما رأى الغضب في عينيها.

أعد زوجها صحنا من الخيار والطماطم وفتح كيسا من اللوز ووضع علب البيرة على الطاولة، ثم اتجه إلى غرفة النوم وعاد بقنينة فودكا وشدة من ورق اللعب، أما هي فحاولت إشغال نفسها في المطبخ، لكن الوقت كان مبكرا كي تذهب إلى النوم، لذلك جلست على الأريكة المقابلة بعيدة عنهم وأخذت تشاهد التلفزيون الذي كان يعرض فيلما ألمانيا عن الحرب. كان الفيلم يروي قصة امرأة يهودية هربت من الجنود الألمان، وحينما وصلت إحدى القرى اختفت في كوخ أحد الفلاحين الأغنياء الذي أعجبته حينما رآها لذا لم يخبر عنها واتخذها عشيقة له.

لم تكن حواء المؤمن تفهم الحوار لكنها كانت تفهم سياق الأحداث

بصريا، وكانت قد تابعت الفيلم قبل وصول زوجها وأصدقائه بفترة.

كانت حواء المؤمن في ثوبها الشفاف، الذي تلبسه عادة في البيت، حينما دخل زوجها وأصدقاؤه، لذا انتبهت إلى أن أحد الأصدقاء كان يبصبص بين الحين والآخر إلى جسدها الذي كان ثوبها يحدد معالمه الفتية.

تضايقت من نظراته أول الأمر لكنها ارتاحت لها في ما بعد، بل صارت تشعر بالغضب حينما ينهمك الصديق باللعب وينشغل عن النظر إليها. كانت مشاعرها متناقضة، فهي تريد استفزاز زوجها وإثارة غيرته وأيضا لإرضاء غرورها بأنها تثير الإعجاب.

الفيلم الذي كانت القناة الألمانية تعرضه وصل إلى مشهد حميم، حيث كانت المرأة تركض في الغابة القريبة، ثم عادت إلى الكوخ، فحمل الفلاح طستا وإبريقا من الماء ثم وضع قدميها في الطست وبدأ يغسلها. انتبهت حواء المؤمن إلى أنهم توقفوا عن اللعب لمشاهدة الفيلم.

كان الفلاح قد مد يده لفخذيها وهو يلهث، كانت المرأة تتوسل إليه وتتحدث معه، لكنه لم يسمعها بل ألقاها على الأرض ورفع ثوبها ودخل بين ساقيها.

كان الصمت قد لجمهم فلم ينطق أي منهم بكلمة. أحست بارتباكهم. نظرت إلى الرجل الذي كان يختلس النظر إليها. انتبه زوجها وارتسمت علامات الغضب على وجهه. لم تعرف من أين جاءتها فكرة الانتقام منه. أرادت أن ترد عليه بالأسلوب المهين نفسه. إقتربت منهم وكأنها تبدي فضولها لمعرفة نتائج اللعب. حاولت أن تشاركهم حديثهم لكنها استغربت أنهم كانوا يتحدثون عن مجموعة من الشباب العرب الذين يقومون بالسرقة ويبيعون الحاجات المسروقة بربع ثمنها، فلم تتمالك نفسها فقالت:

– لم يبق سوى أن تتحولوا إلى لصوص

نظر الرجال إلى آدم التائه معاتبين على طريقة كلام زوجته، فقال

لها غاضبا:

- أغلقي فمك...

فالتفت إليها الرجل الذي كان ينظر إليها بإعجاب:

- ما العمل يا حواء، القانون هنا لا يسمح للاجئ بالعمل إلا بعد خمس سنوات، وراتب المساعدة الاجتماعية لا يكفي..

فقاطعته باستياء:

- المساعدة التي يعطونها يمكن أن تكفي إذا لم يذهب الشخص إلى المراقص ولا يشرب الكحول، ثم أنكم جميعكم حينما جئتم إلى هنا أدعيتم بأنكم سياسيون مطاردون في بلدانكم..

لم تكمل حواء المؤمن كلامها لأن زوجها نظر إليها بغضب، فقال أحدهم:

- لا تهتم يا دكتور آدم.. النساء خلقن هكذا..

في تلك اللحظات كانت شاشة التلفزيون تعرض مشهدا من الفيلم حيث بدأ الفلاح يقيم علاقة جسدية مع المرأة الهاربة، حيث وضع قدميها في طست مليء بالماء وبدأ يمسح رجليها صاعدا بيده إلى فخذيها.

انتبهت حواء المؤمن كيف توقف الجميع عن اللعب لمتابعة المشهد. تذكرت تلك الظهيرة الصيفية الملتهبة فبدأ الدم يصعد إلى صدغيها، ولم يكن أمامها سوى أن تقوم لتخرج من الغرفة، كي لا ينتبه أحد لما هي فيه، وأيضا للحرج الذي يسببه متابعة الفيلم أمام هؤلاء الرجال.

آدم البغدادي: أعتقد أنني بهذا قد اقتربت أكثر من عالم حواء المؤمن.

(5)

أحلام وكوابيس

في وسط المرج الأخضر الذي تحيطه الأشجار لم يكن ثمة أحد من البشر. كانت الشمس عالية، وثمة ضباب كثيف يغطي الأفق المفتوح من المرج. في وسط المرج كان تابوت من الخشب الصندل. من خلف الأشجار بدأت حركة ما. شيئا فشيئا برزت أشباح ملفوفة بالقماش الأبيض وكأنها مومياء. أخذت الأشباح تقترب من التابوت بحركة بطيئة إلى أن التفت حوله، ثم انحنت وفتحت التابوت. لم يكن هناك سوى دمية من القماش. أغلقت الأشباح غطاء التابوت ثم أخذت تبتعد راجعة إلى مكانها خلف الأشجار إلى أن اختفت.

التابوت ما زال وسط المرج. شيئا فشيئا بدأ غطاؤه يُفتح. من التابوت خرجت حواء المؤمن واقفة. كانت في ثوب أبيض شفاف. خرجت من التابوت ومشت مثل السائر في النوم نحو جهة الضباب إلى أن اختفت فيه.

من الضباب جاءت أصوات حركة بدأت تقترب. ظهر حصان أبيض. أخذ الحصان يقترب من التابوت إلى أن وقف قربه ومد رأسه فيه ثم رفع رأسه وفي فمه باقة ورد. ابتعد الحصان مختفيا في الضباب. من أعماق الضباب ظهرت حواء المؤمن ثانية، وبنفس الخطوات والأيدي الممددة للأمام، جاءت التابوت ودخلت ثم تمددت فيه وأغلقت الغطاء على نفسها بقوة. طارت العصافير والطيور من بين الأشجار أسرابا.

فزت حواء المؤمن من النوم مرعوبة. كان العرق قد بللها. أزاحت

الغطاء وجلست على حافة السرير بصمت.

نهضت بتثاقل وخرجت من غرفة النوم إلى غرفة الاستقبال. أشعلت النور في المصباح الكهربائي، وجلست على الصوفا بإعياء. كان زوجها قد خرج مع الرجال الذين جاء معهم. تأملت الكتب التي على الرفوف.

نهضت مقتربة من طاولة الكتابة. كانت أوراق زوجها مبعثرة هناك. كانت ملزمة من الأوراق قد كتب عليها (المرأة المجهولة) وتحت هذا العنوان كتب بخط عريض (متاهة آدم) - (رواية).

هي تعرف أن زوجها يؤلف الكتب لكنها لم تقرأ له يوما أياً مما كتب. تدري أنه حمل معه من بغداد كتابا يحمل صورته واسمه. راودها فضول بأن تقرأ الذي كتبه زوجها. ربما كتب أسراره في هذه الملزمة. قررت مع نفسها أن تقرأ هذه الملزمة. أرادت أن تتعرف على هذه (المرأة المجهولة)، فهل يا تُرى هناك امرأة أخرى في حياته.

ما أن همت بأخذ الملزمة والجلوس لقراءتها حتى سمعت حركة المفتاح في الباب، إذ دخل زوجها، ثملا، متعبا، ساهي النظرات. ارتسمت على وجهه علامات الاستغراب حينما وجدها لا تزال صاحية ولم تنم لحد الآن، إذ كانت الساعة تقارب الثالثة فجرا.

راود الدكتور آدم التائه للحظة شعور بأنه كان قاسيا معها أمام الرجال هذا المساء. تأملها. كانت حواء المؤمن امرأة مثيرة. هي طويلة القامة نوعا ما، متناسقة الجسد، ممتلئة الشفاه، طويلة الأنف قليلا، بنية العينين، يكشف جسدها عن انحناءات مثيرة لاسيما الجزء الأسفل من جسدها، وشخصيتها وملامحها تشي بأنها امرأة لديها عالمها الخاص، فهي تتجه إلى الداخل ولا تهرب إلى الخارج.

جلس إلى جانبها بطريقة وكأنه يرمي بنفسه عليها، فأزاحت نفسها قليلا كي يجلس براحته إلى جانبها. أحتك فخذه بفخذها فأحس بطراوتها. تصاعدت رغبته في مضاجعتها لكنه لا يعرف كيف يبدأ لأن تعامله معها هذه الليلة أمام الرجال لا يمكن إصلاحه بسهول. لكنه يعرف أنها يمكن

أن تنسى أي خلاف بينهما بعد أي مضاجعة له معها، أو على الأقل تنسى لفترة قصيرة.

أحسـت حواء المؤمن برغبته التي كشـفتها نظراته المليئة بالشـبق، لكنهـا أرادت أن تعاقبـه علـى تصرفـه معهـا أمـام الآخريـن. أرادت النهـوض. لكنـه أمسـك بيدهـا سـاحبا إياهـا إليـه. تمانعـت وصدتـه فأحتضنهـا بذراعيـه، ووضـع رأسـه علـى بطنهـا وهي واقفـة بين يديه تحاول التملص منه إلى أن اسـتطاعت تحرير نفسـها منه وذهبت إلى غرفة النوم وأغلقت الباب.

قـام خلفهـا دافعـا البـاب بقـوة. فوجئت وهو يحتضنهـا من الخلف. حاولت التخلص منه فلم تستطع. بدأت تحس بحرارته وشبقه الذي أثار فيها رغبة عارمة لكنها لا تستطيع الاستسلام والقبول بسهولة فظلت تمانع وتماطل في الاستجابة. كانت تستمتع بمحاولاته السيطرة على جسدها. وبالرغـم مـن أن آدم التائـه كان ثمـلا إلا أنـه كان قويـا، لـذا سـيطر عليها بذراعيه ودفعها إلى السـرير رافعا ثوبها من الخلف إلى الأعلى وسـاحبا سروالها بقوة كي يصل إلى قدميها. ومثل أي حصان هائج بطحها وأولجه فيها، فأحست بعضوه يدق باب رحمها.

كانت تشـعر بلذة عنيفة، بينما هو يطلق كلمات بذيئة منتشـيا وطالبا إياها أن تردد ما يقوله لها. ولم يكن أمامها سـوى الاسـتجابة. كانت في بداية الأمر تستحي لكنها أخذت تكرر تلك الكلمات دون أن يطلب منها ذلك، بل وتشعر بالراحة والشبق حينما تلفظها.

كان زوجها سـريعا في الوصول إلى النشـوة والقذف بينما كانت هي فـي ذرى الرغبـة. همـد عليهـا كالجثـة. كانـت هـي تنتظـر أي حركة منه. فجأة قام عنها منسـحبا من الغرفة، بينما ظلت هي على رقدتها تائهة في منعطفات اللذة المقطوعة، فمدت يدها إلى أسفلها لتداعب نفسها وتصل بنفسها إلى الذروة.

آدم البغدادي: بعد قراءة هذا الفصل شعرت بالتوتر الجنسي. هل هذا الإحساس سيراود كل من يقرأ الفصل؟

أتذكر أني قمت بهذه التجربة مع جارة لنا حينما كان زوجها غائبا، وكانت هذه الجارة تثيرني وتدعوني وحينما أود الاقتراب منها تبتعد. وقد صادف أن كان الجو ملائما لي ولها. لم يكن أي شخص في الدار. دخلت عليها وفعلت معها ما فعله آدم التائه مع حواء المؤمن، بفارق وحيد هو أنها كانت امرأة جريئة، فقد كانت هي التي تطلب مني أن أتلفظ ببعض الكلمات الجنسية الفاحشة معها، بل وقامت ببعض الحركات التي لم يكن قد جربتها من قبل، لكن لم أود أن يكررها آدم التائه، لأن تلك الحركات لا تنسجم مع شخصية بطلته حواء المؤمن، لذا اكتفى بهذا القدر.

أتذكر أيضا بأني شاهدت مثل هذا المشهد في فيلم أميركي ل(مايكل دوغلاس) حينما يغتصب إحدى صديقاته من الموظفات اللاتي معه. لستُ متأكداً من أين جاء هذا المشهد أثناء الكتابة؟ من تجربتي الشخصية أم من بقايا صور الفيلم العالقة في ترسبات اللاوعي.

حقا لا أعرف سر العملية الإبداعية وينابيعها الأصلية؟ كيف تتشكل الصورة الفنية؟ ومن أين للمخيلة تركيب هذه الأشياء؟ أتذكر المحلل النفساني والمفكر (غوستاف يونغ) ونظريته عن جبل الثلج في توضيح العلاقة بين الوعي الذي يشبهه بالقمة البارزة من جبل الثلج، وعن اللاوعي الذي يشكل ما تبقى من الجبل المغمور في أعماق المياه. فهل يستمد الكاتب من لا وعيه وبلا وعي أثناء تشكيله وإنجازه للعمل الفني؟

هل علي إبقاء هذا الفصل بهذه الصورة التي كتبتها أم أن علي تغييره أو حذفه بالكامل؟ أليس هذا الوضوح في رسم تفاصيل العلاقة فيه شيء من الإباحة وينتمي إلى الأدب المكشوف؟

أحقا أريد كتابة نص مكشوف أم أريد أن أكتب بصراحة وأكشف ما يجري بين المرأة والرجل بوضوح دونما تزويق؟ أنا أعتقد أن شخصية الإنسان الحقيقية تتكشف في السرير أو في العلاقة الجنسية. هل أنا معقد أو مريض؟ هل أنا مهووس جنسياً؟

من خلال تجاربي مع نساء من مختلف المشارب، مثقفات، أستاذات جامعيات وفنانات وأديبات وشخصيات نسائية يقدن منظمات دينية، محجبات وسافرات، وجدت جميعهن أثناء العلاقة الجسدية يتحولن إلى كتلة من الشبق، وحتى الباردات منهن كن يتلذذن بالكلام المفضوح معهن أو عنهن.

(6)

هروب آدم التائه

استيقظت حواء المؤمن من نومها متعبة ومهدودة الأعصاب. أحست بجسدها ثقيلا على الحركة لكنها قامت ببطء متجهة إلى المطبخ لتعد لنفسها القهوة. نظرت إلى الساعة الحائطية فوجدتها تشير إلى الحادية عشرة والنصف. حينما دخلت غرفة الاستقبال وجدت زوجها منهمكا بالكتابة، ومن ملامحه عرفت أنه لم ينم أو أنه استيقظ مبكرا جدا لكي يكتب، ولمحت أنه يواصل الكتابة في الملزمة التي تحمل عنوان (المرأة المجهولة) أو (متاهة آدم)، كما انتبهت إلى منفضة السجائر التي كانت مليئة بالأعقاب المحترقة والرماد.

لم ينتبه الدكتور آدم التائه لها وهي واقفة قرب الباب. فجأة رفع رأسه إليها ونظر إليها بشرود وكأنه لم يرها ثم واصل الكتابة، لكنها وقبل أن تلتف لتخرج سمعته يقول:

– ممكن تعملين لنا القهوة

لم تلتفت إليه وإنما واصلت طريقها إلى المطبخ قائلة:

– لقد بدأت أعدها

كانت قد وضعت القهوة في المرشح الورقي والجهاز الذي يُغلي الماء والذي بدأ يبعث قطرات الماء لتنزل على القهوة في الدورق الزجاجي.

لم يكن ما نزل من قهوة سائلة في الدورق كافيا للشرب بعد، لذا توجهت حواء المؤمن إلى الحمام.

في الحمام نزعت ثوبها مباشرة ووقفت تحت دش الماء وفتحته على أشد قوة فيه وبقيت هناك للحظات تحت وابل الماء الذي أحست به يطهرها ويعيدها لنفسها.

بينما كانت حواء المؤمن منشغلة بنفسها واقفة تحت وابل الماء، كان الدكتور آدم التائه قد أنهى فصلا جديدا من روايته التي أمضى أشهرا وهو يكتب في فصولها. فكر مع نفسه لحظتها في أنها رواية مُتعِبة، ولا يدري كيف سينهيها. لم يكن قد خطط لها بهذه الطريقة. لقد ولدت في ذهنه بشكل بسيط وأحداث واضحة المعالم، لكن ما أن بدأ الكتابة حتى أخذت الأحداث مسارات لم يفكر فيها والشخصيات تواجه مصائر لم يفكر بها قط، وبالرغم من أنه بدأ الرواية في بغداد إلا أنه واصل كتابتها في عمان واستمرت معه دون أن يستطيع الوصول إلى الخاتمة التي لا يعرفها لحد الآن.

حينما بدأ الكتابة في هذه الرواية كانت علاقته بزوجته حواء المؤمن سطحية. صحيح أنها زوجته، لكنه تزوجها تلبية لرغبة أمه التي يحبها كثيرا، وأنه فعلا كان يحتاج لامرأة تخدمها وتخدم أباه الذي لا يحبه والذي كان يجرح كرامة أمه التي كانت تعرف بأنه يقيم علاقات مع نساء أخريات.

يذكر حينما كان صغيرا في السابعة من عمره جاء أبوه ذات ليلة ثملا ومعه امرأة ودخل معها إلى البيت فتشاجرت أمه معه أمام المرأة الأخرى، وكان هو واقفا يبكي خائفا من هذا الشجار الذي انتهى بضرب أمه ودفعهما الأب إلى غرفتهما وأغلق الباب بينما دخل هو مع المرأة الأخرى إلى الغرفة الثانية. لم ولن ينسى تلك الليلة التي ظلت تفاصيلها تعاوده كلما أراد أن يسامح أباه.

كان الدكتور آدم التائه الابن الوحيد المدلل للعائلة، فقد ولدته أمه على كبر. يذكر أنه لم يعان من الحرمان فقد كانت كل الأشياء موجودة حوله. كان وضع العائلة من الناحية المادية جيد جدا، فوالده كان تاجرا

للحبوب والتبغ. وحينما بدأ الذهاب إلى المدرسة كان والده قد عين أحد العاملين لديه بأخذه إلى المدرسـة وإرجاعه عند نهاية الدوام، وكم كان يكـره ذلـك، لأنـه كان يحـب أن يلعب مع بقيـة التلاميذ وأن يرجع معهم دون رقيـب، فهـم يرجعـون جماعات وأثنـاء عودتهم إلى بيوتهم يثرثرون ويضحكـون وأحيانـا يمـرون بمواقف مضحكة وغريبة، يتبادلون الحديث عنها في اليوم الثاني عندما يتجمعون أثناء الفرص بين الدروس.

وكلما كبر الفتى آدم ازدادت شـدة رقابة والده عليه، بل وكان يقسـو عليه وكأنه ليس ابنه. كثيرا ما كان يشـكو لأمه التي كانت تلوذ بالصمت عندما كان يسألها: لماذا يعاملني أبي بهذه القسوة وكأني لست ابنه؟

يذكـر كيـف كانـت عيناها تغرورقان بالدموع، ولم يكن أمامها سـوى أن تحضنه وتقبله مخففة عنه دون أن تقول كلمة واحدة. يذكر ذلك جيدا ولن ينساه. بل ظل لسنوات، وما زال، يسأل نفسه: لماذا كانت أمه تصمت حينما كان يسألها عن سبب معاملة أبيه له بهذه القسوة؟.

كان يحـس بـأن أبـاه لا يحبـه مـن أعمـاق قلبه، بل يذكـر حينما كان صغيرا كان يوقفه أمامه ويتأمله وكأنه كان يبحث عن شيء في وجهه.

وكلمـا تقـدم الفتـى آدم التائـه بالعمـر توسـعت الهـوة بينـه وبين أبيه والتصـق أكثـر بأمـه، وحينمـا دخل الجامعة أحس بأن أباه لم يكن راضيا، فقـد طلـب منـه العمـل معه، إلا أن إصرار أمه على أن يكمل دراسـته هو الذي أنقذه من مصيره الذي أراد أبوه أن يرسمه له.

كانت البلاد تمر بمشاكل سياسية وحرب أهلية بين الحكومة والكورد الذين كانوا يقاتلون في الجبال، وكان كل من ينهي دراسته عليه أن يخدم إلزاما في الجيش، وكان معظمهم يرسلون إلى جبهات القتال في الجبال لمواجهة البيشمركة الكورد.

كانـت الجثـث القادمـة مـن هنـاك تبـث الرعب في قلـوب الأمهات، لذلك ما أن أنهى الجامعة حتى سجل لدراسة الماجستير، وسعت أمه في التوسط له من خلال قريب لها. كان أبوه يكره ذلك القريب جدا بالرغم

من أن ذلك الرجل القريب البعيد بذل كل مساعيه في ذلك بل وساعده في ما بعد لمواصلة الدكتوراه.

كان الفتى آدم التائه يدرك بأن هناك هوة غامضة مليئة بالأسرار تكتنف العلاقة ما بين والديه، لكنه لحد الآن لم يصل إلى قرارها. كل ما يعرفه أنه يحب أمه بكل طهرها وخطاياها إن كانت لديها خطايا، وهو يشك في ذلك فهي بالنسبة له قديسة، شهيدة. أما الأب فهو شخص غريب، بل إنه الشخص الذي عذب أمه، وضربها، وجاء بالعاهرات ليضاجعهن أمام عينيها.

درس آدم التائه في كلية الآداب قسم اللغة العربية، وقد واصل دراساته العليا في حقول الدراسات الإنسانية أيضا. في الجامعة شعر برغبة في الكتابة، كان قارئاً نهما، لكنه لم يفكر أن يكون كاتبا، وبرغم ذلك وجد نفسه يكتب. ربما شجعه ما لاقاه من ثناء حول أسلوبه في الكتابة وطريقة سرده للأشياء والأفكار بشهادة جميع أساتذته وزملائه طلبة الجامعة. لذا بدأ بكتابة الخواطر، لكنه وجد أنها تافهة ولا تلبي ما يغلي في نفسه، وجرب كتابة القصة القصيرة، لكنه وجد أنها أقصر من أن يقول ما يريد، لذا حينما كتب أحدى قصصه لم يلتزم بشروط القصة القصيرة فاستمر في سرد الأحداث حتى صارت لديه قصة طويلة لا هي بالرواية ولا هي بالقصة القصيرة، لذا قرر أن تكون رواية فأعاد بناء الأحداث. أضاف شخصيات جديدة وأطال من بعض الحوارات وأسهب في الوصف، فصارت لديه قصة طويلة يمكن القول عنها إنها رواية. لم يكن النشر بالنسبة إليه مشكلة من الناحية المادية، لكنه حينما قدمها إلى وزارة الإعلام تم رفضها لأنها (لا تستجيب لمشاكل المجتمع العراقي الذي يعيش التحولات الثورية وان معظم شخصياتها سلبية)، لذا قرر طبعها في بيروت. وفعلا راسل إحدى دور النشر المعروفة هناك واتفق معهم على المبلغ الذي كان بالنسبة لبقية الكتاب العراقيين كبيرا، وتم نشر الرواية التي لاقت صدىً طيبا في الصحافة اللبنانية، ولم يكتب عنها

في بغداد سوى أخبار عابرة وعرض مبسط، لكنها برغم ذلك رسمت له اسما في خارطة الكتاب.

ربما كان هو محبطا من الاستقبال البارد للرواية بين أوساط النقاد العراقيين، لكن الذي عوض عن هذا ما كتبه أحد الصحفيين اللبنانيين بأنه يجد في آدم التائه كافكا عربيا، فهذا الأسلوب الغامض والبوليسي والغرائبية لم تتعود عليها الرواية العربية.

أشد اللحظات إثارة في حياته الإبداعية كانت عندما دخلت إمرأة فاتنة ظنها إحدى الطالبات الفاتنات الأنيقات إلى مكتبه في الجامعة وقالت له بأنها قرأت روايته (كوابيس القنفذ)، وإنها معجبة بهذه الرواية جدا، ومعجبة بطريقته في الكتابة، لكن لديها بعض الملاحظات.

بعد أن قام الدكتور آدم التائه بمراسيم الترحيب طلب أن يسمع ملاحظاتها فقالت له بأن ملاحظاتها ربما لا تعجبه، وربما سينزعج منها، فنفى ذلك وأصر على أن تقول ما لديها وبصراحة شديدة، فقالت له كلاما وكأنها كانت قد أعدته، لأنها لم تتوقف ولم تتردد في سرد ملاحظاتها الجريئة، وما زال يتذكر كل تلك اللحظات والجمل التي فتحت بابا لسعادة مؤقتة في حياته:

– أنت يا دكتور آدم التائه كاتب تائه كلقبك. كاتب متردد. لا تستطيع أن تقول كل شيء. إن الغموض في روايتك ليس متأتيا من طريقتك الجديدة في الكتابة وإنما لخوفك من أن تقول كل شيء عن الشخصية وبصراحة، وأنك، وقد سمحت لي بالحديث معك بصراحة، معقد، وعلى الرغم من اعتقادي بأنك نفسك بطل الرواية أو على الأقل اعتمدت على تجربتك الشخصية فانك جسدت نمطا من الناس يعيش بيننا حقا، فزوجي تقريبا يشبه بطلك في الكثير من الأوجه.

فقاطعها الدكتور آدم مستفسرا وكأنه استلم رسالة خفية منها:

– هل أنت متزوجة؟

نظرت إليه أول الأمر بغرابة لمقاطعته لها مستفسرا عن هذا التفصيل من كل ما قالته، ثم استرخت ملامحها وابتسمت ابتسامة خفية، وكأنها فهمت بأنه يريد أن يتعرف عليها شخصيا، ولا يعنيه ما تقول فيه:

– نعم أنا متزوجة من رجل عسكري وبرتبة كبيرة...

صُدم من إجابتها وكأنه جاء كرسالة تهديد تنبهه أن لا يتمادى معها، واستمرت:

– أرجو أن لا تكون ملاحظاتي جارحة أو مزعجة.

فكر الدكتور آدم التائه بسرعة خارقة. كيف له أن لا يُفلت هذه الفاتنة من يده؟ وأن يقيم معها علاقة؟ لقد تأججت الرغبة فيه وهي تتحدث، لكنها أربكته بكلامها عن زوجها، لكن رغبته ظلت متأججة. إذن، عليه أن يستخدم أساليبه الأدبية وكل خبرته في اصطيادها.

– أبدا.. هذه أول مرة أجد من يفهمني بهذه الطريقة العميقة. بل أنت تفهميني ربما أكثر من نفسي. أنت، إذا سمحت لي، مرآتي. مرآة روحي القلقة والمعذبة.

انتظر وقع كلماته عليها. أدرك بأنه أثر فيها من خلال تعظيم شخصيتها ومنحها هذه التوصيف الذي أعجبها وأثار غرورها ودفعها للتعاطف الخفي معه، فقالت مبتسمة:

– يشرفني أن أكون بهذه المكانة برغم اعتقادي أني كنت قاسية عليك. أسعدني جدا أنك تقبلت ملاحظاتي بهذه الأريحية. هذه من سمات الكتاب الكبار الذين لا يهابون النقد مهما كان قاسيا.

لم يجبها الدكتور آدم التائه لأنه في تلك اللحظات كان يتخيلها عارية، لكن كان عليه الإجابة ايضا، فقال لها:

– أتمنى شيئا واحدا. بل هو رجاء أكثر مما هو أمنية

ابتسمت بغموض وكأنها تتوقع ما سيطلبه، لكنها أرادت أن تتأكد:

– ما هي أمنيتك أو رجاؤك. بودي معرفة ذلك لو سمحت

نظر آدم التائه إليها بتفحص. عرف أنها تعرف ما سيقول وأنها تتقبل ذلك، لكنها تلعب معه أيضا:

– أريدك أن تكوني مرآتي دائما. سأريك كل حرف أكتبه، وأستمع إليك وكأنما أستمع إلى نفسي الغائبة. أريد أن أرى نفسي فيك دائما.

ابتسمت أكثر وقالت وهي تنظر في عينيه مباشرة:

– دائما

– دائما. دائما. وإلى آخر لحظة في حياتي.

ضحكت بمرح وقالت:

– أوه. بدأنا ندخل المناطق الخطرة. إلى آخر لحظة في حياتي؟؟ هل أنت متأكد.

– متأكد. متأكد.

أحس بالتهيج. أراد أن يقوم من مكانه ويحضنها مباشرة لكن توقف وكأنما هناك نداء داخلي ناداه بأن يصبر ولا يستعجل إلى أن تنضج الفاكهة. إذن عليه الاستمرار في الدور. أصطنع الحزن والخيبة، فقال:

– لكني أعرف أن ذلك مستحيل

فوجئت بتحول حاله وأحست بالخوف من فقدان شيء ثمين، فقالت:

– لماذا مستحيل.

نظر إليها كمن يريد إطلاق طلقته الأخيرة على الهدف الذي سيحسم وضعه معها:

– لأنك متزوجة من شخصية عسكرية وبرتبة كبيرة كما تقولين. وهذا الأمر كما تعرفين ربما سيكون سببا لخلق بعض الصعوبات والمشاكل لك..... ولي

أحست ببعض الراحة حينما عرفت سبب الخيبة التي ارتسمت على ملامحه، فقالت مبتسمة:

– من هذه الناحية لا تقلق، أولا أنه غائب دائما أو شبه غائب.

وثانيا: أنا التي أتحكم في كل شيء، كما أني لن أجعلك عرضة للمشاكل.

ثم نهضت فجأة ومدت يدها مصافحة إياه ومبتسمة، فنهض أيضا، فقالت له:

– أرجو أن تحمل ما لديك من كتابات كي استطيع قراءتها وإبداء رأيي فيها إن أحببت:

– طبعا. طبعا. ستكون معي هنا غدا.

– غدا ليست لدي محاضرات. بعد غد سأكون في الجامعة.

– بعد غد.. إذن بعد غد..

وحينما استدارت خارجة نظر إليها من الخلف سارحا بنظره إلى مؤخرتها وإلى ساقيها ثم جلس على كرسيه مذهولا وكأنه كان في مشهد روائي متخيل، وليس واقعا عاشه بكل تفاصيله.

ظل جالسا في كرسيه لفترة طويلة دون أن يفعل شيئا غير الاستغراق في التخيلات الجنسية وأحلام اليقظة. فجأة أحس بلقلق حينما طرأ تساؤل غريب على ذهنه: ماذا لو اتضح أنها مرسلة من جهات معينة لتوريطه في مسألة ما تكون نتائجها وخيمة عليه، لاسيما وانه لا ينتمي إلى الحزب الحاكم، وهذا ما عقد وضعه في الجامعة؟. وأجاب نفسه، لماذا يرسلون امرأة فاتنة لهذه المهمة وبطريقة أدبية، ولا يتبعون أساليبهم المعروفة بالضغط والإكراه؟ ثم أنها فعلا قدمت ملاحظات جيدة حوله، وربما هي محقة في ما يخص ملاحظاتها عنه شخصيا.

في اليوم المحدد بينهما لم تأت. تذكر أنه لم يسألها في أية كلية هي أو أن كانت إحدى طالباته. وبرغم أنه لم يحمل معه أي شيء من كتاباته الجديدة لأنه ببساطة لم يبدأ بأي عمل روائي جديد، إلا أنه كان متحرقا لرؤيتها، فهي امرأة أنيقة بل وفاتنة، وبدت له أنها مثقفة وجريئة، ومن خلال ملاحظاتها خمن ربما هي أيضا تمارس الكتابة فكلامها يشي

بمعرفة نقدية متميزة، وثقافة عالية لم يجدها حتى بين أسـاتذة الجامعة، فمن هي يا تُرى؟ لكن كيف سيلتقي معها، وأين؟

فكر مع نفسه، عليه أن يؤجر شقة خاصة لكي تكون عشا للقائهما،إذ يبدو أنها أيضا امرأة مغامرة، وأنها تريد أن تقيم علاقة معه، لكن لماذا؟ ما الذي أغراها فيه، هل أن روايته (كوابيس القنفذ) هي التي أثارتها إلى هذه الدرجة حقا؟ أم أنها امرأة حالمة تريد أن تكون بطلة لرواية، وبالتالي بدأت معه علاقة لأنها متأكدة أنه سـيكتب عنها رواية أو سـتكون إحدى شخصياته الروائية، فهل هذا طموحها حقا؟

ثم هل هو معقد كما قالت؟ وهل هو مفضوح إلى هذه الدرجة بحيث أن القاريء يستطيع تلمس عقده؟ ما الذي كانت تقصده بأنه معقد؟ حينها لـم يكـن يسـتمع لهـا بوعـي وانتباه برغم أن وجهـه كان يعبر عن الانتباه، لأنه حينها عراها وهي جالسـة أمامه، وفكر عن اللذة التي سـتمنحها له إذا ما أقام معها علاقة.

هل أن جميع الرجال أو على الأقل الكتاب والفنانين، أو بشكل عام المثقفيـن، هكـذا مثلـه حينمـا يقابلون امـرأة جميلة وفاتنة مثلها؟ هل أول مـا يفكـرون فيـه هـو كيف يضاجعونها؟ أو بكلمات أخف أن يقيموا معها علاقة؟ ما معنى الحب إذن؟

حينما رجع ذلك اليوم ظهرا إلى البيت وجد أن أمه نائمة وأباه يرش باحـة الـدار بالمـاء مـن حنفية الدار. سـلم دونما اهتمام ودخل إلى غرفته حتى دون أن ينتظر سماع رد التحية فوجد زوجته نائمة والمروحة تدور حولهـا قـرب السـرير. انتبهـت لدخولـه، فقامـت وعلى وجهها ما يشـبع الاعتذار، قائلة:

– لقـد تأخـرت اليـوم، فظننـت أنـك لن تأتي إلا مسـاءً، فتمددتُ ثم غفوت. سأصب الطعام، فهو جاهز وما زال ساخنا..

لم يعلق على كلامها وإنما سألها عن والدته:

– هل أكلت، وهل أخذت أدويتها في مواعيدها؟

– نعم..أنا بنفسي ساعدتها على تعاطيها..

– هل هي نائمة؟

– لا أدري.. يمكن أن تكون قد نامت لأنها تمددت بعد أن أخذت الأدويـة، لكـن عمـي مـا زال صاحيـا فقد قرر أن يرش باحة الدار بنفسه رغم أني قلت بأني يمكن أن أقوم بذلك..

– لا يعنيني ماذا يفعل هو.. المهم أمي

لـم تعلـق علـى كلامه، لكنها كانـت تحس بأنه لا يطيق أباه. خرجت من الغرفة، بينما وضع هو حقيبته الجلدية جانبا ونزع قميصه الذي كان قـد ابتـل مـن التعـرق، وكذلك بنطاله، ثم لبـس ثوبه الذي أخذه من على حمالة الملابس.

حينمـا جـاءت حـواء المؤمـن بصينيـة الطعام كان الدكتـور آدم التائه متمـددا علـى السـرير محدقـا إلـى سـقف الغرفـة، وضعـت الصينية على الأرض فنـزل هـو وجلـس علـى البسـاط المفروش علـى إحدى جوانب الغرفة، وبدأ يأكل وهو ساهم النظرات، فسألته مستفسرة:

– هل حدث شيء ما؟

انتبه إلى سؤالها ونظر إليها مستفسرا:

– لا، لم يحدث شيء، ماذا يمكن أن يحدث؟

– لا أعلم، لكنك ساهي النظرات، فقلت ربما حدث شيء؟

– لا لم يحدث شيء..

واسـتمر في الأكل وملامحه تؤكد أنه يفكر في شـيء آخر. انتبه لها وهي تنظر إليه وهو يأكل، فلم يعجبه ذلك فقال لها:

– لا أحب أن ينظر أحد إليّ وأنا آكل..

ارتبكت حواء المؤمن فقامت خارجة ملتفتة له:

– سأساعد أباك في رش الباحة، وإلا فأنه سيغرق البيت بالماء

نظر إليها قائلا:

– حضري الشاي، وبعد ذلك احمليه لي في المكتبة..

– حاضر

وخرجـت إلـى الباحـة، وسـمع أنها تحدث أباه، بينما اسـتمر هو في طعامه، ثم توقف فجأة حينما سمعها تقهقه وتصرخ جذلة طالبة من أبيه أن لا يرشـها بالمـاء، فتـرك صينيـة الطعام جانبا، وقـام ليخرج إلى الباحة صارخا بها:

– ألم اقل أريد شايا..

– الشاي جاهز

كانـت حـواء المؤمـن واقفـة بالقرب من والـده، وكان الماء قد بللها فالتصـق ثوبهـا الصيفـي الخفيـف بجسـدها المثير فكشـف عـن مفاتنها، فغضـب منهـا، ثـم توجـه داخـلا إلى غرفة المكتبة، فأحسـت بالانكسـار ونظـرت إلـى أبيـه الـذي كان أيضا غاضبا من تصـرف ابنه، فتوجهت هي إلى المطبخ، لتحمل له الشاي.

حينمـا دخلـت إلـى المكتبـة وجدته متمددا علـى الأريكة التي هناك. وقفت أمامه. تأمل جسدها المثير. طلب منها أن تقترب إليه فتقدمت حتى صارت أمامه مباشرة وبيدها صينية الشاي وعليها ابريق الشاي الصغير مع قدح الشـاي وقندون السـكر، وبلمح البصر مد يده متلمسـا بين فخذيها، فرجعت إلى الوراء خطوة وقد شعرت بإثارة مفاجئة.

لا يدري لِمَ جاء مشـهد الممثلة هند رسـتم في فيلم (باب الحديد) حينما كانت تغتسل وهي بثوبها الخفيف. فجأة انتبه إلى أن لزوجته شبهاً كبيـراً بهنـد رسـتم، إلا أنهـا أكثـر شـبابا منهـا فهي في بداية العشـرين من عمرها. فكر للحظة بأنها أجمل من المرأة الفاتنة الغامضة التي اقتحمت عزلته فجأة لتكون مرآته.

شعرت حواء المؤمن بالخجل برغم الإثارة وقالت باستحياء:

– أبوك موجود في الباحة

شعر بالغضب من جملتها، وكأنما أراد تحدي أباه، فقال لها:

– ضعي الصينية على الطاولة هناك. تعالي. لا يعنيني من هو موجود

أو غير موجود

– ولكن يمكن أن يسمع صوتنا

– قلت لك إنه لا يعنيني

وما أن وضعت الصينية على الطاولة حتى سحبها من يدها إليه فقالت له:

– دعني أذهب لأغير ثوبي فهو مبلل..

– أريدك هكذا، بثوبك المبلل

ثم قام فجأة وأجلسها على الأريكة رافعا ثوبه إلى الأعلى طالبا منها أن تأخذه بفمها فقالت له:

– لا أرغب بذلك، لم أفعلها سابقا.

– افعليها الآن.. جربيه..

– لكن

– قلت خذيه بفمك. جربي. سيعجبك.

لم يكن أمامها إلا أن تفعل ما يريد فأسدل ثوبه عليها وظلت هي تحت الثوب.

في اليوم الثاني كان لديه في الجامعة محاضرتان. في قاعة المحاضرة كان يفتش عنها بين وجوه الطالبات فلم يجدها، وحينما توجه إلى مكتبه وجدها واقفة قبالة باب المكتب تنتظره.

لم يحدثها في الممر وإنما فتح باب مكتبه فدخلت خلفه، وعند الباب صافحها داعيا إياها إلى الجلوس، بينما جلس هو على كرسيه خلف طاولة مكتبه، فبادرها:

– أعتذر إن جعلتك تنتظرين أمام الباب

– لا أبداً.. أنا عليّ الاعتذار لأني أخلفت موعدي فلقد كان يفترض أن أكون هنا بالأمس، لكني لم أتمكن من ذلك لأن زوجي جاء من السفر ومكث ليوم واحد قبل أن يلتحق بمعسكره.

– وأنا قد حملت كتاباتي الأخيرة بالأمس لكنك لم تحضري ولم أتوقع مجيئك اليوم، بل ظننت أنك لن تأتي أبدا..

فابتسمت له وقالت بدلال:

– أولا: أنا آسفة حقا لأني لم أستطع المجيء. ثانيا: كيف تفكر هكذا، ألست مرآتك إلى آخر لحظة من حياتك كما قلت، أم إنك تراجعت عن ذلك..

– أنا.. أنا أتراجع عن ذلك؟ أنا لم أصدق أنكِ كنت هنا.. ظننتك وهما..

– وهما. أم حلما.

نظر إليها بإعجاب لهذه الالتفاتة الذكية وقال:

– نعم.. أنت حلم جميل ومذهل. ولا أصدقك أنك الآن أمامي ثانية

– أهوووو.. سيصيبني الغرور يا دكتور..

– بالمناسبة.. هل تدرين أنني لا أعرف اسمك. فمن شدة ذهولي لم أسألك عنه..

– ربما سيصيبك الذهول أكثر إذا ما ذكرت اسمي. لأننا سنكون ثنائي غريب.

صمت لحظة ثم نظر إليها بتساؤل، وقال بتردد وكأنه يحل لغزا:

– لا تقولي إن اسمك.. حواء

– بالضبط

أصابت الدكتور آدم دهشة حقيقية

– طريدة الفردوس

– عن أي فردوس تتحدث يا دكتور. ليس أمامنا سوى الجحيم..

– أقصد كنا في الفردوس..

– شخصيا لم أكن يوما في الفردوس، إلا إذا اعتبرت رحم أمي هو الفردوس أو العدم هو الفردوس

– ألا تؤمنين بقصة أدم وحواء وطردهما من الفردوس..

– أنا اقرأ هذه القصة كأسطورة. أفهمها بشكل رمزي. لا أدري إن كان هناك فردوس بالمعنى الحسي الملموس، وإذا ما كان فأين هو؟ في أي كوكب أو مجرة يقع؟ لأنه، وبالتالي، فأننا أنا وأنت من لحم ودم، أقصد آدم وحواء، أي كانا مخلوقين ماديين وهذا يعني أنهما كانا في موقع مادي وملموس، وإلا كيف يمكن لهما وهما المخلوقان الماديان، وقد خلقهما الله من الطين، أن يكونا في موقع روحاني غير ملموس.

وجد الدكتور آدم التائه أنه أمام شخصية غريبة، بل نسيَ كل تفاصيل جسدها الطاغية ولباقتها المثيرة، وأخذ يفكر بما قالته، فشحب لون وجهه وقال بارتباك:

– من أنت؟

ابتسمت بدلال وقالت:

– أنا حواء. حواء الغريب وليست حواء الفردوس. وأنا حواء الجحيم الأرضي

– هل أنت ملحدة؟

– لا، على العكس. أنا مؤمنة جدا. مؤمنة بوجود خالق لهذا الكون العجيب، لكني لا أؤمن بالأديان. أقصد أنا لا أفهم الأشياء بشكلها الحرفي. أنا أفهم قصة حواء وآدم على أنها صراع الخير والشر في أعماق الإنسان، صراع الذكورة والأنوثة، صراع العقل والعاطفة، صراع الحرية والجبر الإلهي.

كان الدكتور آدم التائه منبهرا بكلامها أشد الانبهار. كان يحس بدفق الفرح في عقله وروحه وقلبه، فقال بحماس واضح:

– لا.. لا.. هذا غير معقول.. أنا لا أصدق أنني أمام امرأة من هذا الزمان..

– من هذا الزمان أو من أي زمان..

– ومن أي زمان

– أها.. أي أنت لا تؤمن بوجود أي امرأة عاقلة تستطيع التفكير

فأرتبك وقال بما يشبه الاعتذار..

– لا أبدا. لا أقصد بأنه المرأة أقل من الرجل قيمة، أو أنها أقل ذكاء، وإنما أردت أن أعبر عن إعجابي الكبير بك وبطريقة تفكيرك. هل تصدقين أنني لم أفكر بقصة آدم وحواء بهذه الطريقة وهي بالنسبة لـي مـن المسـلمات التـي لم أفكـر في أن أضعهمـا أمام محكمة المنطق الحسي هكذا..

فقالت بأنوثة طاغية:

– سامحتك، لكن عليك الحذر من حواء ابنة الجحيم، ولا تنظر إليّ باعتباري طريدة الفردوس. اتفقنا..

فقال مرددا:

– اتفقنا..

كان الدكتور آدم التائه يريد أن ينهي هذا الحوار المتعالي وأن يهبط إلى الأرض، أو إلى الجحيم كما تقول هي، وفكر في نفسه للحظة، كيف ستكون في السرير، وبماذا تفكر عندها، لذا أراد أن يدير دفة الحديث نحو هدفه الواضح، فقال:

– بالمناسبة، لقد فتشت عليك اليوم في قاعة المحاضرات وفي كلا الشعبتين فلم أجدك، هل أنت طالبة في كلية الآداب...

– لا.. أنا طالبة في كلية الحقوق، السنة الرابعة. هل تريد أن تعرف عني أكثر؟ اسألني وسأجيبك.. لا تتردد أن تسأل عن كل ما يدور في ذهنك.. وأنا أعرف ما يدور في ذهنك..

فقال باستغراب إذ وجد في كلامها شيئا من الاستفزاز:

– تعرفين ما يدور في ذهني.. كيف.. ماذا يدور في ذهني يا حواء..

نظرت في عينيه مباشرة وقالت بثقة:

– إنك مليء بأسئلة تخص وضعي العائلي، مثلاً تتحرق لمعرفة من هو زوجي، وكيف تزوجته؟ وهل هو أكبر مني أو لا؟ وهل لدي

أطفال؟ وهل أنا مرتاحة مع زوجي أو هناك مشاكل بيننا، وأقصد بمرتاحة كل تفاصيل العلاقة الزوجية بما فيها علاقتنا كرجل وامرأة؟ وأسئلة أخرى تخصك، مثلا لماذا جئتك بنفسي وأردت التعرف عليك؟ وهل أنت الكاتب الوحيد في البلد الذي أعرفه أو أنا لدي علاقات مع أدباء آخرين ذهبتُ إليهم مثلما جئت إليك؟ وأخيرا إلى أي مدى يمكن أن تتطور علاقتك معي؟..و..

أحس الدكتور آدم التائه بما يشبه الانهيار، فقال لها بلهجة شبه آمرة:

– اسكتي رجاء.. اسكتي..

ثم حدق إلى وجهها مقربا وجهه الأمام نحوها:

– من أنت؟

نظرت إليه محدقة وكأنها تقرأ ما يدور في نفسه من مخاوف:

– أنا حواء.. وأنا كما أنا أمامك واضحة كالمرآة..

– وغامضة أيضا.. كالمرآة

– ربما..

مر بينهما لحظات من الصمت، ثم قال لها وكأنه يستسلم أمامها فقال:

– لنفترض جدلا أن كل ما قلته صحيح، وأن هذه الأسئلة تدور في ذهني، فما هي إجابتك عليها.

ابتسمت له وقالت بدلال:

– هل أنت متشوق لسماع الأجوبة..

– نعم

– جميعها..

– نعم جميعها..

– أي من الأسئلة تود أن تسمع إجابته أولا؟

لم يجبها. ظل صامتا. نظرت إليه بتفحص وقالت مبتسمة:

– تريد أن تسمع إجابتي عن السؤال الأخير قبل بقية الأسئلة التي هي أيضا مهمة بالنسبة لك، لكن الإجابة عن المدى الذي ستتطور

علاقتك بي هو الذي يهمك.. أليس كذلك؟

فقال باستسلام كامل:

– نعم.. أريد أن أعرف ذلك..

صمتت لفترة قصيرة، لكنها كانت بالنسبة إلى الدكتور آدم التائه وكأنها اللحظات التي تسبق النطق بالحكم النهائي بالحياة أو الموت. أحس بعرق بارد يغطي جبينه، نظرت إليه ثم اكتسى وجهها مسحة من الحزن، وقالت بهدوء، وجدية، بعيدا عن أسلوب الدلال الذي كانت تمارسه قبل قليل:

– إلى أقصى مدى يمكنك أن تتصوره..

أمتد الصمت الذي بينهما. نظر إليها وكأنه غير مصدق ما نطقت به، فطلب منها بارتباك أن تعيد ما قالته:

– أرجوك.. هل يمكنني أن اسمع ما قلته للتو.

فقالت بهدوء شديد وهي تنظر في عينيه:

– يمكـن لعلاقتنـا أن تتطـور إلـى أقصـى مدى يمكنـك أن تتصوره. هل تفهمني؟

– أفهمك.. لكني

– بـلا تلكـن.. سـأجيبك علـى أسـئلتك الأخرى بمـرور الوقت.. أم أنك مستعجل؟

– لا.. لا.. أنا الآن مرتاح.. كل الأجوبة الأخرى يمكن أن تؤجل

نظرت إليه وكأنها صُدمت وقالت بحزن:

– لا يعنيك من كل الذي أنا فيه سوى أن تحصل علي؟

انتبـه إلـى أنـه ارتكـب حماقة بهذه الإجابة التي كشـفت نواياه، لكنها استرسلت قائلة:

– لا يغرنك هذه الأناقة والثراء الواضح في ملابسي، ولا السيارة، أو السـائق الذي ينتظر خارج الكلية، ولا كمية الدنانير التي أحملها فـي حقيبتـي، ولا طريقـة كلامـي التي هي ليس إلا تكراراً لأفكار كتـاب ومفكريـن آخريـن قرأتهـم وحفظـت أفكارهم، فأنا لسـتُ

سوى امرأة حزينة.. حزينة جدا..

قالـت ذلـك ثـم قامـت فجأة وكأنهـا أرادت منع الدموع من أن تنهمر من مآقيها، وعند الباب التفتت إليه وقالت سأمر غدا، وخرجت.

ظل الدكتور آدم التائه مصدوما. لم يستطع استيعاب ما جرى خلال لحظـات. ظـل جالسـا مذهـولا حينما خرجت. قـام من مكانه ولحق بها، لكنـه لـم يجدهـا. وحينمـا صار خـارج الكلية لمحها وهي تصعد سـيارة مرسيدس جديدة يقودها سائق مسن لتجلس في المقعد الخلفي.

وقف صامتا تملأه الخيبة، ثم رجع منكسـرا إلى مكتبه وجلس على كرسيه غارقا في لجة أفكاره المتلاطمة.

مرت أيام عصيبة على الدكتور آدم التائه لأن حواء الغريب لم تظهر له. أحس أنه فقدها نتيجة لتهوره وشبقه اللعين، فهذه المرأة ليست أنثى فقـط وإنمـا هـي منبـع للإلهام والإبداع. أحس وكأنه ممسـوس بها، فهي شخصية روائية استثنائية، إلى جانب أنها امرأة مثقفة ثقافة استثنائية وإنسانة شجاعة بامتياز، إذ لم يرَ امرأة في حياته تمتلك هذا الوضوح وهذه الجرأة، وقد اختفت بطريقة غريبة مثلما جاءته بطريقة غريبة.

مر شهر. إنشغل الدكتور آدم التائه بأمور جرت في البيت، إذ مرضت أمـه مرضـا خطيـرا فقـد أصابتهـا حالة من الألم الذي لم تسـتطع مقاومته بـأي مـن المسـكنات، فنقلـت إلى المستشـفى، وبعد إجـراء الفحوصات تبيـن عندهـا حصـى فـي المـرارة مما يسـتوجب إجراء عمليـة لها، حينها لاحظ اهتمام زوجته حواء المؤمن الكبير بأمه فأعجبه ذلك جدا وأحس أنها قريبة منه.

كانـا يذهبـان معـا إلـى المستشـفى ويبقيـان عنـد الأم فتـرةً طويلة ثم يرجعـان معـا. انتبـه لخصالها الإنسـانية، فهي طيبة، ومسـكينة، تعيش في عزلـة روحيـة، ويبـدو أنهـا عانـت كثيـرا خـلال زواجهـا الأول، برغم أنه يحاول أن ينسى أنها كانت متزوجة قبله، وأن هناك من نام معها، ورحل في أنحاء جسدها المثير ويعرف تفاصيل جسدها، بل وأولجه فيها، وأنها

كانت تلهث من اللذة، فمثل هذه الأفكار والتخيلات تعذبه.

لكنه فكر سائلا نفسه: ماذا ذنبها هي؟ لقد زوجها أخوها إلى ابن عمها وهي صغيرة في العمر، وطلقوها أيضا وهي صغيرة في العمر؟ إنه يعرف بأن أمه تحبها كثيرا، وتعطف عليها وتعتبرها ضحية، لذا سعت لتزويجها له، فقد كانت أمه على الرغم من أنها لم تتعلم سوى إلى مرحلة المتوسطة امـرأة ذكيـة بـل وحكيمة، لكن ليسـت حكمة الكتب وإنما حكمة الحياة، وهـو يثـق بأمـه ثقة عميـاء، وحين فاتحته بأنها تريد تزويجه وأنها وجدت له المرأة الصالحة لم يفكر طويلا ولم يعترض، لكن حينما أخبرته بأنها مطلقة انتفض رافضا، بينما انتقدته على موقفه.

استغربت الدكتور آدم التائه من تعقيدات وتناقضات تفكيره الشخصي، فكيف وهو الأستاذ الجامعي يفكر بهذه الطريقة؟ فما ذنب المطلقات في مجتمعاتنا؟ بل من يضمن أن غير المطلقة هي الأفضل دائما؟ ألم يتزوج النبي نساء مطلقات، بل ألم يطلق إحداهن من زوجها ليتزوجها، فكيف وهو الإنسان العادي، حتى ولو كان دكتورا، أن يحتج بهذه الطريقة؟

يذكر أن أمه هي التي سـاقت له حجتها بزواج النبي من المطلقات، حينها خجل من ضعف موقفه وتخاذله الاجتماعي. وبرغم عادة الأمهات أنهـن لا يرغبـن تزويـج أبنائهـن مـن نسـاء مطلقات، فها هـي أمه تختلف عن بقية النسـاء،. إنها تدافع عن فتاة مطلقة بل هي تسـعى لتزويجها من ابنهـا الوحيـد. لقـد أكـدت أمه لـه بأنها امرأة مريضـة وكذلك أبوه، وهما يحتاجـان للعنايـة، وأن أيـة فتـاة أخـرى لن تقبل بسـهولة أن تكون خادمة لهمـا إذ ربمـا تسـعى لتكويـن بيـت خاص لها وتعتزلهـم معه، بينما حواء المؤمـن فتـاة مسـكينة ليـس لها مكان آخـر غير بيت أخيها الذي تعاني ما تعاني فيه، وبالتالي سـتكون شـاكرة لهما أن تعيش معهما كزوجة لابنهما الوسـيم والأسـتاذ الجامعي. صحيح أنه أكبر منها بحوالي عشـرين عاما، إلا أنه يفيض بالحيوية والرجولة.

وبعد أيام ذهبت الأم لتخطب حواء من أخيها الكبير، وتمت الموافقة

بسهولة وكأنما لم يصدق الأخ الكبير كيف تخلص من أخته، وهكذا تم الزواج بسرعة ودونما ضجة كبيرة بسبب مرض الوالدين وضعفهما، ولامبالاة الدكتور آدم التائه بالتقاليد الاجتماعية، ولكون عائلته المكونة من أمه وأبيه تبدو وكأنها شجرة بلا جذور، فهو ليس لديه أقارب، ولم يعرف يوما أن له أقارب سوى إشارة إلى قريب لأمه، الذي ساعده في عدم الالتحاق بالخدمة العسكرية من خلال سعيه لقبول آدم التائه لدراسة الماجستير ومن ثم الدكتوراه. هذا الرجل الذي هو أكثر إنسان يحقد الأب عليه ويكرهه، والذي كثيرا ما كان أبوه يلمز لأمه بالإشارة إليه حينما كان صغيرا ولم يفهم شيئا عن الأمر. لم يتجرأ الدكتور آدم التائه أن يسأل نفسه إن كانت أمه قد خانت أباه مع قريبها هذا؟ بل ولم يود أن يذهب أبعد أن كان هذا الرجل أباه الحقيقي؟ وإلا لِمَ لم يشعر بحب أبيه الحالي أبداً؟

حياته مع زوجته حواء المؤمن عادية. هي فتاة مثيرة، وطيبة، وطيعة وبريئة، ولا تفهم شيئا في أمور العلاقة بين الرجل والمرأة برغم أنها كانت متزوجة، وقد كان مستمتعا معها، لاسيما حينما يجرها إلى مناطق غير مألوفة في العلاقة ويحس بتمتعها معه، وها هي الآن تكشف عن معدنها الطيب بالعناية والقلق الحقيقي على صحة الأم وكأنها أمها وليست أمه.

ذات يوم وقبل أن يخرج من مكتبه دخلت حواء الغريب. كانت في فستان أسود مكشوف الذراعين ويمتد إلى الركبتين ويكشف عن تناسق جسدها المثير، لكنها كانت بلا زينة واضحة، وكانت هالتان سوداوان تحيطان بعينيها، من أثر السهر كما يبدو، وكانت تبدو متعبة ومنهكة جدا.

ارتبك الدكتور آدم التائه عند رؤيتها، فلم يأمل رؤيتها ثانية. نهض من مكانه، متوجها إليها، وأراد احتضانها لكنها مدت إليه يدها على امتدادها مصافحة لتوقفه على مسافة منها. أحس بأن التي تقف أمامه ليست هي نفسها التي كانت تتحدث معه بدلال واختفت فجأة.

ثمة مياه كثيرة مرت تحت الجسـور. كان يحس نفسـه بأنه ليس ذاك الأرعن الذي تقوده شهوته، فقد أحس بعد مرض أمه واكتشافه لشخصية زوجته حواء المؤمن أن ثمة تحولاً طرأ على مزاجه الشخصي. هل كان هـذا بفعـل غيابهـا أو أنـه بفعـل مرض والدته أو بفعل اكتشـافه لإنسـانية زوجتـه؟ ولمـاذا أحـس بالارتبـاك عند رؤيتها، وكأنـه كان مقيدا وقد فك وثاقه فانطلق؟

حيـن جلسـت ظلـت صامتـة للحظات كمـا ظل هو صامتا لا يريد أن يقتحم سكونها بالكلام، لكنها بعد فترة ليست بالطويلة بدأت بالكلام:

– أنـا أعتـذر جـدا عـن اختفائـي المفاجـئ دونمـا أي إشـارة أو ترك أي أثـر، لكنـي كنـتُ مضطرة لذلك، فقـد توفي والدي قبل فترة، وقـد حطمنـي هـذا الحدث. لقد كان سـندي فـي الحياة ومعلمي وصديقي.

أخرجت منديلا حريريا لتمسح دموعا ترقرقت في زوايا عينيها. تأثر الدكتور آدم التائه بهذا الخبر وحاول أن يشـاركها حزنها فتمتم بكلمات تقليدية تُقال عادة في مثل هذه المناسبات:

– البقاء في حياتك، أشـاركِك هذا المصاب الأليم، ولا أدري كيف أواسيك بهذا الفقدان الجلل.

– شكرا جزيلا

– لـم أكـن أعـرف عـن كل هذا، لقد افتقدتـكَ كثيرا وظننت أنك لن تعودي أبدا، لاسيما بعد آخر حديث جرى بيننا.

– أنا أيضا افتقدتك. لقد مررت بلحظات شعرت بحاجة كبيرة إليك. بعـد رحيـل والـدي بقيـت وحيدة في هـذا العالم.أمي قد رحلت عـن عالمنـا منـذ سـنين، وليس لدي أي أشـقاء فأنـا كنت وحيدة أبي الحبيب. بالمناسبة، كان أبي يعرفك ومن المعجبين برواياتك (كوابيـس القنفـذ)، وقـد كان يعرف أنني قابلتك، وهو الذي علق بأنك شخصية معقدة، ولكنك كاتب موهوب لذا فقد كان يعتقد

بأنك ربما سترفد الرواية العربية بشيء مهم.

فاجأه كلامها، فأحس وكأن هناك أكثر من عين تراقبه وهو لا يدري، وفي الوقت نفسه شعر بشيء من الكبرياء، فقال لها:

– لماذا لم تخبريني بهذا في لقائنا الأول، فربما كنا قد تقابلنا، فشخصية مثله يتشرف المرء بالتعرف إليها.

– هو أيضا قال نفس الكلام تقريبا، لكنه كان مقعدا، ولا يتحرك إلا على كرسي، لكنه رحل وتركني وحيدة

– أنا موجود، وستجديني دائما إلى جانبك

– شكرا جزيلا.. هذا من لطفك

– أنا أقصد ما أقول

– شكرا جزيلا

أمتد الصمت بينهما ثانية، فقالت وكأنها تود أن تحسم أمرا:

– هل ما زلت تنظر إلي وكأني مرآتك

فقال بطريقة لا إرادية:

– نعم.. طبعا

– إذا علينا أن نتواصل، لكني لا أستطيع أن أزورك هنا في المكتب باستمرار، فوضعي لا يسمح، لاسيما أن إحدى أخوات زوجي جاءت لتعيش معي. أبي كان يعيش معنا، وكنا أنا وهو وحدنا لأن زوجي لا يتواجد إلا عند الإجازات والظروف الطارئة، وقد أرسل إلى أخته كي تعيش معنا بعد وفاة والدي، وبالتالي فأن حركتي سوف تكون محسوبة، فعندما كان أبي حيا كنت أذهب إلى أي مكان أشاء وأقضي الوقت الذي أريد في أي مكان، لكن الآن..

– أفهم.. أفهم.. ولكن كيف سأراك ومتى

– لا أدري.. هل لديك مكان خاص نلتقي فيه ونتحدث

– لا.. لكني سأفكر في الأمر وسأجد شيئا من هذا القبيل

– هل تعيش أنت وحدك أم مع عائلتك

صدمه هذا السؤال لاسيما في مثل هذا الوقت الذي أحس فيه بأنه اقترب من هدفه، ولم يستطع أن لا يجيب عليه فقال:

– أنا أعيش مع عائلتي، لكني فكرت أن استأجر شقة تكون ملجأ للكتابة ولعزلتي الأدبية

– هذا جيد.. ولماذا لم تقم بهذا الأمر سابقا

– لأني.. لأني..

فقاطعته:

– إذا كان السبب ماديا فأنا مستعدة لأن أدفع إيجار الشقة والإنفاق عليها، المهم أن تستأجرها.. قد أبدو وكأني أتصرف بغرابة وتهور أو أبدو وكأني امرأة مستهترة لا تقيم وزنا للعادات والتقاليد الاجتماعية، فكيف بامرأة متزوجة ومن شخصية مهمة أن تأتي لرجل وهي التي تريد التعرف عليه، وتطلب صداقته، وأخيرا تريد أن يستأجر شقة لكي تلتقي معه بل تدفع له إيجار الشقة. امرأة مثل هذه ربما لا توجد إلا في الروايات أو في المجتمعات المتحررة وليس في مثل مجتمعنا المغلق.

فقال باستسلام وكأنه يؤيد كل ما قالته أو هكذا راودته انطباعات عنها:

– هذا صحيح، فأنت امرأة غريبة، ومن ينظر إلى تصرفاتك وكل ما قمت به لحد الآن سيتكون لديه الانطباع الذي ذكرته قبل لحظات

– أعرف ذلك، لكنك لا تعرفني جيدا

– ربما

– بل أكيد، فأنت تنظر إليّ كطريدة، كصيد جميل يستحق المغامرة والعناء، بل وربما سأكون حافزا لكتابة رواية جديدة.

– هذا أيضا صحيح لحد ما..

– بل أكيد أيضا..

– دكتور آدم.. أبي هو معلمي وصديقي، وعلمني أن أكون واضحة

مع نفسـي ومع الأشـياء والآخرين، علمني أن أكون صريحة مع نفسي، ومع أفكاري ورغباتي، وأن أتحمل مسؤولية أي تصرف أو خطوة أخطوها أو قرار أتخذه. لكن وكما ترى الآن، أنا محطمة ووحيـدة، وأحتـاج إلى من أشـعر بالأمان معـه ليكون منبعا للقوة بالاستمرار في الحياة، وإلا فأنني سأنتهي...

– وزوجك.. ألا تشعرين بالأمان معه

ابتسمت بحزن:

– إنه آخر إنسان يمكن أن أفكر فيه، أو لا أفكر فيه أصلا، لأنه بعيد عـن عالمـي. لا أريـد أن أشـكو مثل بقية النسـاء لتبـرر تصرفاتها بالتعـرف لرجـال آخريـن غيـر زوجهـا، فهـو رجـل لديـه أحلامه وطموحاتـه وكـرس حياتـه لهـذه الأحـلام والطموحـات، وأنا له ديكور ومكمل يحتاجه للوصول إلى هذه الأهداف. أنا بالنسبة إليه جسد مثير يركن إليه من تعب الأيام والحياة يستمتع فيه بطريقته.

– ولماذا تزوجته إذن..

– أنه قريب لي.. ابن خالتي.. وتزوجني حينما كانت المرحومة أمي علـى قيـد الحيـاة، وكانت خالتي قد طلبت يدي من أمي وأقنعت أبي.. وبالمناسـبة فهو رجل وسـيم وشـخصية قوية، لكنه بالنسـبة لي ليس زوجا. أنا لا أشـعر بالأمان معه. حينما يكون في إجازة لا نجد ما نقوله بيننا سـوى بعض الكلمات التافهة والعادية التي تتكرر كل مرة ولا ينقذنا إلا زيارة أخته أو خالتي أو بعض الأقرباء الـذي يتوافـدون حينمـا يكـون موجـودا. على أية حـال. أوجعت رأسك بهذه التفاصيل.. لكني أعتقد أنك كنت تحتاج لمعرفتها.

– صحيح جدا.. فأنا لا أعرفك.. فأنت بالنسبة لي المرأة المجهولة.. المرأة الحلم الذي يأتي ولا يأتي..

– سأكون موجودة دائما معك.. هذا إذا لم يضايقك هذا ولا يخلخل نظام حياتك واستقرارها.

- سأكون اسعد رجل في العالم..
- إذن اتفقنا على تأجير الشقة وبأسرع وقت، وخذ شقة جيدة ونظيفة ولا تهتم للإيجار.. اتفقنا..
- اتفقنا

أجاب بتردد وخجل فلم يتوقع الدكتور آدم كل هذا الحوار وتسارع الأمور بهذا الشكل، وفسر الأمر بأن حالتها النفسية التي تمر فيها هي التي تدفعها إلى البحث عن ملجأ آمن يعوضها عن حنان أبيها، الذي يبدو أنه كان رجـلا مثقفـا ومتحـررا وقريبـا منها، وعليه أن لا يفوت هذه الفرصة. أثناء ذلك قامت هي بعد وضعت منديلها في الحقيبة ثانية واتجهت نحو الباب، فنهض هو أيضا، فرجته أن لا يقوم من مكانه:

- أرجـوك أبـق فـي مكانك.. سـأكون في الأسـبوع القـادم وفي مثل هذا اليوم عندك

وخرجت دون أن تترك له فرصة للرد أو للقيام بتوصيلها إلى الباب.

حينما عاد الدكتور آدم التائه إلى البيت وجد الجو مكفهراً إذ أخبرته زوجته مباشـرة بأن والدته انتكسـت صحيا مرة أخرى، وأنها تتألم، وقد أخذت بعض المسكنات ونامت. صُدم الدكتور آدم التائه عند سماع ذلك وانتابه شـعور بالذنب إزاء أمه، فبينما هي تنهار صحيا وتتعذب كان هو يعيـش مغامـرة عاطفيـة محفوفة بالمخاطـر، وهو يعرف ذلك، لكن رغبته تشل عقله وتخرس منطقه أحيانا.

فتح آدم التائه الباب على أمه في غرفتها فوجدها راقدة في نوم عميق، فأغلـق البـاب بهـدوء ودخل غرفة المكتبـة، وحينما دخلت حواء المؤمن عليه قال لها إنه يريد أن يكون وحده، وحينما سألته إن كان يحتاج لشيء فأخبرها أنه لا يحتاج لأي شيء، سوى أن يتركوه وحده.

في اليوم الثاني وبالرغم من أنه لم تكن هناك محاضرات في جدول الدكتـور إلا أنـه قـرر أن يذهـب إلى مكتبه فـي الجامعة، وأثناء ذهابه إلى

الجامعـة اشـترى الدكتـور آدم التائـه بعـض الصحـف المعروفة الواسـعة الانتشـار ليبحـث فـي صفحـات الإعلانـات عن شـقة للإيجـار، وهذا ما فعلـه بعـد وصولـه إلـى المكتب بالتوقف عند بعض الإعلانات وسـجلها ثم خرج ليقوم بمعاينتها وتأجير المناسـب منها. وفعلا وجد شـقة جيدة بغرفتيـن وصالـة ومفروشـة حديثـا، لكنهـا مرتفعة الإيجـار نوعا ما، وفي منطقة الحارثية الحديثة نسـبيا والتي تسـكنها الطبقة الوسـطى تقريبا. اتفق مع صاحب مكتب العقارات الذي كان هو الطرف المعلن بأن يتم ترميم بعض الأشياء الضرورية في الحمام الذي وعده صاحب المكتب بانجاز هذه النواقص خلال أيام، ووعده بالعودة إليه بعد في الأسبوع المقبل.

لـم يعـرف الدكتـور آدم التائـه كيف مر هذا الأسـبوع على الرغم من قلقـه علـى أمـه التـي كانـت تذبل يوما بعد يوم. فـي اليوم المحدد جاءت كما وعدت، لكنها وبرغم كونها ما زالت في ثياب الحداد إلا أنها كانت أكثر أناقة من المرة السابقة.

ذهبا معا لرؤية الشقة، لكن كل بمفرده بعد أن كتب لها عنوان مكتب العقارات، لكنه تأخر كثيرا بسـبب الزحام. وصل هو بسـيارة أجرة. هناك وجد سيارتها قد وصلت قبله، نزل من سيارة الأجرة، وحينما دخل إلى مكتب العقارات وجدها جالسة هناك على إحدى الأرائك، فقام صاحب العقار مرحبا وكأنه يعرفه منذ زمن قائلا:

- أهـلا دكتـور المـدام وصلـت قبلـك، وقد عاينت الشـقة بنفسـها، والحمـد للـه أعجبتهـا، وقد اتفقت معها على كل التفاصيل، وقد تكرمت فأعطت إيجارا لستة أشهر مقدما، ووقعت العقد باسمها، وكما وعدتك تم إصلاح كل النواقص التي اتفقنا عليها.

لـم يجـد الدكتـور آدم التائـه مـا يقول فهـو لا يعرف ما دار بينهما من حديث، لاسيما وأن صاحب المكتب أطلق عليها لقب المدام. نظر إلى حواء الغريب مستغربا فابتسمت له مشجعة.

بعـد أن بـارك صاحـب المكتـب لهمـا متمنيا إقامة طيبة، سـألهما أن

كان لديهما أطفال، فنظر الدكتور آدم إلى حواء الغريب وقال: لا. علق صاحب المكتب بأنهما ما يزالان في عز شبابهما، وعليهما الاستمتاع بالحياة أولا، ثم أعطى نسخة من العقد للدكتور ونسختين منفصلتين من المفتاح الرئيس للشقة.

خلال حديث صاحب المكتب نهضت حواء الغريب، وما أن استلم الدكتور آدم التائه نسخة من العقد ومفاتيح الشقة حتى قالت له أعطني العقد ونسخة من المفتاح كي أذهب أنا لشراء بعض الأشياء الضرورية للشقة بينما تذهب أنت إلى جامعتك، فناولها نسخة العقد دون أن يقرأ ما فيه، فقد ولدت رغبة في نفسه لحظة استلامه للعقد بأن يقرأ اسمها كاملا، وكذلك نسخة من المفتاح، مستغربا من سرعة البداهة وقوة الارتجال لديها، فهي لا تريد أن يعرف اسمها الكامل ولا أية معلومات خاصة عنها، لكن يا ترى أية وثيقة قدمت له بحيث لا ينتبه أنها متزوجة من شخص آخر غيره، ما أن أعطاها نسخة من المفتاح حتى خرجت، بينما ظل هو لدقائق بعدها وهو يتبادل التحية مودعا صاحب المكتب.

وبعدما غادر الدكتور آدم التائه مكتب العقارات توجه إلى مكتبه في الجامعة، وحينما دخل الرواق وجدها واقفة بانتظاره، ففتح الباب ودخلا، وكالمعتاد جلس هو على مقعده خلف الطاولة وهي على كرسيها أمامه.

إرتبك الدكتور آدم التائه ولم يعرف كيف يبدأ، أحس بالخجل لأنها دفعت الإيجار لستة أشهر مقدما. فقال:

– ما كان يجب أن تدفعي الإيجار وتوقعي العقد.
– ألم نتفق بأنني سأساعدك في النفقات
– صحيح ولكن..
– إذن، ما المشكلة، ادفع بعد ذلك. بالمناسبة الشقة جيدة ونظيفة والأثاث لا بأس فيه لكنه يحتاج لعدة القهوة والشاي، سأشتريها أنا، لدي مفتاحي. عموما، في الأسبوع القادم وفي مثل هذا اليوم سأنتظرك هناك في الساعة العاشرة صباحا، لديك مفتاحك.

وأتمنى أن تأتي بكتاباتك الجديدة. وإذا ما طرأ أي شيء فسأكون هناك في الأسبوع الذي يليه وفي نفس الوقت، وليكن هذا يوما وموعدا ثابتا من كل أسبوع.. اتفقنا

فقال الدكتور آدم التائه وهو يفتش جيوبه:

– اتفقنا

فجأة بدأ القلق على ملامحه، وأخذ يفتش جيوبه ويقلبها:

– يبدو أن المفتاح قد ضاع، ربما سقط من جيبي في سيارة التاكسي..

بدا القلق على وجهها فقالت:

– ربما نسيته في مكتب العقارات..

– لا أبدا.. لقد سلمني المفتاحين، أعطيتك أحدهما ووضعت الثاني في جيب سروالي..

صمتت للحظات ثم قالت:

– لا مشكلة، خلال الأيام القادمة سأحاول أن أعمل نسخة من مفتاحي، لكن إذا لم أستطع إيصاله إليك فسأضعه فوق الباب أو سأكون في الموعد المحدد الأسبوع القادم هناك..

قالت ذلك ثم قامت خارجة وفي عينيها ألق مجنون. بقيَ الدكتور آدم التائه في مكتبه. دخل عليه الفراش أبو هابيل قائلا له بأن السيد العميد سأل عنه عدة مرات وأخبره بأنه يريد مقابلته في مكتبه حينما يكون موجودا، فسأله إن كان موجود حاليا فأخبره بأن لديه اجتماعاً، فشكره الدكتور ثم قام خارجا.

حينما دخل الدكتور آدم التائه زقاقهم في تلك الظهيرة من الصيف وجد الكثير من الرجال والنساء أمام باب دارهم، فتوقع حدثا جللا قد وقع، وخمن بأن شيئا ما وقع لوالدته، وصدق ما توقعه، فقد كانت والدته قد فارقت الحياة، ولم يبق في ذاكرته من ذلك الموقف سوى عويل زوجته حواء المؤمن ولطمها لوجهها حزنا على رحيل الأم.

ربما يكون من الصعب وصف الحال التي كان فيها الدكتور آدم التائه عندما سمع بفقدان أمه، فقد انهار وأخذ يبكي وينتحب كالطفل لفقدانها، حتى استغرب الكثير من الجيران من الحال التي هو فيها، فقد كانوا يهابونه وينظرون إليه نظرة الرجل القوي والأستاذ الجامعي الذي يتمتع بمكانة خاصة بينهم، ولم يكن استغرابهم هذا سلبيا بل زاد من إعجابهم به فلم يتوقعوا أنه سيكشف عن عواطفه وضعفه أمامهم بهذه الطريقة.

بعد انتهاء مراسيم الدفن والفاتحة غرق الدكتور آدم التائه في حزن عميق. لم تستطع زوجته حواء المؤمن أن تخفف عنه. كان ينام معظم الوقت في غرفة المكتبة على الصوفا. لم يكلم أباه إلا نادرا مكتفيا بإلقاء التحية وصارت علاقته معه أكثر جفاءً، وكأنه يحمله وزر موت أمه، وكان أكثر ما يؤلمه أنه لم يتحدث معها في فترة مرضها الأخيرة إلا نادرا، فدائما كانت نائمة حينما يأتي أو حينما يهم بالخروج.

في الجامعة اضطر لمقابلة العميد الذي أخذ يحدثه بضرورة الانتماء إلى الحزب الحاكم وأن هناك الكثير من الأقاويل والتقارير تكتب عنه وحوله وكلها سلبية المضمون، وحينما لم يبد الدكتور آدم التائه استعداده للانتماء إلى الحزب بدأت نبرة العميد تتغير ويبرز فيها التهديد المبطن بأنه يسيء استخدام مكانته كأستاذ والحرم الجامعي كحرم للعلم ليس لإقامة العلاقات العاطفية. انتبه الدكتور آدم التائه بان العميد يلمح إلى زيارات حواء المتكررة له، وأخيرا أنذره العميد بأن ينتبه لنفسه وإلا فأنه سيوقعها في مشاكل.

تذكر الدكتور آدم التائه بأنه لم يذهب إلى الشقة لمقابلة حواء في الأسبوعين السابقين. كانت وفاة أمه ضربة قوية له، بحيث احتاج لبعض الوقت كي ينتبه لما يدور حوله، وتذكر بأن يوم الغد هو اليوم الأسبوعي المتفق عليه للقاء.

حينما عاد الدكتور آدم التائه إلى داره ظهيرة ذلك اليوم لم يجد والده الذي عادة يرش باحة الدار في مثل هذا الوقت، ولم يسمع حركة لحواء

تأتـي مـن المطبـخ، فهـي عـادة ما تعد له الطعام تبقـى تنتظره في المطبخ المقابل لمدخل الدار، قرب غرفة المكتبة.

كانـت صدمـة آدم التائـه حينمـا دخـل غرفتـه فوجد أباه جالسـا على السـرير بجانـب زوجتـه. ارتبـك الدكتـور آدم حينما دخـل الغرفة وجفل. زوجته ارتبكت أيضا. أما الأب فربما ارتبك للحظة لكنه استرجع وضعه وكأن الأمر لا يحتمل أي شك أو تفسير مريب.

قـال الأب إنـه كان يحدثهـا عن مسـتقبلهما، ولماذا لا ينجبان أطفالا ليزينوا بهم حياتهما الجافة، وإنه يسألها أن كانت هناك مشاكل بينهما أو أن عليهمـا مراجعـة الطبيـب. اسـتقبل الدكتـور آدم الأمر بغرابة ولم يعلق على كلام أبيه. كانت نظراته تائهة وثمة حقد دفين يتقد في أعماقهما.

انسـحب الأب مـن الغرفـة دون أن يضيـف أيـة كلمة أخرى عارفا أن الدكتورآدم التائه لم يصدق كلمة مما قاله، لكنهما على أية حال لم يكونا في وضع مريب، لقد كان جالسا بجانبها لا أكثر. صحيح أنه من الغريب أن يدخل غرفة نومهما وأن يجلس على سرير الزوجة وبجانبها، لكنه أبوه، ولا يمكنه أن يشك فيه. ربما هو يشك في زوجته وليس فيه.

أغلق آدم التائه باب الغرفة وبدأ ينزع ملابسـه دون أن يعلق على ما شاهده. أحست حواء المؤمن بأنه شك في ما رآه. صحيح أنه لم يسألها عن أي شيءإلا أنه بات تلك الليلة في المكتبة.

فـي اليـوم التالـي نهـض الدكتـور آدم التائـه مبكرا. خـرج في حدود التاسـعة، وبعد أن صار في الشـارع العام أوقف سـيارة أجرة، واتجه إلى منطقة الحارثية، فهو اليوم المتفق عليه.

صحيـح أنـه لـم يذهب إلى الشـقة لموعديـن متتاليين لكن هذه المرة سيكون في الموعد المحدد، وسيخبرها بأن عليهما الحذر لأنه كما يبدو، وربما هي، وربما كلاهما مراقب.

حينما دخل البناية التي تقع الشقة فيها كانت الساعة تشير إلى العاشرة بالضبط. أراد أن يصعد إليها بالمصعد فوقف منتظرا للحظات، وفجأة دخل

المبنى رجل عجوز وامرأة ووقفا ينتظران المصعد أيضا. شعر الدكتور آدم التائه بالإحراج قليلا، أراد أن يذهب من خلال السلم لكن المصعد وصل فجأة فأضطر إلى الدخول مع الجارين، وفي المصعد سألاه هل هو جارهما الجديد فأومأ برأسه إيجابا وتمتم بصوت خافت بنعم.

عند باب الشقة مد الدكتور آدم التائه يده إلى الإطار الحجري الذي يطوق الباب فلم يجد المفتاح. نظر إلى ساعته التي كانت تشير إلى العاشرة وثلاث دقائق. هذا يعني أنها في الداخل. ضغط على جرس الباب مرات عديدة دونما جدوى. لم يكن هناك من أحد في الشقة. انتظر قرب المصعد لعشر دقائق أخرى عسى أن تأتي، ولم تأت، فنزل سريعا على درجات السلم.

عند باب البناية لاحظ حارس البناية والمسؤول عن خدماتها جالسا على علبة من الصفيح وهو يشرب الشاي، فقام له محييا.

حينما خرج الدكتور آدم التائه أوقف سيارة أجرة واتجه إلى الجامعة فربما ستأتيه إلى هناك لأنها لم تفهم لماذا لم يأت خلال المرتين الفائتتين. حين وصل الجامعة ودخل الممر المؤدي إلى مكتبه أصيب بالخيبة لأنه لم يجدها واقفة تنتظره. قفل راجعا من حيث أتى، وفي الشارع أخذ سيارة أجرة ذاهبا إلى الشقة ثانية، فعسى أن تكون هناك تنتظره.

حينما دخل المبنى وجد الحارس جالسا في مكانه. فكر مع نفسه في هذا الرجل الذي لم يترك مكانه خلال ساعتين تقريبا. صعد إلى الشقة، وضغط على جرسها لمرات عدة فلم يجبه أحد.

نزل. مر من أمام الحارس. راودته خاطرة بأن يسأله عنها لكنه تراجع لأن ذلك ربما يثير فضوله ويثير الشكوك. خرج من المبنى، وانتظر قليلا في الشارع إلى أن جاءت سيارة أجرة فأوقفها ودخل راكبا.

لا يدري لماذا إستذكر ما دار بينه وبين العميد من حوار وما غمز به العميد من استخدام الحرم الجامعي مكانا للعلاقات العاطفية. تُرى هل تتبعوها وعرفوا من هي ومن تكون ومن هو زوجها؟ شعر بالخوف

وبحالة ترقب لكارثة قد تحصل، لكنه لا يعرف كيف ومن أين.

كانت تلك الفترة هي التي تسبق الامتحانات بأيام لذا كان لديه بعض الوقت للكتابة، ولم تكن لديه الرغبة بالخروج إلا في اليوم المتفق عليه بينهما، لكنه وهو في البيت لم يشأ أن تلتقي زوجته مع أبيه بأي شكل كان إلا لواجبات تقديم الطعام والدواء.

كان يدعوها أن تكون معه في المكتبة عندما يكون هناك أو في غرفة النوم، ولم يكن له أي علاقة أو تواصل مع أبيه. خلال هذه الفترة اقترب أكثر من حواء التي كانت تذكره بأمه. لم ينس بأن أمه كانت تحبها وهي تحب أمه أيضا، وكان حزنها بفقدانها حقيقيا، لذا كان يتعاطف معها، لكنه من ناحية أخرى وخلال تواجدهما أطولَ الوقت في مكان واحد اقترب منها أكثر وأكتشف عالمها الجسدي بشكل كامل، وهذا ما خفف من رغبته الواهية أصلا في الخروج من البيت والذهاب إلى الجامعة.

كان وضع والده يزداد سوءا، وكانت زوجته حواء المؤمن تطلب منه أحيانا أن يتحدث معه أو يزوره لأنه صار لا يطاق فهو عصبي وحاد المزاج وأحيانا يرفض تعاطي الدواء، إلا أن زوجها كان يرفض طلبها بشدة ويبدي غضبه دونما أي تعليق.

وفي يوم اللقاء الموعود في الأسبوع التالي نهض مبكرا وتزين فقد كان لا يحلق لحيته حينما لا يخرج إلى مكان ويبقى في البيت. في الشارع أوقف سيارة أجرة وتوجه إلى الحارثية حيث الشقة المؤجرة التي لم يدخلها غير مرة مع صاحب مكتب العقار.

عندما دخل المنطقة التي تتواجد فيها البناية أحس أن شيئا غير طبيعي يجري. ثمة سيارة إسعاف وسيارات النجدة التابعة للشرطة. طلب من السائق أن يسير بهدوء، وحين صارت السيارة على مقربة من البناية سمع صاحب مكتب العقارات يروي لضابط من الشرطة ورجل مدني معه بارتباك ما شاهده. طلب الدكتور آدم التائه من السائق أن يتوقف

للحظة ليعرف ما يجري. توقفت السيارة على مسافة بحيث يسمع الكلام من صاحب المكتب:

– لقد سجلت العقد باسمها، وكان معها زوجها واعتقد أنه أستاذ في الجامعة، لكنهما لم يسكنا الشقة أبدا، فقد كانت تأتي مرة في الأسبوع وفي وقت محدد وتبقى لساعة أو أكثر وتخرج. هذا ما أخبرني به الحارس. وزوجها أيضا لم يكن متواجدا في الشقة بل جاء مرة في نفس اليوم الذي كانت تأتي فيه عادة لكنها صدفة لم تأت ذلك اليوم، ومرة ثانية كانت هي موجودة، لكنه صعد ونزل وخرج، ثم عاد بعد حوالي ساعتين وصعد وخرج أيضا، بينما هي لم تخرج. إلى أن تصاعدت رائحة كريهة جداً في البناية كلها واشتكى بعض الساكنين منها، وعندما أخذ الحارس يتتبع الرائحة وصل إلى الشقة فطرق الباب وحينما لم يجبه أحد طلب مني أن أزوده بالمفتاح الإضافي و...

طلب الدكتور آدم التائه من السائق أن ينطلق وحاول جاهدا أن يحافظ على توازنه كي لا يكتشف السائق اضطرابه. ما أن ابتعدت السيارة عن مكان البناية ودلفت إلى شارع فرعي حتى أوقف الدكتور السيارة ونزل منها بعد أن نقد السائق الأجرة.

مشى الدكتور آدم التائه سريعا متجها إلى شارع عام آخر وأوقف سيارة أجرة أخرى وركبها متجها إلى البيت.

بقيَ الدكتور آدم التائه لأيام يعيش قصصا وتخيلات مرعبة. كيف ماتت حواء الغريب؟ هل قُتلت أم كان حادثا؟ ربما عرف زوجها بالأمر؟ وإذا ما كان الأمر كذلك فربما يعرفون عن علاقته معها؟ لكن صاحب العقار لا يعرف اسمه ولا يعرف في أي كلية يحاضر، كما أن العقد مكتوب باسمها، ولم تتكرر زيارته إلى الشقة ولا أعتقد أن أحداً يمكن أن يستذكره.

بعد أيام حاول الذهاب إلى الجامعة. ما أن دخل الرواق الذي يقع فيه مكتبه حتى صادفه الفراش أبو هابيل فقال له بأن هناك أشخاصاً

مدنيين جاءوا يسألون عنه، لكنه لم يكن موجودا، وسألوا عن عنوانه، لكن العنوان الموجود في الإدارة هو العنوان القديم.

لم يواصل الدكتور آدم التائه السير ليذهب إلى مكتبه فقد أبدى للفراش بأنه قد نسي شيئا وعليه أن يرجع ليأخذه. خرج من الكلية مسرعا. عاد إلى البيت مذعورا، لكنه حاول أن لا يبين لزوجته أي شيء. أحس بحاجته الكبيرة لها، لا يعرف لماذا؟

فكر في الهروب بأقصى سرعة، لكن ماذا يفعل بأبيه المريض؟ عليه أن يتخلص منه بطريقة ما. ظل لياليَ يفكر في الأمر إلى أن جاءته فكرة أن يضعه في دار للعجزة، وفعلا بحث عن ملجأ للعجزة، ودفع كل الرسوم لخمس سنوات. قبلت إدارة الدار مبلغ السنة ووضعت المبالغ الأخرى إيداعا عندها، إذ شرح لهم بأنه سيذهب إلى إحدى الدول للتدريس لأن لديه عقد عمل هناك، فوافقوا.

بعد بضعة أيام من دفعه رسوم الملجأ جاء رجال إلى الدار لأخذ أبيه الذي أعترض وأخذ يسبه ويسب ويشتم زوجته ظنا منه أنها هي التي لا تريد خدمته وطلبت من زوجها إيداعه في دار العجزة.

بعد ذلك باع الدكتور آدم الدار بمبلغ أرخص بكثير من سعره الاعتيادي وحول المبالغ إلى الدولار وسافر مع زوجته إلى الأردن ومنها إلى أوروبا وطلبا اللجوء السياسي فيها.

في بداية علاقته وتعرفه على حواء الغريب بدأ الدكتور آدم التائه في كتابة روايته الجديدة التي وضع لها عنوانين الأول هو (**المرأة المجهولة**) والثاني هو(**متاهة آدم**)، لكن هذه الرواية أخذت تتطور مع تطور الأحداث، وهو لم ينته منها، ولا يعرف كيف ينهيها. إنها متاهة حقيقية، متاهته هو آدم التائه.

أحس الدكتور آدم التائه أن الأحداث التي جرت في الواقع وما تراكم لديه من تجارب يومية مع اللاجئين وغياب الوسط الثقافي والفكري من محيطه قد أثرت على شخصيته بشكل كبير. صار يتعرف على اللصوص

وعصابات الأجانب ويشاهد الأفلام الإباحية، وابتعد كثيرا عن زوجته حواء المؤمن، بل أحس أن وجودها صار عائقا بالنسبة إليه.

أدم البغدادي: هذا الفصل يمكن بحد ذاته أن يكون رواية، لكني أعرف بأن الدكتور آدم التائه سيمر بتحولات كبيرة في الفصول اللاحقة وأنه سيكتب روايته (المرأة المجهولة) أو (متاهة آدم) والتي سيواجهه نفس السؤال الإبداعي الذي واجهه هو آدم البغدادي وهو يرسم شخصية الدكتور آدم التائه: فإلى أي حد يستطيع الدكتور آدم التائه أن يعيد صياغة الواقع والأحداث والشخصيات ويضيف عليها؟ هل سيكتب نصا روائيا مستمدا مادته من بعض ما جرى له مع السيدة حواء الغريبة، المرأة المجهولة، التي لا يعرف اسمها الكامل، ولا أين تسكن، أو من أين هي؟ ومن هو زوجها؟ وأين كانت حينما ضغط جرس الشقة؟ وكيف ماتت؟

لكن إلى أي حد أستطيع أنا آدم البغدادي أن أتحكم في مشاعر وسلوكية الدكتور آدم التائه؟ هل هذه النزعات الجنسية التي تتجسد من خلال شخصية الدكتور آدم التائه هي حقيقية أم أنها نزعات مكبوتة عندي أنا آدم البغدادي الكاتب؟

لكن من هي حواء الغريبة يا تُرى؟ هل توجد مثل هذه المرأة في الواقع؟ من أين انبثقت في ذهني؟ أذكر أنني صادفت امرأة متزوجة حينما كنتُ طالبا. تعرفتُ عليها صدفة عند صديقي الصائغ المندائي رياض. جاءت لتشتري ذهبا وحليا. عرفت أنها زوجة ضابط عسكري لكنها لم تعطني الكثير من المعلومات عن شخصيتها. أتذكر أني كنت ألتقي بها في دكان صديقي. ندخل غرفة صغيرة جدا في أقصى الدكان، أمارس الجنس معها. لكنها اختفت فجأة. تُرى هل كانت هذه المرأة هي التخطيط الأولي لشخصية حواء التي وضعتها في علاقة مع الدكتور آدم التائه؟ وأنها كانت تسكن في قاع الذاكرة واللاوعي؟ ربما.. وربما لا..

(7)

حمار في السرير

حين خرجت حواء المؤمن من الحمام وقد لبست ثوباً شفافا، مبتلة الشعر، دخلت المطبخ فوجدت القهوة جاهزة. صبت لنفسها ولزوجها في كوبين وحملت أحدهما إليه. وجدته ينظر متأملا في الورقة البيضاء التي أمامه. وضعت كوب القهوة أمامه. لم ينتبه إليها للحظة لكنه سرعان ما نظر إليها وكأنه فوجيء بوجودها. نظر إليها بتأمل، حيث كان ثوبها الشفاف قد التصق بجسدها المبتل، ولم تكن ترتدي شيئا تحت الثوب فشعر بدبيب الرغبة يسري في عروقه، لكنه فجأة قال لها:

– اجلسي.. بودي أن أسالك شيئا

نظرت إليه باستغراب وتوجست من سؤاله:

– خيرا إن شاء الله

– خير.. لا تقلقي.. أنا أحتاج رأيك في أمر

– تحتاج رأيي.. أنت الدكتور والأستاذ الجامعي تحتاج إلى رأيي..

– نعم.. ولِمَ لا.. اجلسي

– هل سيطول الحديث

– لا ادري.. هذا متعلق بك

– إذن دعني آتي بكوب قهوتي

– طيب.. بسرعة

خرجت حواء المؤمن إلى المطبخ للحظة ثم عادت وهي تحمل كوبا من القهوة الذي جلست وهي تمسكه بيديها. نظر إليها زوجها

بتأمل ورقة وقال لها:

– سـوف أروي لكي قصة من دون تفاصيل كثيرة. أحتاج رأيك في احتمالاتها، لأني محتار في نهايتها

– اسمع أولا

– طيـب.. كان هنـاك رجـل ارتبـط بامرأة متزوجـة. وكان يزورها في شـقتها. وذات يوم اتفقت معه على أن يزورها السـاعة العاشـرة صباحـا لأن زوجهـا مسـافر خـارج البلاد. ذهـب الرجل إليها في الموعد المحدد. طرق الباب مرات عديدة لكن لم يكن هناك أحد في الشقة. بعد أيام جاءت الشرطة لتعتقله متهمة إياه بقتلها. لقد وجدت مقتولة في شـقتها. الطبيب الشـرعي حدد سـاعة الجريمة في الساعة العاشرة صباحا.

– كيف تتهمه وهو لم يقتلها

– المشكلة هنا.. جميع الأدلة ضده..

– أية أدلة..

– البواب كان يعرفه فهو صديق الأسرة. وحينما دخل البناية في ذلك الوقت شـاءت الصدف أن يسـأله البواب عن الوقت فأجابه أنها السـاعة العاشـرة. وهو نفس وقت وقوع الجريمة. كما أنه حينما صعد المصعد كان معه هناك جار يسـكن في نفس الطابق الذي تسـكنه السـيدة القتيلة، وشـهد بأنه رأى السـيد بطلنا وهو يطرق البـاب، لكـن الجـار لـم يرَ أكثر لأنه دخل شـقته، وأنه كان يعرف بأن السيد بطلنا من أصدقاء العائلة.

استغربت حواء المؤمن من هذه القصة فقالت وهي سعيدة أن تشارك زوجها الدكتور أفكاره وأنه يأخذ رأيها في أمر مهم كهذا:

– ربما زوجها عرف بعلاقتهما فقتلها

– زوجها العسكري كان مسافرا خارج البلاد.

– ربما ثمة لص دخل الشقة وقام بالجريمة

– لم يُسرق أي شيء من الشقة. علماً هناك أموال ومجوهرات ثمينة.
– ربما لديها أخ أو شخص آخر عرف بعلاقتها بالرجل الجديد فدخل وقتلها بعد صراع بينهما
– لم يجدوا أي علامات عنف على وجهها ولا أي توتر. كانت في أبهى زينتها. وكانت مطعونة بسكين من الخلف. وليس في الشقة أي أثر لأحداث عنف أوشجار.
– حيرتني..
– هي حيرة بالفعل. لأن الدلائل كلها تدين صاحبنا البطل. والمحكمة تؤكد بأنه سيسجن لفترة طويلة جدا بتهمة القتل.
– لكنه بريء
– لكنه أمام القانون مجرم
– أي قانون هذا الذي يحكم على البريء لأنه لا يستطيع إثبات براءته؟ نحن نعرف الحقيقية هو أنه لم يقترف الجريمة
– القانون هو القانون.على الرجل إثبات براءته
– لكن هذا ليس عدلا.
– وهل القوانين تحقق العدالة كما تعتقدين؟
– هكذا أفهم القانون.
– وفي حالة بطلنا المسكين
– لا أدري. أنت قلت بأنه لم يجد أحدا في الشقة وهو لم يدخل إليها، علما أن المرأة قُتلت في ذلك الوقت بالضبط.
– هذا صحيح
– ألم يسمع هو صراخا أو عراكا أو حتى صوتا قادما من الشقة؟
– أبدا
– هذه ورطة حقيقية. أنت ماذا تقول؟
– لا أدري.. لماذا أسالك إذن؟
– هل هذا حقيقة أم أنها قصة تكتبها؟

– نعم. إنها قصة أكتبها أو كتبتها، لكني لا أستطيع أن أجد نهاية لها.
– هل يمكنني قرأتها؟
– يمكنك لكن ليس الآن.
– متى؟
– قلت ليس الآن.

كانا يتحدثان ويرتشفان القهوة. شعرت حواء المؤمن بالسعادة وهي تراه يحدثها بجدية واحترام، إلا في اللحظات الأخيرة حينما ألحت عليه في ما يخص قراءة القصة.

أرادت حواء المؤمن أن ترضيه وأن تتقرب منه إذ أحسته للحظات قريبا منها. قامت واستدارت حول الطاولة ووقفت إلى جانب كرسيه. أحس بحضورها الهائل، وبرغبتها الخفية في أن تكون قريبة منه. انحنى للأسفل قليلا ثم مد يده تحت ثوبها وصعد إلى الأعلى مداعبا ما بين فخذيها، وجدها رطبة. لكنه ولرغبة عمياء في داخله أراد أن يعذبها فأستمر يداعبها برقة ويثيرها بينما كانت هي واقفة لا تتحرك من مكانها بينما تتصاعد الرغبة في جسدها، وحينما وجد بأنها بدأت تقترب من الذروة سحب يده فجأة. ارتبكت، ولم تعرف ماذا تفعل. أحست بإحباط شديد. لم تعرف لماذا توقف، وما الذي بدر منها كي يتوقف فجأة. ظلت لدقائق واقفة عسى أن يواصل مداعباته، لكن أبدى انشغاله بالورقة التي أمامه.

غضبت حواء المؤمن من نفسها ومن زوجها. خرجت من الغرفة متجهة إلى غرفتها. حينما دخلت الغرفة فوجئت بوجود جسد متمدد في السرير، ولا يظهر منه سوى رأسه الذي هو رأس حمار. أرادت أن تصرخ، لكنها حينما نظرت ثانية لم تجد شيئا.

أصابها الذعر مما رأته أو خيل لها. فكرت للحظة عن معنى وجود حمار في السرير. خرجت من الغرفة للحظات. سمعت صوت بكاء طفل قادم من الغرفة. دخلت مذعورة إلى الغرفة فلم تجد أي شيء. خافت

فخرجت من الغرفة متجهة إلى الغرفة الأخرى حيث زوجها. نظر إليها بتساؤل قائلا:

– خيرا ؟

– هل سمعت بكاء طفل؟

– لا

– لكني سمعته في غرفة النوم

– إنك تتوهمين. ربما ابن الجيران

– ليس لدى الجيران طفل رضيع

– مجرد وهم لا أكثر

– لكني سمعته

– يحصل أحياناً أن نرى أو نسمع أشياء غريبة

– نعم. لقد رأيت رأس حمار في السرير أيضا

نظر إليها مستفسرا ثم ابتسم قائلا:

– حمار في السرير

– نعم.. أقسم بجميع الأئمة والمقدسات..

– وبعد ذلك

– اختفى. أقصد حينما أعدت النظر ثانية لم يكن هناك أي شيء

– غريب أن تري حمارا في السرير

لم يعلق أكثر إذ غرق في صمته وكأنه يحلل ما قالته. ظلت هي تنتظر للحظات لمواصلة الحديث لكنها استمر في صمته، تائها في أفكاره. خرجت من الغرفة واتجهت لغرفتها. جلست أمام المرآة تمشط شعرها، بينما ظل الدكتور يفكر في الدلالات الجنسية لوجود حمار في السرير زوجته.

ربما لأنها امرأة شهوانية لذلك انعكست رغباتها الدفينة برموز حيوانية، حيث يتميز الحمار بعضوه الكبير والطويل، وان هذه الرغبات الدفينة لم تستطع كبتها فتجلت لها بهذه الصورة، لاسيما أنها كانت مثارة

بشكل كبير لذا فأن عقلها الباطن حاول إشباع رغبتها بتجسيد الحمار في سريرها.

آدم البغدادي: أحس أن ثمة شيئاً ناقصاً في هذا الفصل. ربما من المفيد إنهاء الفصل بطريقة أخرى، أي أن الدكتور آدم التائه بعد هذا التفسير الفرويدي لرؤية حواء المؤمن كان عليه أن يقوم من مكانه ويذهب إليها لاسيما وأنها كانت متهيجة، وهناك يحاول أن يطفئ رغبتها المتأججة.

لكن إذا ما دفعت الدكتور آدم التائه ليقوم بممارسة الجنس مع زوجته فربما ستتحول هذه الرواية إلى برنوغرافيا تضج بالمشاهد الجنسية، لكن حياتنا مبنية على العلاقة الجنسية في الكثير من مفاصلها، وأن الأحلام الجنسية تطوق يوميات حياتنا بشكل لا فكاك منه.

(8)

المرأة المجهولة

استيقظت حواء المؤمن صباحا على شخير زوجها النائم على الأريكة في غرفة الاستقبال. اعتقدت أنه غير مرتاح في النوم لذلك حاولت إيقاظه قائلة له:

– دكتور.. دكتور.. قم إلى سريرك في غرفة النوم

لم يستيقظ الدكتور آدم التائه مباشرة، وحينما هزته ثانية برفق فز من نومه مرعوبا وكأنه مطارد من قوى مجهولة، وتمتم بخوف:

– ماذا.. ماذا حصل

فقالت له حواء المؤمن بهدوء وهي تنظر إليه بإشفاق:

– لا شيء.. لم يحدث أي شيء..

انتبه لما هو فيه وعرف أنه نام بعد تعب شديد من التفكير. بهدوء استيقظ لكنه نظر إلى الساعة الحائطية فقام بسرعة وهو يقول:

– الساعة الحادية عشرة. لدي موعد لدى دائرة المساعدات الاجتماعية. علي أن أذهب. وربما سأتأخر اليوم إلى المساء لأنني سأذهب مع أصدقائي إلى مدينة (إيسن).

نهض خارجا من الغرفة وذاهبا باتجاه الحمام. تبعته زوجته متجهة إلى المطبخ لتعد لهما الفطور.

بعد قليل خرج من الحمام وهو ينشف وجهه بمنشفة وردية. كانت حواء المؤمن قد صبت الشاي في كوبين وأخرجت علبة المربى مع علبة القشطة من الثلاجة كما كانت قد وضعت الخبز في جهاز التسخين

الكهربائي. كانت تريد أن تضع هذه الأشياء في صينية لتذهب إلى غرفة الاستقبال كي يفطرا إلا أن الدكتور آدم التائه كان كما يبدو مستعجلا فعلا، لذا أخذ الخبز وبدأ الأكل وهو واقف في المطبخ. حينما نظرت إليه زوجته باستغراب نظر هو إليها مستفهما ثم قال:

– لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ ألم أقل إنني مستعجل ولدي موعد..

ثم أخذ يشرب الشاي بسرعة بجرعات كبيرة، وما أن انتهى حتى خرج مسرعا من الشقة، بينما ظلت حواء وحيدة. وضعت كوبها وقطعة من الخبز وشيئاً من القشطة والمربى في الصينية وحملتها إلى الغرفة الثانية ثم جلست لتأخذ فطورها لكن قبل ذلك ضغطت على زر الريموت كونترول فبدأ بث التلفزيون.

بعد أن أنهت حواء المؤمن فطورها انتبهت إلى الأوراق المبعثرة على طاولة الكتابة. راودها شعور غريب وفضول حارق بالاطلاع على هذه القصة التي يكتبها زوجها. وبما أنه سيغيب اليوم طويلا فبإمكانها قراءة ما مكتوب. فجأة جاءتها حيوية غريبة. قامت من مكانها.أغلقت الباب بالمفتاح. اقتربت من الطاولة. جلست على الكرسي. أخذت رزمة الأوراق لتقرأ على الصفحة الأولى عنوان القصة (**المرأة المجهولة**). وجدت أنه وضع خطوطا عديدة تحت العنوان الثاني (**متاهة آدم**). قامت للحظة فحملت الصينية إلى المطبخ، ثم عادت بكوب مليء بالشاي وجلست ثانية لقراءة القصة.

المرأة المجهولة

أو

متاهة آدم

(1)

كانت الساعة في حدود العاشرة صباحا حينما دخل المهندس آدم المطرود مكتبه فوجد أن سكرتيرته حواء اللهيبي، التي كانت في بداية الثلاثين من العمر، ترتب بعض الخرائط والملفات الموجودة على الطاولة، فبادرها مرحا:

– صباح الخير

فالتفتت إليه وقالت وهي تبتسم بعذوبة:

– صباح النور أستاذ آدم

دخل المهندس آدم المطرود إلى مكتبه الخاص بينما استمرت السكرتيرة حواء اللهيبي بترتيبها للخرائط والملفات. بعد فترة وجيزة توقفت. أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها ونظرت لنفسها ثم أخرجت قلما للشفاه ومررته على شفتيها ورشت على نفسها عطرا من قنينة أخرجتها أيضا من حقيبتها، وبعد ذلك دخلت إلى المكتب.

حينما دخلت حواء اللهيبي المكتب كان المهندس آدم المطرود مشغولا بوضع أدواته الهندسية على الطاولة التي يرسم عليها الخرائط. تقدمت منه وهي تسعى إلى لفت انتباهه. تنحنحت قليلا وهي تبتسم فانتبه لها فقالت:

– نسيت أن أخبرك بأن المحقق الجنائي آدم التكريتي جاء إلى المكتب وسأل عنك، فأخبرته بأنك ستكون هنا في الساعة العاشرة فقال أنه سيطلبك تليفونيا.

نظر المهندس آدم المطرود إلى ساعته وقال:

– لقد مرت عشر دقائق على العاشرة..

ولـم يكمـل المهنـدس آدم المطرود جملته حينما رن جرس التليفون في مكتب السكرتيرة فخرجت مسرعة وهي تقول:

– ربما هو

وحينما رفعت سـماعة التلفون في مكتبها كان المحقق آدم التكريتي فعـلا علـى الخـط، فضغطـت علـى جهاز للنـداء القريـب يصلها بمكتب مديرها وقالت له:

– المحقق آدم التكريتي على الخط أستاذ آدم

– صليني معه

– حاضر

ووصلـت بينهمـا ثـم وضعـت السـماعة. وفـي غرفته رفـع المهندس سـماعته وأخـذ يكلـم المحقـق آدم التكريتـي المعروف فـي المدينة وفي وسائل الإعلام:

– صباح الخير أستاذ آدم. نعم أخبرتني السكرتيرة قبل لحظات عن زيارتـك للمكتـب وأنـا آسـف جـدا لأني لم أكن موجـودا. بماذا أسـتطيع أن أفيدكم. ماذا؟ تحتاجني سـريعا ولمدة نصف سـاعة؟ أمر ضروري جدا؟ طيب. سأكون عندك خلال نصف ساعة.

وضع المهندس آدم المطرود السماعة. أخذ يفكر مع نفسه للحظات: ما هو الأمر الضروري الذي يطلبني فيه أشهر محقق في المدينة؟ وخلال هذه الأثناء دخلت حواء اللهيبي المكتب وسألته:

– هل أعد لحضرتك القهوة

فقال لها وهو يعد نفسه للخروج قائلا:

– لا شـكرا. سـأذهب حالاً إلى مكتب التحقيقات. إنهم يحتاجونني هناك لبعض الوقت في موضوع مهم لا أعرف ما هو.

حين خرج المهندس آدم المطرود شعرت حواء اللهيبي بالخيبة. ليس لأنه خرج فحسب وإنما لأنه خرج دون أن ينتبه إليها ولم يعلق أي شيء، فمن عادته أن يعلق على ملابسها وأناقتها ويمتدحها أذا ما أعجبته أو أن

يعلـق بكلمـات رقيقـة عن عطرها. لكنه اليوم خرج مسـرعا ولم ينتبه إلى أنها استخدمت عطرا فرنسيا جديدا.

آدم التائه: هل آدم المطرود هو أنا أم شخصية أخرى حقا؟ ومن هي حواء اللهيبي ؟ أنا شخصيا أستاذ جامعي وليست لدي سكرتيرة، فمن أين جـاءت حـواء اللهيـبي هذه؟ هل هـي تكوينات الروح المبدع؟ وهل تُرى يتعامل المحققون بهذه الطريقة لدينا؟ لِمَ لا وبطله مثله ليس سياسيا أبداً؟ السلطة تبطش بالسياسين أكثر من غيرهم. لم أكن أنا سياسيا وبطلي آدم المطرود ليس سياسيا أيضا.

واصلـت حـواء المؤمـن القراءة. عرفـت أن زوجها الدكتور آدم التائه علق على هذا الفصل، لكنها لم ترَ ما دونه آدم البغدادي على روايته التي هما أبطالها.

أعجبها أنه زوجها الدكتور آدم التائه استخدم اسمها حواء اللهيبي في قصته لكن لماذا اختارها لتكون سـكرتيرة؟ على أية حال أعجبتها القصة وداهمها الفضول لمعرفة ما سيحدث، فواصلت قراءة الفصل الثاني.

انتبه آدم البغدادي لملاحظة الدكتور آدم التائه على هذا الفصل، تُرى هل هذه فعلا ملاحظة الدكتور آدم التائه أم أنها ملاحظته هو آدم البغدادي، وأنه دفع الدكتور آدم التائه لتسجيلها. كان في شك من هذا الأمر، وفكر في تعقيد التجربة الإبداعية.

(2)

حينما دخل المهندس آدم المطرود إلى دائرة التحقيقات الجنائية أوقفه أحد الموظفين وسأله:

– هل أستطيع أن أخدمك؟. هل جئت لرؤية أحد؟.

– نعم.. لدي موعد مع السيد آدم التكريتي

– مكتبه عند نهاية الممر.

– شكرا

مضى المهندس آدم المطرود إلى نهاية الممر فوجد الغرفة شبه مفتوحة، ووجد المحقق آدم التكريتي جالسا يشرب القهوة، وما أن دخل ورآه المحقق حتى قام له مصافحا ومرحبا، وبدوره قدم المهندس آدم نفسه:

– المهندس آدم المطرود

– أهلا أستاذ آدم. أهلا وسهلا. تفضل استرح. هل تشرب شيئا؟.

– شكرا جزيلا..

– ضروري أن تشرب شيئا

– شكرا جزيلا. فقط أردت أن أعرف بماذا يمكنني أن أفيدكم

وبهدوء وبلا أي توتر أجاب المحقق شاهين:

– يمكنك أن تفيدنا جدا. ويمكنك أن تتعبنا جدا. الأمر متوقف عليك..

– متوقف عليّ. إذا كان الأمر كذلك فيسرني طبعا أن أساعدكم.

انشغل المحقق بفتح علبة سجائره للحظات وكأن المهندس آدم المطرود غير موجود، ثم فجأة نظر في عينيه محدقا فيهما بتركيز قائلا:

– أستاذ آدم.. سأسألك سؤالا واحدا

– تفضل

– متى شاهدت السيدة حواء آخر مرة؟

أحس المهندس آدم المطرود برعشة تسري في جسده. إذن أنهم يعرفون علاقته بالسيدة حواء الصايغ، وليس من الحكمة أن ينكر لكنه أراد كسب بعض الوقت، فسأل:

– أي حواء؟

ابتسم المحقق آدم التكريتي بخبث وكأنه يقول له لا تلعب معنا فنحن نعرف كل شيء:

– كم حواء توجد؟ إنها حواء واحدة تلك التي تعرفها يا أستاذ آدم، إنها حواء الصايغ زوجة الأستاذ آدم الولهان، ونحن نعرف عن علاقتك معها منذ.. منذ.. منذ أن كنتما في الجنة..

– إذن كنت تقصد السيدة حواء الصايغ

– هكذا بدأت تتعاون معنا..

– منذ أسبوع أو خمسة أيام كما أعتقد، لا أتذكر تماما..

– يجب أن تتذكر يا سيد آدم

أحس المهندس آدم المطرود بالارتباك وأراد أن يخفي ارتباكه، فأخذ يسترسل من حيث لا ضرورة للاسترسال:

– إنني لا اذكر تماما. فأنا أراها في أماكن متعددة. أحيانا في نادي العلوية وأحيانا في نادي الصيد، وأحيانا في مطعم ما، وأحيانا أزورهم. يعني أراها بمناسبة وبدون مناسبة، وأحيانا صدفة، لكن ذلك لا يعني شيئا، ولست ملزما بأن أدون ذلك في مفكرتي.

نظر المحقق آدم التكريتي إليه بإمعان وكأنه يقرأ أفكاره. تضايق المهندس آدم المطرود من نظراته وفكر للحظات في نفسه بأن هذه وقاحة منه لذا بادر ليسأله:

– لكن هل لي أن أعرف لو سمحت سيد آدم، لماذا كل هذه الأسئلة؟

نظر المحقق آدم التكريتي إلى آدم المطرود بهدوء ثم قام عن كرسيه ودار حـول طاولتـه، واقتـرب مـن المهندس آدم المطرود دون أن يخفض نظراته عن وجهه، ثم قال ببرود:

– لأنها قد قُتلت؟

هب المهندس آدم المطرود واقفاً دون إرادة منه ويقول:

– قُتلت؟ كيف؟

نظر إليه المحقق آدم التكريتي وكأنه مسك شيئا خفيا، فيقول له ببرود:

– كان يجب أن تسأل متى؟ هل تعطيني سيجارة من فضلك؟

لـم يفهـم المهنـدس آدم المطـرود شـيئا مـن إشـارات المحقـق آدم التكريتـي ولـم ينتبـه إليهـا لأنـه كان مشـغولا بالخبر في أعماقـه. أراد أن يرتب الأشـياء في داخله، لذلك وجد أن طلب المحقق سـيجارة فرصة للتفكير للحظات، فقال له:

– أنا لا أدخن.

– هل أنت متأكد بأنك لا تدخن؟ سأله المحقق

– طبعا لا أدخن.

– ظننتك تدخن

فجأة سحب المحقق سيجارة من علبة سجائره، وأخذ ينفث دخانها بهـدوء، وكأنـه يريـد مـن المهنـدس آدم المطرود أن يفقـد أعصابه، فلعله حينها يفصح عن أشياء تفيده وتؤكد شكوكه. قام المحقق وأخذ بالمشي في الغرفة رواحا ومجيئا دون أن يعير للمهندس آدم المطرود انتباها.

أحس آدم المطرود بنفسه وكأنه يختنق وداهمته رغبة في البكاء لموت حواء الصايغ، لكنه لا يريد أن يكشـف عن ذلك. عضَ على شـفتيه كي يمنع نفسه عن البكاء. فجأة، انتبه المحقق لحالة المهندس آدم المطرود فسأله مغتنماً حالة النفسية تلك:

– أين كنت أمس الساعة العاشرة صباحا؟

– كنت في طريقي إلى المكتب

– هـل تعتقـد بـأن هنـاك مـن رآك فـي الطريـق أو لديك شـهود على ذلك؟.

– شـهود علـى أنـي كنـتُ فـي طريقـي إلـى المكتـب؟ من أيـن آتي بالشـهود؟ من الشـارع؟ ثم هل أنا متهم يا سـيد آدم حتى تسـألني كل هذه الأسئلة؟

لم يجبه المحقق آدم التكريتي وإنما اقترب منه وجلس على كرسـيه قبالته وقال له بهدوء:

– أسـتاذ آدم، أنـت مهنـدس ممتـاز، ولديك سـمعة جيـدة في مجال عملـك، ومشـهود لـك بالـذكاء لكنـك لا تريـد أن تسـاعدنا فـي التحقيق

– أي تحقيق؟ قال المهندس آدم بضيق وعصبية

– لا تريد أن تخبرنا كيف قُتلت السيدة حواء الصايغ؟

– أنا الذي أريد أن أسألكم كيف قُتلت؟

ابتسم المحقق آدم التكريتي وهو ينظر إلى وجه آدم المطرود وقال:

– أنت تسأل كيف قُتلت؟ أنا الذي أسألك كيف قُتلت؟

لم يتحمل آدم المطرود أكثر فقفز من كرسيه غاضبا وقال للمحقق:

– سـيد آدم إذا كنت تريد القول بأن لي علاقة بمقتل السـيدة حواء الصايـغ فوفـر علـى نفسـك هـذا الطريـق المسـدود. يمكننـي أن أسـاعدك فـي تحقيقـك عـن الجريمـة، لكن قبل كل شـيء يجب أن تضـع فـي رأسـك شـيئا واحـدا هو أني لم اقتـل حواء الصايغ وليسـت لـي أيـة علاقـة بهذه الجريمة، بل أنـا أريد أن أعرف من قام بهذا الفعل الشنيع.

قال آدم المطرود ذلك بعصبية وأراد أن يهم بالخروج، فنظر المحقق آدم التكريتي إليه بحزم وقال:

– أنت موقوف أيها المهندس آدم المطرود، فأجلس لو سمحت

إرتسمت علامات الدهشة والغضب على وجه آدم المطرود، لكنه لم

يستطيع أن يقول أي شيء وكأنه صُعق.

آدم التائه: أحسُ أن ثمة خللا في طريقة التحقيق فالأمور لم تجر بهذه الطريقة، لأني بالأساس لم أعُتقل ولم يجر معي أي تحقيق، وهذا كله من مخيلتي الروائية، وربما لا تجري الأمور بهذه الطريقة، لاسيما في قضايا التحقيقات الجنائية، ففي بلد مثل العراق لا تجري الأمور دائما حسب القانون وبهذا التهذيب، وربما دونتُ طريقة سير التحقيق مع آدم المطرود تحت تأثير الأفلام الأمير كية أو الأوربية، لاسيما أفلام الجريمة والتحقيقات.

شعرت حواء المؤمن بالخوف بعد أن انتهت من قراءة هذا الفصل. سألت نفسها من هي يا تُرى حواء الصايغ هذه؟ ولماذا البطل هنا أسمه المهندس آدم المطرود وليس الدكتور آدم التائه؟ وإذا لم يكن هو فلماذا يحمل نفس الاسم؟ ولماذا يكتب زوجها مثل هذه القصص المخيفة وكأنها فيلم بوليسي؟

وبرغم ذلك أعجبتها القصة فواصلت القراءة في الفصل الثالث.

انتبه أدم البغدادي لملاحظة الدكتور آدم التائه عن سير التحقيق مع آدم المطرود في قضية موت حواء الصايغ. وجد أنه ربما انتبه بشكل صحيح لهذه الجانب.

(3)

فـي صالـة واسـعة لأحـد الفنـادق الراقية في أحدى المدن السـاحلية التركيـة المطلـة علـى البحر الأبيض المتوسـط. وعند مكتب اسـتعلامات الفنـدق كان فريـق مختلـط من سـائحين ألمان وأجانب ينتظرون إسـتلام مفاتيح غرفهم. وعلى المقاعد والأرائك المنتشرة في باحة الفندق الذي يُطلق عليه اسم (اللوبي) عدد من النزلاء الذين وكما يبدو من ملامحهم ينتمون لشعوب وبلدان مختلفة. كان موظف الاستعلامات يوزع المفاتيح علـى السـائحين فالتفـت إلى المهنـدس آدم المطرود الذي جاء في مهمة المشـاركة فـي المؤتمـر العلمي الهندسـي الذي سـيُعقد في هـذه المدينة الساحلية بعد يومين قائلا:

– السيد آدم المطرود رقم غرفتك 611

أخـذ آدم المطـرود المفتـاح وسـحب حقيبتـه الصغيرة الحجم نسـبيا قياسا لحقائب السائحين الآخرين وتوجه إلى المصعد. انتظر هناك نزول المصعد التي جميعها كانت في الأعلى وفي طوابق متفاوتة، وعندما وصل المصعد وفتحت الباب خرج منه عدد كبير من النزلاء.

فجـأة، ذهـل آدم المطـرود عندمـا رأى أمامـه امرأة فـي الأربعين من العمر. لا يمكن القول إنها جميلة أو جميلة جدا بالنسـبة له وإنما كانت مذهلة.

كانت المرأة هادئة الملامح، حزينة النظرات، مثيرة الجسـد، ليسـت مثل عارضات الأزياء والممثلات في المجلات الفنية، وإنما كانت امرأة متناسقة الجسد، بل تميل شيئا إلى الامتلاء، تفيض أنوثة، حنطية البشرة، ذات وجه حزين، بل يفيض حزنا هادئا.

خرج الجميع من المصعد بيد أنها ظلت واقفة ولم تخرج. تردد آدم المطرود منتظرا خروجها لكنها لم تخرج وإنما بقيت مكانها. ضغطت على زر يشير إلى الطابق السابع فعرف المهندس آدم أنها تريد أن تصعد ثانية. دخل هو وسلم باللغة الإنكليزية فأجابته بابتسامة آسرة بدلا من الكلام. أغلق المصعد بابه وصعد إلى الأعلى.

انتبه آدم المطرود إلى أنه لم يضغط على زر الطابق الذي يشير إلى وجهته، فضغط على الرقم ستة (6). ظل ينظر إليها. انتبهت هي إلى ذلك لكنها لم تبد أي رد فعل، وحينما وصل المصعد إلى الطابق السادس توقف وفُتحت بابه، لم ينتبه المهندس آدم المطرود إليه. ابتسمت المرأة مع نفسها فانتبه هو إلى أنه قد وصل فخرج بطريقة مكنته أن ينظر إليها بينما كان المصعد يغلق بابه ليواصل الصعود.

في الطابق السادس وجد آدم المطرود نفسه أمام ممر طويل ومتعدد الاتجاهات، فنظر إلى لوحة تشير إلى سلسلة الغرف الموجودة في كل اتجاه فانطلق في الاتجاه الذي تقع غرفته ضمن تسلسله. كانت الممرات مفروشة بالسجاد الأحمر في كل الاتجاهات. فجأة ظهرت إحدى عاملات الخدمة من غرفة في منتصف الممر. ومن الغرفة التي تحمل الرقم خمسة خرج عامل خدمة شاب. اجتازه آدم المطرود، لكنه سمعه يقول بالتركية لزميلته عاملة الخدمة:

– هذا كما يبدو كنز.. أكيد جيوبه مليئة بالمال

– وهل سيوزع ماله علينا يا كمال.. أجابته المنظفة

لم يكونا يدركان بأن آدم المطرود يعرف اللغة التركية لأنه درس الهندسة في جامعة اسطنبول. ابتسم هو مع نفسه ثم توقف، فقد كان أمام باب غرفته. أدخل البطاقة البلاستيكية الذكية وفتح الباب داخلا في الغرفة.

دخل المحقق آدم التكريتي إلى الزنزانة المنفردة في مبنى التحقيقات الجنائية التي تم حجز المهندس آدم المطرود فيها لحين النظر في حيثيات

الجريمة. كان آدم المطرود مستلقيا على اللوح الخشبي الذي فُرشت عليه بطانية كي يبدو وكأنه سرير، غارقا في أفكاره، متسائلا عن كيفية موت حواء الصايغ. لم يكن قلقا جدا على مصيره لأنه كان متأكدا من براءته.

جلس آدم المطرود على السرير حينما دخل المحقق. ارتسمت على وجهه ملامح الغضب الخفي والإحساس بالغبن. لم يقل المحقق شيئا، وإنما أخذ يمشي في الزنزانة جيئة وذهابا. فجأة ألتفت إلى آدم المطرود قائلا:

– اسمع سيد آدم، أنت الآن في وضع صعب جدا. ولا أخفيك أن جميع الأدلة والشواهد تشير إليك، وتدينك، لذا أرجو منك أن تكون في غاية الحذر عندما تجيب على الأسئلة. وأنصحك بأن تتعاون معنا لأن كل محاولة لتضليل العدالة ستدفع المحكمة بأن تكون شديدة معك. وربما ستحتاج إلى محام بارع جدا لينقذك من ورطتك هذه.

كان آدم المطرود ينظر إلى المحقق نظرة متأملة ومستخفة بينما ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة هازئة. انتبه المحقق إلى نظرته الساخرة فلم يتحمل ذلك فترك الزنزانة سريعا. عاد المهندس آدم المطرود إلى استلقائه مجددا غارقا في بحار ذكرياته المتلاطمة.

دخل آدم المطرود إلى صالة الطعام الرحبة، وكان قد ارتدى ثيابا جديدة. كانت الصالة مليئة بالزائرين. من بعيد لمح آدم المطرود صديقه المهندس آدم الصاحب، وهو من الأعضاء المشاركين في المؤتمر العلمي فاتجه نحوه. تبادلا التحية وجلس إلى طاولته الصغيرة المخصصة لأربعة أشخاص. أخذ قائمة الطعام ليقرأ ما فيها. حينما جاء عامل المطعم ليسجل طلبيهما تحدث معه صديقه بالتركية، فقد درسا الهندسة معاً في جامعة اسطنبول.

بدأت الفرقة الموسيقية تأخذ موضعها بالقرب من ساحة الرقص إستعداداً لتقديم برنامج السهرة، وفي ذلك الوقت جاء المضيف بالطعام

إلى المائدة وبدأ بترتيبها. حينما أراد آدم المطرود أن يبدأ بالطعام توقف فجأة وعلى وجهه إمارات الدهشة.

كانت المرأة الجميلة الحزينة التي رآها في المصعد قد دخلت إلى صالة الطعام ومعها رجل في منتصف عقده السادس. كانت المرأة قد ارتدت ملابس السهرة فبدت وكأنها إحدى نساء القرن التاسع عشر.

اجتازت المرأة الجميلة والرجل الذي معها الصالة بحثا عن طاولة فارغة، ومن حسن حظ آدم المطرود لم يكن هناك من طاولة إلا واحدة قربهما فاتجها نحوها.

لم يحول آدم المطرود عينيه عنها قط فانتبه صديقه آدم الصاحب الذي يجلس بجانبه إليه، واتجه هو أيضا بعينيه نحوها وارتسمت على وجهه علامات الإعجاب الشديد والرغبة الفاضحة وقال:

– إنها رائعة حقا.. امرأة حقيقية...

لم يجب آدم المطرود على ملاحظة صديقه إذ ظل يواصل نظرات الدهشة والإعجاب والذهول إلى المرأة ومرافقها اللذين جلسا على المائدة وبدأ كل منهما يتفحص قائمة الطعام. فجأة وكأنما هناك إشارة حفية وصلتها التفتت المرأة إلى الطاولة التي يجلس حولها آدم المطرود فالتقت نظراتهما، فارتبكا كلاهما. لقد عرفته.

جاء موظف الخدمة في المطعم ليسجل طلبات الطعام فانشغلت المرأة معه، حاولت أن تتفاهم معه بالانكليزية، فجأة التفتت إلى الرجل الذي معها وسألته بالعربية وباللهجة العراقية:

– أنت اختاريت شي؟

– بلي، اختاريت رقم اثنين واربعين

لم يخف آدم المطرود سعادته فهمس لصديقه:

– إنهما عراقيان

وأحس بشهية كبيرة فأخذ يضع الخضار والسَلَطَة في صحنه. فجأة حدثت ضجة في أقصى القاعة إذ سقطت الصينية من يد العامل الذي

يحمل الطعام فالتفت الجميع نحو جهة الصوت.

دخـل رجـل يحمـل صينيـة الطعـام إلـى الزنزانـة. كان المهندس آدم المطرود لا يزال مستلقيا على اللوح الخشـبي مسـترجعا ذكرياته. وضع الرجل الصينية أمامه ودون أن يقول شيئا خرج من الزنزانة. قبل أن يغلق الباب سأله آدم المطرود:

– قل لي رجاءً. هل من جديد؟ هل اكتشفوا شيئا يدلهم على القاتل؟

لـم يشـأ الرجـل أن يجيـب فـي البدايـة لكنـه نظر إلـى المهندس آدم المطرود وقال:

– لقد اكتشفوا بعض الآثار التي ربما ستؤكد لهم هوية القاتل.

لم يأخذ آدم الأمر بغير أنه سيؤكد براءته، فقال بفرح خفي:

– الحمد لله

بحلق الرجل في وجه المهندس آدم المطرود مستغربا، فانتبه إليه وسأله:

– لماذا تنظر إليّ هكذا..

فارتبك الرجل وتمتم على عجل:

– لا شيء.. لا شيء..

لم يفهم آدم المطرود شيئا من إجابته، وبينما كان الرجل يغلق الباب مـن الخـارج بالمفتـاح أخـذ آدم المطـرود التفاحة مـن الصينية ولم يمس بقية الطعام.

لم يكن آدم المطرود يائسا لأنه كان واثقا من براءته، وأنه كان متأكدا من أن الجهات المختصة بالتحقيق ستكتشـف القاتل وتعلن براءته قريبا جدا، لكن ما كان يؤلمه هو موت حواء الصايغ، لذا ما أن قضم التفاحة حتى غرق ثانية في بحر الذكريات.

بدأت الفرقة الموسـيقية برنامجها بقطعة موسـيقية راقصة. بدأ بعض رواد المطعـم مـن الأجانـب التوجـه إلى سـاحة الرقص، كما توجه بعض الرجـال إلـى بعـض السـيدات الجالسـات إلى طاولات أخـرى لدعوتهن

إلى الرقص.

قـام المهنـدس آدم الصاحـب متجهـا نحـو امـرأة تجالس رجلا كهلا يبدو أنه أبوها داعيا إياها لمراقصته فاستأذنت الرجل الذي معها وقامت لتراقصه.

نظر آدم المطرود إلى السيدة الجميلة في اللحظة التي نظرت هي فيها إليه أيضا فالتقت نظراتهما مرة أخرى.أحس كل منهما بالحرج من الآخر لكنه أكد في الوقت نفسه اهتمام كل منهما بالآخر أيضا.

حدث نفسه بالقيام لدعوتها إلى الرقص لكنه كان متردداً، وفي اللحظة التي حسم أمره وقرر أن يدعوها قام جليسها ليدعوها إلى الرقص، فلعن نفسه لتردده وتأخره في دعوتها للرقص.

بينمـا كانـت تراقـص الرجـل الـذي معهـا نظـرت إلـى المهندس آدم المطرود مستفسرة ومعاتبة ومعتذرة في الوقت نفسه وكأنها تود أن تقول له لماذا لم يدعوها إلى الرقص.

ظل في مكانه يتابعها بعينيه، وكانت هي بين لحظة وأخرى تنظر إليه كلما استدارت وصارت في مواجهته. حين عاد صديقه آدم الصاحب إلى المائـدة بعـد أن أوصـل مراقصتـه إلـى مائدتهـا ورأى آدم المطرود وحده سأله مستغربا:

– لماذا تجلس وحيدا؟.. لماذا لم تبادر لدعوتها للرقص؟..

فأجابه مداريا خيبته:

– أنا أحب مشاهدة الآخرين وهم يرقصون، أحس بالمتعة أكثر مما لو كنت أرقص.

عادت السـيدة الجميلة الغامضة ومرافقها إلى طاولتهما، ولم تمض إلا لحظات حتى بدأت موسـيقى بطيئة وناعمة. أراد جليسـها مراقصتها ثانية لكن يبدو أنها اعتذرت. أخذا يتحدثان، ثم قام جليسـها خارجا من القاعة، متجهاً إلى الحمام.

كان آدم المطرود ينظر إليها بحب وشغف، فقال له صديقه:

– اسـمع.. السـيدة تنتظـرك لدعوتهـا للرقـص.. انهض قبـل أن يأتي مرافقها أو زوجها.

– هـل تمـزح.. إنهـا تنتظـره ولـن تقـوم معـي.. إنها عراقية وليسـت أوروبية حتى تقوم معي.

– أقول إنها تريد أن تدعوها.. لا تضع الفرصة يا رجل..

– إنني مرتبك.. أخشى أن تعتذر.. ولا أريد أن أجد نفسي في مثل هذا الموقف..

– اسـمع.. إذا لم تذهب أنت لدعوتها فسـأذهب أنا... من المؤسـف أن تُعـزف مثـل هـذه الموسـيقى وأمامك هذه السـيدة الرائعة ولا تدعوها للرقص..

– حاول أنت، وأنا متأكد من أنها سترفض.. جرب

كانـت السـيدة الجميلـة الغامضـة قـد انتبهـت بأنهما يتحدثـان عنها، لاسـيما وأنها أدركت من خلال ما تناهى إلى سـمعها بأنهما من العراق، لكنها لم تسمع كل ما قيل.

ارتسـمت خيبة الأمل على وجهها حينما رأت الصديق مقبلاً نحوها وليـس هـو. تقـدم المهنـدس آدم الصاحـب منهـا قائـلا بـأدب وباللغـة الانكليزية:

– هل تسمحين سيدتي

نظـرت السـيدة إلـى آدم المطـرود نظـرة عتـاب للحظـات ثـم قامت لتراقـص صديقـه وكأنهـا تعاقبـه علـى ذلـك، فمـا كان منـه إلا أن ينهض ويغادر القاعة نقمة وغضبا من نفسه وغضبا منها.

خـرج آدم المطـرود مـن المصعـد مجتـازاً الممـر الطويـل المفروش بالسـجاد الأحمر. أخرج البطاقة البلاسـتيكية من جيبه وأخذ ينظر لأرقام الغرف إلى أن وجد غرفته.

جلس آدم المطرود على سـريره تعبا. كان حانقا من نفسـه. اسـتلقى وهو بملابس السهرة. نظر إلى سقف الغرفة، ثم إلى المنضدة التي كانت

إلى جانب السرير من جهة الرأس فرأى جهاز الريموت كونترول فمد يده وأخذه. ضغط على أحد أزراره فبدأ التلفزيون يبث أغنية روسية. انتقل إلى محطة أخرى فكانت تبث أغنية تركية، ثم انتقل إلى قناة ثالثة فكانت تبث برنامجا بالتركية أيضا. أخذ ينتقل بين القنوات فكانت معظمها بالتركية.، ومع أنه يجيد التركية فأنه لم يرغب بمتابعة التلفزيون. ضغط على الزر الأحمر فانقطع البث. بقيَ للحظات مستلقيا. فجأة جلس. ظل في جلسته وعلامات التفكير مرتسمة على وجهه.

لم يفهم هو نفسه ما الذي يجري بداخله منذ لحظة رؤيته لهذه السيدة الجميلة الغامضة. لم يفهم لماذا غادر صالة الطعام؟ لماذا غضب كل هذا الغضب حينما قامت السيدة الجميلة لمراقصة صديقه آدم الصاحب؟ كان عليه هو أن يدعوها للرقص فلماذا لم يفعل ذلك؟ ثم لِمَ كل هذا الانفعال؟ هل وقع في حب هذه السيدة؟ مَن هي يا تُرى؟ ومَن هو هذا الرجل الذي معها؟ لقد تحدثا بالعربي وباللهجة العراقية، لكنها لا تشبه العراقيات كثيرا. ثم ما الذي يريده هو منها؟ هل يحبها؟ هل يرغب فيها ويريد أن يضاجعها؟ لا.. لم يطرأ في ذهنه ونفسه شيء من الرغبات الجنسية، انه موله فيها، مسحور برقتها وأنوثتها وشخصيتها، وحزنها الشفاف، وبرغم ذلك لم يتوصل إلى السبب الواضح الذي يشده إلى هذه السيدة.

فجأة بدا على وجهه وكأنه إتخذ قرارا. نهض بنشاط ونظر نظرة خاطفة وسريعة إلى أرجاء الغرفة.، وغادرها بعد أن ضغط على زر النور فغرقت الغرفة في الظلام.

عندما دخل آدم المطرود إلى صالة الطعام والمقصف ثانية رأى أن روادها أقل مما كانوا حينما غادرها. توجه بنظره إلى الطاولة التي كان يجلس إليها فلم يجد صديقه المهندس آدم الصاحب. نظر إلى الطاولة التي كانت السيدة تجلس إليها فلم يجدها وإنما رأى مرافقها فقط يجلس وحيدا.

توجه آدم المطرود إلى طاولته وجلس إليها. فتش بنظره في أرجاء الصالة، ثم إلى ساحة الرقص فلم يجد أثرا للسيدة، لكنه لمح صديقه

منشغلا بحديث جاد مع امرأة شقراء يبدو أنها روسية.

التفت ثانية لطاولة السيدة فرأى مرافقها وهو يهم بمغادرة الصالة، ويبدو أنه كان ينتظر شيئا لذلك تقدم منه موظف الخدمة في المطعم حاملا علبة من السجائر، وما أن استلمها ووقع على قائمة الطعام حتى قام مغادرا الصالة.

جاء موظف الخدمة إلى طاولة المهندس آدم المطرود على أثر إشارة منه، وحينما وصل إليه قال له:

– فودكا

ابتسم موظف الخدمة وغادر الطاولة بينما أحس هو بخيبة كبيرة وحزن يجتاح روحه.

حينما أنهت حواء المؤمن قراءة هذا الفصل لم تجد أية ملاحظة من زوجها عليه، لكنها أحست بالحيرة، فهذا المهندس الذي اسمه آدم المطرود ليس زوجها الدكتور آدم التائه، كما أن هذا المهندس يعرف التركية وزوجها لا يعرف التركية، ثم أنها تعرف أنه لم يسافر في حياته فكيف يكتب الآن وكأنه كان في تركيا.

أحست بالشفقة والتعاطف مع المهندس آدم المطرود المتهم بجريمة قتل حواء الصايغ.. ولكن من هي حواء الصايغ هذه؟ هل هي نفس المرأة الجميلة التي التقى بها في تركيا؟ ربما هي حواء الصايغ. هذا سيتضح في الصفحات القادمة. لتواصل القراءة وتنتهي قبل أن يصل زوجها الدكتور آدم التائه.

ترك آدم البغدادي حواء المؤمن تبدي مع نفسها ملاحظاتها، وهي ملاحظات قارئة عادية تتفاعل ببساطة مع الأحداث والشخصيات دونما أي تأويل.

(4)

سحب المهندس آدم المطرود ستائر نافذة غرفته فامتلأت بنور الصباح الذي تدفق بكرم من النافذة وكشف عن منظر رائع للبحر الذي يمتد على امتداد البصر.

تأمل البحر، ساحل البحر الرملي، طيور البحر المحلقة في السماء. كانت في أفق البحر ثمة سفينة تبدو وكأنها واقفة.

مط آدم المطرود جسده ليطرد ما تبقى فيه من نعاس وكسل ورغبة في العودة إلى السرير. فتح ذراعيه مؤديا بعض التمارين الرياضية. توجه إلى غرفة الحمام وأطبق الباب خلفه، وبعد فترة وجيزة خرج من الحمام ثم بدأ يرتدي ملابسه على عجل كي يسرع إلى قاعة الطعام عسى أن يرى سيدته هناك.

دخل إلى صالة الطعام عجلا. يبدو أنه تأخر قليلاً عن موعد الفطور، لأنه وقبل أن يجتاز الصالة مفتشا عنها واجهته السيدة مع مرافقها وهما يغادران الصالة.

ارتسمت علامات الخيبة على وجهه، إلا أن السيدة التي لاحظت خيبته ابتسمت له ابتسامة خفية لم ينتبه لها أحد غيره. بعد لحظات انتبه إلى صديقه المهندس آدم الصاحب الذي كان يلوّح له من أحد أطراف القاعة. تقدم منه ملقيا تحية الصباح، فبادره:

– ماذا.. هل سهرت ليلة أمس طويلا.

– لا، إنما لم أوقت المنبه فأخذني النوم.

– على أية حال، الفطور على المائدة. قبل قليل أعلنوا عن برنامج سياحي لطيف من قبل إدارة الفندق لجميع النزلاء وليس

للمؤتمرين فقط. ستكون تحت تصرفنا سيارتان سياحيتان لزيارة إحدى القلاع الشهيرة القريبة. أنا أنهيت فطوري. سأنتظرك في اللوبي..

قال المهندس آدم الصاحب ذلك وغادر القاعة أما آدم المطرود فتوجه إلى موضع الفواكه والأغذية التي بدأ عمال المطعم يجمعونها شيئا فشيئا. ملأ لنفسه قدحا من عصير البرتقال، ووضع في صحن صغير بعض القطع من الجبن والزيتون وقطعة من الخبز الأسمر، وكان حينها يفكر إن كانت السيدة ستذهب معهم في الرحلة أم لا.

في الساحة العريضة لوقوف السيارات السياحية بالقرب من الفندق كانت هناك سيارتان سياحيتان إحداهما قد امتلأت بالركاب ومستعدة للحركة، أما السيارة الأخرى فلاتزال أبوابها مفتوحة تستقبل بقية الراغبين بزيارة القلعة.

حين وصل المهندس آدم المطرود إلى الساحة ونظر للسيارة الأولى رأى وجه السيدة الجميلة من جانب أحد النوافذ، وفي اللحظة التي نظرت هي إلى جهته بدأت السيارة بالتحرك. لم يجد أمامه سوى أن يتجه إلى السيارة الثانية التي كما يبدو ستتأخر عن الأولى التي توجهت إلى طريق القلعة. شعر بالغيظ حينما صعد وكانت السيارة الثانية شبه فارغة.

بعد نصف ساعة تحركت السيارة الثانية، وحينما وصلوا إلى مكان القلعة التي بُنيت على مرتفع بدأوا بالصعود إليها. ما أن وصلوا إلى هناك حتى التقوا بركاب السيارة الأولى وهم ينزلون. لم تكن السيدة ومرافقها بينهم، فمنّى النفس بلقائها في القلعة. هناك فتش عنها ولم يجدها.

عند فترة الغذاء دخل القاعة وعلى وجهه ترتسم علامات اللهفة. كانت صالة الطعام مزدحمة برواد الفندق. وجد طاولة فارغة فجلس إليها. كان صديقه قد جلس إلى طاولة صديقته الشقراء. فتش بنظره في أرجاء القاعة عن السيدة ومرافقها فلم يجدهما. تناول طعامه بدون شهية ثم قام وأتى بصحن وضع فيه فواكه، لا لأنه يريد ذلك وإنما ليجد حجة

لبقائه في المطعم، ثم طلب شايا.

مر الوقت ولم تظهر السيدة. صار البقاء في المطعم محرجا بالنسبة له إذ لم يترك أية فقرة في القائمة لم يطلبها لذا قرر مغادرة المطعم فقام خارجا. عندما صار خارجا أحس بالصدمة إذ أنها جاءت مع مرافقها وكانت قد غيرت ملابسها وتزينت.

أحس آدم المطرود بالحنق من نفسه ومن تصرفاته التي لا يحصد منها سوى الخيبة، وأخذ يلوم نفسه. لماذا لم ينتظر لدقائق أخرى؟ الآن صارت عودته إلى المطعم محرجة. أحس بالغضب تجاهها أيضا فلماذا لم تأت قبل فترة؟ ما واساه في تلك اللحظات أنه لاحظ ظلالاً من الخيبة ارتسمت على وجهها أيضا وكأنها استاءت من خروجه.

جلس في بهو الفندق مؤملا النفس أن تأتي السيدة إلى البهو بعد وجبة الغداء، وبينما هو جالس جاء صديقه المهندس آدم الصاحب فرحا ومشرقا وقال بحيوية:

– الساعة الخامسة ستكون هناك رحلة بحرية عامة أيضا. هل ستأتي؟ ستكون رحلة ممتعة. سأذهب مع ايفا صديقتي الروسية

– سأذهب بلا شك

لا يدري لماذا لم يود مواصلة الحديث مع صديقه، فقال له بأنه يود أن يأخذ القيلولة لنصف ساعة على الأقل، ثم قام متوجها إلى غرفته. لم ينتبه المهندس آدم الصاحب إلى حالته، ولم ينتبه بأنه لا يود مواصلة الحديث معه، لأنه هو أيضا كان يريد أن يسرع إلى ايفا الروسية.

عند العصر وفي الساعة الخامسة تقريبا وبالقرب من الشاطئ الرملي الذي يمتد بين الفندق والبحر كان المركب السياحي منتظراً السائحين من رواد الفندق. كان رواد الفندق يتوافدون على المركب ويأخذون أماكنهم المرصوفة على سطحه. بعضهم كان لا يجلس وإنما يظل واقفاً مطلا على البحر متكئاً على سياج المركب.

جاء المهندس آدم الصاحب محتضنا صديقته ايفا وطلب منه الصعود

معهم فلم يكن أمامه سوى أن يصعد إلى سطح المركب. فجأة لمح السيدة الجميلة ومرافقها وهما قادمان ليصعدا المركب فغمرته فرحة عارمة.

فكر المهندس آدم المطرود أنها فرصة ذهبية للتعرف إليهما، لكن عليه أن يتعرف على مرافقها أولا، لاسيما وهما عراقيان مثله. لا يدري إن كان مرافقها هو زوجها أو صديقها أو مديرها. لمحهما على جانب من سطح المركب. لكن ها هو مرافقها يتركها وحدها ويتجه إلى إحدى الجهات حيث كان واضحا بأن هناك بوفيه لبيع الحلوى والقهوة والشاي والفطائر. انتبه المهندس آدم الصاحب للأمر فقال له هامسا:

– تحرك.. إنها وحدها. هذه فرصة لن تتكرر. الأمر لا يثير أي شك أو انتباه

فكر آدم المطرود لحظة. هم بالتوجه إليها لكنه فجأة توجه نحو مرافقها الذي أخذ مكانه في طابور الذين يودون شراء شيئا من البوفيه فوقف خلفه مباشرة. حينما جاء دور مرافق السيدة فأنه تحدث بلغة انكليزية سليمة طالبا كوبين من القهوة. لم يفهم الشاب التركي ماذا يريد بالضبط فاستغل آدم المطرود هذا الموقف فتدخل شارحا له بالتركية ما يريده. ابتسم التركي وقدم له كوبين من القهوة، فابتسم مرافق السيدة له وشكره بالانكليزية معاتبا بأن معظم العاملين في قطاع السياحة في تركيا لا يتكلمون الانكليزية بشكل جيد. فجأة لمعت فكرة ذهبية في ذهن المهندس آدم المطرود فسأله بالانكليزية:

– من أين حضرتكم

– من العراق

صرخ المهندس آدم المطرود مبتهجا وكأن الأمر مصادفة وقال بالعربية وباللهجة العراقية:

– وأنا من العراق، من أي مدينة حضرتك

– من بغداد

– يا للمصادفة، أنا أيضا من بغداد

ومد يده مصافحا ومقدما نفسه إليه:

– أنا المهندس آدم المطرود

– وأنا رجل الأعمال آدم الولهان

– تشرفنا

– لي الشرف

أخذ آدم المطرود كأسا من عصير البرتقال دافعا للتركي ثمن القهوة والعصير، غير أن آدم الولهان لم يقبل ذلك فأصر آدم المطرود بأن ذلك عربون الصداقة، وانسحبا من الطابور، فما كان من آدم الولهان إلا أن يقترح عليه بأن ينظم إليهما، وقاده إلى حيث تقف المرأة الغامضة، التي فوجئت بقدومهما معا، وما أن وصلا إليهما حتى قدمه لها قائلا بمرح:

– اسمحي لي أن أقدم المهندس آدم المطرود..

– أهلا وسهلا

– زوجتي حواء الصايغ

– تشرفنا

وتصافحا. لم يصدق آدم المطرود أنه قربها ويكلمها بل ويصافحها. أحس بالحرج. فأراد زوجها أن يخلق جوا أليفا فقال:

– المهندس آدم المطرود يتحدث التركية، وكذلك الانكليزية طبعا..

ارتسمت ملامح الدهشة المحببة على وجهها وكأنها تبحث عن تفسير لذلك، فانتبه آدم المطرود لذلك فقال موضحا:

– القصة وما فيها أنني درست الهندسة في اسطنبول، وأعمل في بغداد طبعا، علما أني عملت صحافيا لسنوات عديدة..

– يعني أنت كاتب صحافي

– كنت.. صحافياً.. ومترجماً أحيانا

– والآن..

– تركت الصحافة والترجمة منذ سنوات، لكني لم أترك الكتابة..

– كيف ذلك.. ماذا تقصد

كان آدم الولهان ينظر بسعادة إلى هذا الحوار بين زوجته والمهندس آدم المطرود، فكثيرا ما كان لا يجد ما يتحدث فيه معها كي يثير اهتمامها، وها هي تثار وتسري الحيوية في نفسها، كما أن حضور هذا المهندس في هذه الرحلة سيكسر روتين الحوار بينهما. استمر آدم المطرود يشرح لها:

– أقصد إنني على الرغم من أن مهنتي الهندسة المدنية إلا أني كاتب. ولست صحافيا

– كاتب. تقصد أديب. تؤلف الكتب

قالت ذلك بانبهار وفرح. فأجاب منتشيا بالسعادة:

– نعم. لقد نشرت رواية واحدة، وحاليا أخطط لكتابة رواية أخرى

– لديك رواية منشورة؟ ما أسمها؟

– أوه.. رواية يتيمة بعنوان (البرزخ) أو (الأقنعة الزجاجية)

– مع أني أعتبر نفسي قارئة جيدة ومتابعة للنشاط الأدبي والثقافي بشكل عام لكني مع الأسف لم أطلع عليها

فقال بمرارة:

– لقد نُشرت على نطاق ضيق. ظلت في الرقابة لأكثر من عام، ولما نُشرت عنها بضع المقالات والأخبار في الصحافة الثقافية اللبنانية والمصرية تم الإفراج عنها.

– ماذا؟.. ظلت في الرقابة لأكثر من عام؟.. ما هو السبب؟

كان زوجها آدم الولهان مستمتعا بالنقاش بينهما بل لقد أيقظا في نفسه الفضول لمعرفة سبب عدم السماح للرواية بالوصول إلى القارئ العراقي، لذا دعاهما للانتقال إلى طاولة قريبة، فاتجهوا إليها وجلسوا حولها، فقال المهندس آدم المطرود:

– لا أدري ماذا أقول. لقد تم منعها بحجة أنها إباحية أو أنها تثير موضوعا حساسا يخل بالآداب والتقاليد.

انتظرت السيدة حواء الصايغ أن يوضح أكثر. لقد أحست بانجذاب

شديد نحوه. انتبهت لإحساسها هذا منذ أول لقاء بينهما في المصعد. الآن تجد أن لهما اهتمامات مشتركة، لذا توجهت إليه بكل حواسها، وقالت له:

– أفصح أكثر. لا تخف لسنا من أهل القمة كما يقال. تستطيع أن تتحدث معنا بحرية. زوجي آدم رجل أعمال متفتح، وقد زار بلدان عديدة وتعرف على شعوب كثيرة، ولديه أفكار متحررة، فيمكنك أن تأخذ راحتك معنا..

أحس المهندس آدم المطرود وكأن حملا ثقيلا انزاح عن كاهله، فقال بهدوء:

– روايتي تتحدث عن ازدواجية المثقف الشرقي، فهو متحرر مع الآخرين لكنه رجعي ومتردد مع نفسه أو مع أهله. تراه يدعو لحرية المرأة لكنه يحجب هذه الحرية وينظر إليها بريبة وشك حينما يجب منحها لأخته أو زوجته أو ابنته.

ساد الصمتُ عليهم للحظات وكأنه مسَ شيئا خطيرا أو اقتربَ من منطقة محرمة، وحينما استمر الصمت أكثر، سألته:

– عن أي شيء تتحدث الرواية؟

– كنت أتحدث عن إحدى الإشكالات الاجتماعية، عن البكارة عند المرأة، أقصد غشاء البكارة ومفهوم الشرف، والمسافة بين القول والفعل.

– مع الأسف لم أقرأ هذه الرواية، فكما يبدو أن موضوعها حساس جدا، لكن لماذا تحمل عنوانين. أذكر أنك ذكرت البرزخ أو الأقنعة الزجاجية

سأل آدم الولهان وكأنه يريد المشاركة أيضا في النقاش، ليؤكد لهما أنه أيضا موجود وأنه مثقف ولديه اهتمام بالأدب أيضا وليس بالمال فقط:

– ولماذا جعلت الأقنعة زجاجية؟

– لأنها حينما تسقط أو تنكسر فأنها ستجرح

ابتسمت السيدة حواء الصايغ من طريقة إجابته التي لم يستطع زوجها التعليق عليها، لكنه قال بمرح مصطنع، لكنه مكشوف:

– هذا كلام صحيح..

فقالت السيدة حواء الصايغ وكأنها تريد أن تعرفه أكثر:

– سيد آدم. من هو كاتبك المفضل؟

– أوه... لديّ عدد من الكتّاب المفضلين.

– مثلا.

– كافكا، ميلان كونديرا، يشار كمال، هنري ميلر، موباسان، أميل زولا، نجيب محفوظ، عبد الرحمن منيف، محمد ديب، الطاهر وطار..

– هذه سلسلة من الكتاب، ولو سألتك من هو الأقرب بين هؤلاء؟

– صدقيني لا أدري.. كلهم قريبون

سادت الصمت للحظات. لقد توغلت إلى مساحات كبيرة في نفسه لذا أراد أن يقوم بالخطوة المماثلة، فسألها:

– وأنت.. أي الكتاب مقرب إليك أو المفضل لديك؟

– أنا أختلف عنك. أنا قارئة بينما أنت كاتب.

– ومع ذلك من هو كاتبك المفضل أيتها القارئة؟

ابتسمت بعذوبة فسحرته ابتسامتها وشعر بنشوة روحية كبيرة. نظرت إليه وقالت:

– كقارئة لدي ربما عدد من الكتاب ربما أكثر منك. لكني أحيانا لا أفضل مؤلفات الكاتب الكاملة. فأحيانا أحب عملا واحدا للكاتب أو عملين وليس جميع أعماله، وأحيانا أحب فصلا في رواية أو قصيدة محددة في مجموعة شعرية، بل وبيتا معينا في قصيدة.

– مثلا..

– مثلا أحب رواية آنا كارنينا لليف تولستوي، ورواية مدام بوفاري لفلوبير. ومن العرب أحب معظم روايات حنا مينه، الطاهر وطار،

وهاني الراهب

- وأنت سيد آدم. أي الكتاب تفضل
- أنا.. أنا.. أنا أفضل الشاعر نزار قباني. لكني أحب الفن التشكيلي أكثر. أحب أن ازور المتاحف حينما أكون في أي بلد أجنبي..
- رائع جدا...
- لكن قل لي سيد آدم.. هل لديك اهتمام بالفن التشكيلي؟..
- لحد ما.. لكن ليس كمتخصص، وأنت؟
- أنا لستُ متخصصا في الفن التشكيلي لكن يمكن أن تقول أتذوقه. أحب اللوحات الغربية ذات الموضوعات الشرقية. أحب الفنان الفرنسي ديلاكروا وأحب أعمال روبنس.
- أنا أحب رينوار.

فجأة انتبه المهندس آدم المطرود إلى نفسه، وكأنما ستارة سوداء انزاحت عن مشهد في لاوعيه. لقد اكتشف سر تعلقه بالسيدة حواء المجهول من أول نظرة له. إنها تشبه (لورا انتونيللي)، الممثلة السينمائية الايطالية التي شاهدها في فيلم (الغريب) لفيسكونتي. المرأة الشهية والمثيرة والفياضة بالأنوثة والحالمة والتي تفيض طهرانية وقداسة لكنها أيضا شهية وفياضة بالرغبة، وهنا التفت إلى السيدة حواء الصايغ وسألها:

- هل تحبين السينما؟
- نعم، ولكني أميل للأفلام الرومانسية
- هل شاهدت شيئا من أفلام المخرج الايطالي فيسكونتي
- لا أركز على أسماء المخرجين، لكن لماذا تسأل؟
- لاشيء.. هل شاهدت لوحة (اللوج) للرسام الفرنسي رينوار
- لقد تصفحت ألبوم أعماله، لكني لم أركز على هذه اللوحة وإنما على سلسلة النساء العاريات. من المؤكد أنني شاهدتها لكني لم أتوقف عندها بشكل خاص. لماذا تشير إلى هذه اللوحة بالذات؟.
- أنا أحب أحد الفنانين الروس واسمه سوريكوف. علق آدم الولهان

مقاطعا

– يبدو أنك ملّم بالفن جيدا يا سيد آدم. شخصيا يمكنني أن أقول عن نفسي بأني أحب جميع الفنانين وجميع المدارس الفنية والتيارات الأدبية. أحب جميع الألوان، حتى أشدها تناقضا. عمري خمسة وثلاثون عاما. مؤمن بالله الواحد الأحد، لكني لستُ على وفاق مع الأديان. ثم ماذا بعد.. ها.. ليس لدي أي ضمان على الحياة، سوى ضمان سيارتي.

ضحكوا جميعا من تقديمه لنفسه بهذه الطريقة. نظرت حواء الصايغ إليه نظرة متعاطفة يغمرها الحنان، إذ أحست بأنه قريب منها وأنها قريبة منه، لكنها برغم ذلك قالت له:

– إن لديك طريقة غريبة في الكلام. لقد قلت كل شيء عن نفسك تقريبا، لكنك أيضا لم تقل شيئا قط..

– وأنا أتفق معها. فمثلا أنت لم تقل لنا هل أنت متزوج أم لا..

– ما هذا يا آدم، هذه أشياء شخصية..

– أعتذر..

– لا داع للاعتذار. لستُ متزوجا، كما..

وقبل أن يبدأ يسترسل بالكلام تقدم صديقه المهندس آدم الصاحب الذي أندهش من طريقة التعارف التي تمت بين آدم المطرود وساحرته الجميلة، لاسيما وهو كان يراقبهم من بعيد وشعر بأن العلاقة قد تأسست بين صديقه المهندس آدم المطرود والمرأة التي سحرته، وحينما سمع أنهم يتحدثون بالعربية وباللهجة العراقية، قال:

– إنها رائحة بغداد التي جذبتني. يا إلهي.. كم هي طيبة ورائعة رائحة العراق..

لم تكن مفاجأة لهما لأنهما شاهداهما معا لمرات عدة في المطعم كما أنه راقص السيدة حواء الصايغ قبل ذلك. قام المهندس آدم المطرود بتقديمه لهما.

– صديقي المهندس آدم الصاحب. السيد آدم الولهان وزوجته السيدة حواء الصايغ

– أهلا وسهلا..

في هذه الأثناء التحقت ايفا الروسية بصديقها آدم الصاحب الذي قدمها لهم بالانكليزية، فرحبوا فيها من باب المجاملة، ولكن كما يبدو أن حواء الصايغ استاءت من حضورها، لذا قالت لزوجها، وكأنما تريد إنهاء الموقف:

– لقد بدأت الشمس تميل للغروب، إنها ستذهب للنوم في أعماق البحر..

– يا له من تعبير شاعري. علق المهندس آدم المطرود

– إنها تكتب الشعر والخواطر أحيانا.. قال السيد آدم الولهان

– هذا شيء رائع، وتقولين إنك قارئة فقط؟ اتضح أنك كاتبة وشاعرة أيضا، يمكننا سماع أي شيء مما كتاباتك..

– لا. لا. لا أحفظ أي شيء مما أكتب

– هيا.. هيا.. لنسمع ما كتبته ليلة أمس..

– نبيل لا تحرجني. لا أحفظ شيئا مما كتبته. إنها خاطرة. من الصعب أن تسميها شعرا

– لي الشرف بأن أسمع شيئا مما تكتبين

– صدقني لا أحفظ شيئا، لكني أعدك بأني سأقرأ شيئا مما كتبته في ما بعد..

انتبه المهندس آدم الصاحب إلى أن وجود إيفا الروسية قطع سلاسة وتلقائية الجلسة، فأخذها من خصرها قائلا للجميع:

– اسمحوا لنا. سأراكم فيما بعد. تشرفت بمعرفتكم

– أهلا وسهلا لنا الشرف

قال السيد آدم الولهان باحترام شديد ذلك، وبدا الارتياح على وجه، ثم التفت إلى المهندس آدم المطرود وقال ضاحكا:

- يبدو أن صديقك يبلي بلاءً حسنا، هل لديكم مؤتمر هنا..
- نعـم.. لقـد دعتنـا إحدى الجامعات التركيـة بالاتفاق مع جامعات فرنسية وألمانية إلى هذا المؤتمر.

فسألته حواء الصايغ مستفهمة ومستغربة هذا الانتقال من الأدب إلى الهندسة والمعمار:

- وعن أي شيء يتحدث مؤتمركم
- عن تيار (الهاي - تيك) في عمارة ما بعد الحداثة

فسأل السيد آدم الولهان باهتمام وفضول حقيقي:

- وما هو تيار (الهاي - تيك) هذا؟
- (الهـاي - تيـك) اختصـار لمصطلـح (التقنيـة المتقدمـة - هـاي تكنولوجي) وهو من أكثر التيارات انتشارا في فن العمارة المعاصر والذي يكاد يمثل قطيعة معرفية مع بقية أشكال العمارة والتصميم المعمـاري المعـروف سـابقاً. وقد برز هذا التيار في السـبعينات، ويعتبـر مبنـى مركـز جـورج بومبيـدو للفنـون المطل على سـاحة بوبـور فـي باريس والذي شُـيد ما بيـن الأعوام 1977-1971 أبرز علامة أو رمز يمثل هذا التيار الذي يسـتخدم جماليات التراكيب المعدنية مع الألواح الزجاجية.

كان السيد آدم الولهان وزوجته حواء الصايغ يستمعان بانتباه واستمتاع للمهندس آدم المطرود وهو يشـرح لهم عن تيار التقنية المتقدمة في فن العمارة. فجأة سألته حواء الصايغ سؤالاً محرجا:

- هـذا التيـار كمـا فهمـت يمثل توجهات ما بعد الحداثة ويلقي بكل الجماليـات السـابقة جانبـا، لكن ومن خـلال حديثك عن الأدب بـل وحتـى الفن التشـكيلي فأنك تميل للتعبيريين والكلاسـيكيين وجمالياتهم الأدبية والفنية، فهل أنت من أنصار هذا التيار؟

فكر المهندس آدم المطرود للحظات في هذا السؤال وأجرى وخلال لحظات مراجعة داخلية مع نفسـه ثم نظر إلى أعمق أعماق عينيها وكأنه

يتوغل في أعماقها، وقال:

– معرفتي لهذا التيار وتقبلي له كخطوة في مجال فن العمارة لا يعني أبـدا أننـي مـن أنصاره، ففن العمارة فـن الحيز والمكان والزمان، لكني شخصيا أميل للروح الشرقية لأني أحس أحيانا بالاغتراب مـع تيـارات العمـارة الحديثـة التـي تعتمـد على تصميـم الفضاء وتشكيل الهيئات المعمارية غير العادية التي يحتاج المرء لإدراكها على التفسير الذاتي والتأويل الشخصي لكل التصميم المعماري المقـدم. إننـي مـع تيار الحداثة في فـن العمارة وليس مع تيارات ما بعد الحداثة التي أجدها بعيدة عن الروح الشرقي.

– هل تستفيد من فن العمارة في بناء رواياتك؟

ابتسم المهندس آدم المطرود قائلا:

– شـخصيا لـم أنتبـه إلـى هـذا الأمـر. ربما فـي اللاوعـي، كما أنك تتحدثين عن روايات وأنا لم أكتب سوى رواية واحدة لم يحالفها الحظ بالانتشار

– يمكنك إعادة طباعتها وتوزيعها ثانية

– إننـي مشـغول بالتخطيـط لروايـة جديـدة، بـل لقـد كتبـت بعـض فصولها..

– وعن أي شيء تتحدث روايتك الجديدة؟

– عن الحياة، عن أحد الأزقة وأهله وشـخصياته وفي حقبة سياسـية عصيبة من تاريخ العراق، وبالتحديد في بداية السبعينات..

– يعنـي مـع بدايـة نشـوء تيـار (الهـاي – تيـك) وبدايـة إنشـاء مركز بومبيدو للفنون

فضحك المهندس آدم المطرود عاليا، وقال:

– لـم أكـن أعـرف أن لديـك ذاكـرة بلوريـة بهذا الشـكل، وكل هذه القدرة على الربط والسـخرية، عموما، لقد اسـتخدمت الأسـلوب الكلاسيكي التقليدي في السرد..

– هل لي أن أتشرف بقراءتها؟..
– لي الشرف في أن تكوني أول قارئة لها، لكنها لم تكتمل بعد..
– على العكس سيسرني متابعة تشكيلها فالعمل الإبداعي ينمو مثل الجنين، وجميل أن أرى وأتتبع تشكل عملك الروائي هذا..

كان الظلام قد خيم على البحر والأمواج بدأت تتلاطم بشكل خفيف تمهيدا لحركة المد. كانت أضواء المركب ترقص على صفحات الموج الخفيف الذي تحدثه حركة المركب، وكان الساحل بعيدا وأضواء الفنادق تبدو مثل نجوم على الأفق. كانت تلك الأمسية بداية لحياة جديدة لكل من حواء الصايغ وآدم المطرود، حياة وسط ظلام البحر وتلاطم الأمواج.

أحست حواء المؤمن بالملل من هذا الفصل الذي كان فيه الكثير من النقاشات عن الأدب وفن العمارة، لكنها أخيرا عرفت بأن هذه المرأة هي حواء الصايغ.

مرة أخرى فكرت بأن زوجها الدكتور آدم التائه هو أستاذ جامعي وليس مهندسا، يعني أن القصة ليست قصته، وإنما هو يحكي قصة إنسان آخر، لكن لماذا أسماه آدم المطرود. فكرت في أن تواصل القراءة فربما ستعرف نهاية هذه القصة..

لم يدون آدم البغدادي ملاحظة وإنما اكتفى بملاحظات حواء المؤمن. ربما فعلا هناك الكثير من النقاشات الثقافية، لكنه شخصيا يميل إلى هذا الأسلوب في الرواية. إنها الرواية المعرفية التي لا تعتمد على قصة الأحداث وإنما على ذلك التراكم المعرفي الذي يمنح القارئ ليس المتعة الأدبية فحسب وإنما المتعة الفكرية كذلك.

(5)

كان المهندس آدم المطرود يمشي مقيد اليدين وسط حراسة مشددة تتألف من شرطيين وأمامهم يمشي شرطي وخلفهم شرطي. توقف الجميع أمام باب عريض. دخل الشرطي الذي كان يتقدم المجموعة أولا ثم خرج ليفتح الباب لهم كي يدخلوا.

كانت الغرفة واسعة وعريضة، وكان في وسطها طاولة كبيرة جلس حولها أربعة محققين. كان المحقق آدم التكريتي بينهم. أجلس رجال الشرطة المهندس آدم المطرود على كرسي أمامهم وفكوا قيوده وخرجوا ولم يبق منهم سوى شرطي واحد وقف منتصب قرب الباب الخارجي.

دخل رجل يحمل صينية فيها أربعة أكواب مليئة بالقهوة. وضعها أمامهم ثم غادر المكان، بينما أخذ المهندس آدم المطرود يفرك ساعديه ويحركهما.

الرجال الأربعة كانوا ينظرون بلا مبالاة إلى المهندس آدم المطرود. فُتح الباب ودخل رجل نحيل يضع على عينيه نظارة طبية حاملا آلة كاتبة. نظر للحظة بعينية ثم توجه إلى زاوية حيث هناك منضدة وكرسي فوضع الآلة الكاتبة هناك ومد سلكها ليدخل الموصل في القابس الكهربائي عند حافة الجدار الأرضية ثم جلس على الكرسي، منتظرا بدء التحقيق.

فجأة قام أحد الجالسين الذي يبدو أنه الأكبر منصبا ببينهم وأخذ يتجول في أرجاء الغرفة على مهل، ثم جلس على كرسيه ثانية وتوجه إلى المهندس آدم المطرود بلهجة ودية حقيقية ودونما اصطناع:

– نحن آسفون جدا سيد آدم، فلقد اضطررنا أن نمنع عنك المقابلات. لقد عاد السيد آدم الولهان من سفره خارج العراق أمس وأراد أن

يقابلك. تستطيع أن تفهم لماذا لم نسمح له بذلك. إننا نأسف لذلك. كما جاء صديقك المهندس آدم الصاحب أيضا.

نظر المتحدث إلى بقية الجالسين نظرة عابرة وكأنه يستشيرهما عن جدوى هذا المدخل للتحقيق، لكن المهندس آدم قاطعه قائلا بهدوء:

– أيها السادة، لا أستطيع أن أرى مبررا لمنع الزيارات أو المقابلات عني في هذه المرحلة من التحقيق على الأقل. لقد كنت أود مقابلة السيد آدم الولهان فلماذا منعتموه. كما أود أن يزورني صديقي المهندس آدم الصاحب عسى أن يفاتح أحد المحامين ليوكله لمتابعة وضعي.

– لكن السيد آدم الولهان هو زوج القتيلة حواء الصايغ يا سيد آدم، وقد كان في حالة نفسية سيئة، وقد ارتبنا من هذا اللقاء وما ينتج عنه. إنه إجراء احترازي لسلامتك قبل كل شيء.

– هل يشك السيد آدم الولهان فيّ؟ ثم ماذا عن صديقي المهندس آدم الصاحب؟ لماذا لم تسمحوا له أيضا؟

– لقد اقتضى استكمال التحقيق مثل هذا الإجراء.

ثم نظر المتحدث إلى بقية المحققين وسألهم:

– هل نبدأ؟

نظر المحقق آدم التكريتي نحو آدم المطرود وهز رأسه بالموافقة. نظر الإثنان الآخران نحوه أيضا وأشارا برأسيهما بالموافقة. التفت المحقق الرئيس إلى المهندس آدم المطرود وسأله:

– ما هي علاقتك بالسيدة حواء الصايغ؟ كيف تعرفت عليها؟

– إنها وزوجها الأستاذ آدم الولهان من أقرب أصدقائي. لقد تعرفت عليها وعلى زوجها صدفة في إحدى سفراتي إلى تركيا لحضور مؤتمر علمي أقيم في إحدى المدن الساحلية، ثم تعمقت علاقتنا أكثر حينما رجعنا إلى بغداد، وكنت أزورهم باستمرار وأحيانا كنا نذهب معاً للعشاء في أحد المطاعم.

تبادل المحققون النظرات. أخرج أحدهم علبة للسجائر ووضعها على الطاولة وسأل:

– هل هذه العلبة تخصك؟

– لقد أخبرتكم أنا لا أدخن

فسأله المحقق الرئيس مقاطعا:

– هل كنت تزور السيدة حواء الصايغ ذلك اليوم في الساعة العاشرة صباحا؟

ارتبك المهندس آدم وقال بتردد:

– كنتُ أحاول زيارتها لكنني لم أجدها.

فقاطعه المحقق آدم التكريتي قائلا:

– لقد قلت سابقاً أنك كنت في الطريق إلى العمل

– كنت أقصد الفترة التي سبقت زيارتي للسيدة حواء الصايغ

فسأله أحد الجالسين بهدوء:

– ولماذا أردت زيارة الضحية؟

تألم آدم المطرود من تسمية حواء بالضحية، فقال بألم:

– إنها زيارة ودية عادية، فقد كنتُ أزورهم بمناسبة وبدون مناسبة.

فسأله المحقق الذي لم يتحدث لحد الآن:

– هل كنتَ تعرف أن زوجها السيد آدم الولهان غائب وأنه خارج العراق في سفرة عمل؟

– نعم

– إذن كيف سمحت لنفسك بزيارتها؟ هل علاقتكم من العمق والقوة بحيث يمكنك القيام بذلك؟ وهل يعرف زوجها بأنك تزور زوجته بغيابه؟ كيف هو وضعك المادي؟

استغرب آدم المطرود هذا السؤال، وأحس أن الأمور تتخذ مجرىً آخر، فأجاب:

– ماذا تقصد؟ إن علاقتنا قوية جدا، وكنت أزورهم حينما يكون

السيد آدم الولهان غائبا أحيانا ثم يلتحق بنا، بل كثيرا ما كان يطلب مني الذهاب إليهم لمجالسة السيدة زوجته لأنها ترتاح للحوار معي، لاسيما إذا ما أراد التأخر في العمل بالمكتب؟ ثم ما علاقة وضعي المادي بالتحقيق في موت السيدة حواء الصايغ؟ (صمت لحظة) على أية حال أن وضعي لا بأس. صحيح أني لا أستطيع الدخول في مقاولات كبيرة، لكن وضعي المادي جيد.

فجأة أحس آدم المطرود بغشاوة من الظلام تكبس على عينيه وعقله، وأحس بأن قلبه قد توقف عن النبض، وأنه ينهار في لجة عميقة سوداء، سوداء، وأن هناك من يسحبه إلى المجهول.

حين أفاق وجد نفسه في زنزانته. لم يتذكر كيف انتهى التحقيق. أحس أنه في مكان آخر، ولم يكن يحس بجسده. كانت روحه تقاوم من خلال الذكريات.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلا حينما رن جرس التليفون في غرفته فرفعه بمرح ظنا منه أن المتصل هو صديقه المهندس آدم الصاحب كي يروي له شيئا من مغامراته مع ايفا الروسية، لكنه فوجئ بصوت آخر:

– تحياتي أستاذ آدم.. أنا آدم الولهان..
– أهلا أستاذ آدم. أرجو أنني لم أضايقكم بالحديث عن الأدب والفن والهندسة، إذ لم أترك لكم الوقت لتكونوا لأنفسكم فقد شغلتكم بالحديث ولم أترككم لأنفسكم.
– أبدا يا سيدي. حواء منذ أن رجعنا قبل ساعة وهي تحثني على الاتصال بك، فلقد جهزت بعض نصوصها الشعرية وتريدك أن تقرأها الليلة
– يشرفني ذلك. كيف سأستلمها؟..
– لحظة من فضلك. إنها تريد أن تقرأها بنفسها، وتدعوك إذا لم

يضايقـك ذلـك للنـزول إلـى اللوبـي. هـل لديك الوقـت أم أنت متعب؟ إذا كان الأمر كذلك نؤجله إلى الغد..

لم يصدق المهندس آدم المطرود ما سمعه، هل سيراها ثانية؟ ويتأملها وهي تقرأها نصوصها، فقال بلهفة وبنشاط:

– سأنزل حالاً..أو لنقل بعد عشر دقائق. اتفقنا

– اتفقنا

حينما وضع آدم المطرود سماعة الهاتف لم يصدق نفسه. دخل إلى الحمام بسـرعة ومشـط شـعره ورش شـيئا من العطر على وجهه وجوانبه وصدره وخرج مسرعا حتى أنه لم يُطفئ الضوء في الغرفة.

حينمـا وصـل صالـة الاسـتقبال فـي الفنـدق لم يجدهـا، إذ لم تمض الدقائـق العشـر التـي قـال إنـه سـينزل خلالها. ولـم يكن هنـاك الكثير من الـزوار فـي الصالـة. ثمـة رجل وامرأة في إحدى زوايا الصالة يتهامسـان، وموظفو الاستقبال قرب الباب الزجاجية الكبيرة.

فتش عن زاوية مريحة بعيدة عن الأنظار. جلس هناك منتظرا. سمع بـاب المصعـد يُفتـح. فجـأة رآهـا قادمة وقد غيرت الملابـس التي كانت تلبسها عصر هذا اليوم على سطح المركب البحري وتحمل بيدها ملفا، كما أن زوجها السيد آدم الولهان قد غير ملابسه أيضا.

وقف في اسـتقبالهما مرحبا داعيا إياهما للجلوس، ثم أشـار للنادل في زاوية البهو كي يأتيهم. ما أن جلسـا حتى كان النادل قربهم، فسـألهم عما يشتهون شربه. طلب زوجها كأسا من الويسكي بينما طلبت هي كأسا من عصير الجزر، أما هو فطلب قهوة اكسبريس.

اعتذر السيد آدم الولهان قائلا:

– نحن نعتذر، لقد أقلقناك في هذه الساعة من الليل.

ونظر لزوجته بحنان وواصل الحديث:

– لكنها أصرت، وأنا شخصيا ضعيف أمامها، لا أستطيع أن أرفض لها طلبا، لذا اتصلت بك.

– لا تعتذر فأنا شخصيا كنت في شوق لقراءة نصوصها، وها هي تريد أن تقرأها بنفسها فيا للسعادة.

أحست السيدة حواء الصايغ بسعادة غامرة تسري في أنحاء روحها وجسدها، وخلال ثوان سألت نفسها: هل هي سعيدة لرؤيته مجددا أم أنها حقا ترد أن تسمعه ما كتبت؟ ولكون حواء الصايغ تتحقق دائما من أفكارها ومشاعرها في أعماقها فقد أجابت على هذا السؤال في أعماقها: إنها تريد رؤيته، وهي متأكدة من نفسها ومن مشاعرها.

جاء النادل بما طلبوا من مشروبات ووضعها على الطاولة وذهب. هي تعرف أنه بانتظار أن تسمعه نصوصها فهذا هو السبب الظاهر الذي على الأقل اجتمعوا من أجله. فتحت الملف الذي أمامها وأخذت بعض الأوراق التي أمامها. صمتت لحظة. كانوا ينتظرون أن تقرأ. أخذ زوجها رشفة من الويسكي بينما ظل المهندس صامتا ومتأملاً ومنتظرا عما سيكشف عالمها وأحلامها وطريقة رؤيتها للعالم، كانت هي مرتبكة، فقالت والكلمات تكاد تختنق في حنجرتها:

– أحس بالارتباك..

علق المهندس آدم المطرود بتعاطف وحنان:

– لا ترتبكي. دائما نرتبك حينما نقرأ نصوصنا أمام الآخرين الذين لا نضمن ردود أفعالهم إزاء ما نقرأه لهم.

– شكرا لتشجيعك.. سأقرأ..

أخذت إحدى الأوراق وقرأت بصوت هادئ وحزين، كان في البداية مرتعشا لكنه صار فيما بعد واثقا:

– أيام...

يوم يسلمني لآخر

ومدينة تسلمني لمدينة

زقاق يسلمني لزقاق

ودهليز يسلمني لدهليز

كابوس يسلمني لكابوس
تعبت روحي
فلمن سأسلم نفسي؟

صمتت للحظات منتظرة أن يعلق شيئا على ما قرأت. كان هو غارقا في شيء بعيد وكأنها مست شيئا في أعماق روحه. أما زوجها فلم يبد أي تعليق بل أخذ رشفة أخرى من كأسه. نظرت هي إليهما وواصلت القراءة:

– اعتذار
آه..
أسمع صوتَ ناي حزين في الشارع
لأنزل من شرفتي
صوت الناي الحزين يبتعد
أيتها الوردة اعذريني
سأمضي مع صوت الناي الحزين
لبلادي رائحة الرازقي المتفتح ليلاً
أيتها الوردة
هذه بهجتي تذوب مثل شمعة حزينة
وعمري يهرب مذعورا
مثل عصفور وحيد
في سماء مليئة بالصقور

نظرت إليهما. كان هو متوهج الروح، نظراته تفيض أسى وحنين. نظر إليها نظرات ذات معنى وكأنه يتوسل أن تواصل قراءة نصوصها:

– معرفة
في مقابر الليل
وأمام ضريح نجمة عاشقة
رقصتُ
وتذكرتُ

كيف كانت أمي تغمضُ عينيها
من دخان الموقد في الشتاء
وتذكرتُ غزالة شاردةً
انقضَّ عليها النمر عند النبع
وتذكرتُ بأنني ذات يوم
لن أذكر شيئا
في مقابر الليل
عرفتُ الصباح

نظرت إليهما مرة أخرى. لم يجبها أحد. زوجها كان قد أنهى كأسه وأشار من بعيد رافعا كأسه بأنه يريد كأسا أخرى. لم يستطع المهندس آدم المطرود أن يقول شيئا فقد كان مختنقا بالكلام، لذا أشار إليها بأن تستمر. نظرت إليه وكأنها تقول أنا أقرأ من أجلك أنت وحدك:

مصابيح الطفولة
مصابيح طفولتي شاحبة الضوء
المصابيح التي عرفتها ترتعش دائما
ورغم ذلك ليس هناك في ظلمتي
غير هذه المصابيح...
أيتها المصابيح..
يا مصابيح العالم... اتقدي
وأنتَ أيها الحارسُ
حذارِ أن تنسى مصباحك في البيت.

صمتت للحظات ونظرت إليه فوجدته ينتظر أن تواصل القراءة. استفهمت منه بنظراتها ،فقال هامسا:

– واصلي القراءة رجاءً

لم تجبه وانما استمرت في القراءة:

غريب

ليل بهيم
سماء ليس فيها قمر
سماء تسح مطراً وعتمة
المطر والظلام المنهمر بقوة
ليس هناك في المحطة سوى الرجل الغريب
ليس من نأمة سوى صوت انهمار المطر والظلام
من تُرى سيوصله إلى البيت
البيت الكئيب
إنه يكره البيت،
لكن فكّر في نفسه
ليته الآن في البيت
في البيت الكئيب.. الكئيب
ليته الآن هناك.

– وهذا نص آخر. قالت ذلك دون أن تنتظر:

هذيان
هل أنا
حطام سفينةٍ أحرقها القراصنة
أم نجمة تهرب من السماء
قلتُ للأرض: إنني وردة جريحة
قلتُ للريح: اذكري خطوتي وباركيها
قلتُ للأشجار: وداعاً أيتها الجذور
قلتُ لأمي: آه.. كم أحبُكِ
ثم قُلتُ لنفسي: ما هذا الهذيان؟؟

صمتت للحظة ثم قرأت نصا جديداً:

لو
أذكرُ من طفولتي

إنني كنتُ جائعة ذات مساء
أذكرُ من مدينتي
مقبرة لجنود الحرب الأولى
أذكرُ من بلادي
هاوية بمساحة بلادي
أذكرُ من الورد
شوكة جرحتني
أذكرُ من جنوني
أنني دفنتُ في كهوف الليل راسي
أذكرُ من الليل
أنني قذفتُ في خلجان النجوم بآهة محرقة
أذكرُ من النسيان
أنني نسيتُ نفسي
آه
لو أنسى الذكريات

نظرت إليه. سبق لها أن قرأت نصوصها على زوجها الذي لم يتحمس لها. كان لا يريد أن يفصح لها عن رأيه بأنها لم تعجبه، لذا كان يتعذر بأن هذا الأمر ليس من اختصاصه ولا يستطيع أن يقول لها شيئا، لكنه يرى أنها كئيبة.

كان تنتظر أن يقول آدم المطرود لها شيئا. ولم يكن أمامه إلا أن يبدي رأيه، وكم تمنى لو أنهما وحدهما لقال لها الكثير، لأختصر اللغات جميعها في كلمة واحدة: أحبك. لكن زوجها هنا، وهو ينتظر رأيه أيضا ولو من باب الفضول. تململ المهندس آدم المطرود في مكانه وقال:

– لا أريد أن أجاملك أبدا..

– وأنا لا أريد أن تجاملني

– بصراحة شديدة أقول: إنك تكتبين برقة وحساسية عالية. صورك

تشي بعزلة روحية. لمست في أعماقك غربة روحية وبراري من الوحشـة. إنك تكتبين عن غربة الروح وسـط العالم. تكتبين عن الخلاص أو بشكل أدق عن محنة الخلاص، بل تبحثين عنه وسط عبث الوجود الذي يحيط بنا. كتاباتك تنم عن موهبة. رغم أنك مـن الناحيـة الإسـلوبية ربمـا تحتاجين إلى خبـرة أكبر. هل لديك نصوص أخرى؟.

– نعم.. لدي الكثير منها..

– ألم تنشري منها شيئا؟

– أبدا... أنا أكتب لنفسي. لا أريد أن انشر شيئا مما اكتب

هنـا تدخـل زوجهـا آدم الولهان موجها كلامه للمهندس آدم المطرود مازحا:

– سـيد آدم. اللـه يخليـك لا تورطنـا بالنشـر. حـواء تكتب لنفسـها. تشـعر بالحزن لأسـباب كثيرة، فهي حساسـة جدا. لا تسـتطيع أن ترى الأخطاء وعالمنا مليء بالأخطاء. هذا هو سـر حزنها وسـر كل هذه الكتابات.

أخفضت حواء الصايغ رأسها وأخذت تنظر إلى الطاولة والنصوص التي أمامها شاردة الفكر، بينما أحس المهندس آدم المطرود بأن زوجها إمـا أنـه لا يفهمـا وإمـا أنـه يفهمها لكنه يحاصرها خوفا من أن تنطلق إلى عالمهـا، وهـذا يعنـي مغـادرة عالمـه وتـرك كل شـيء وراءهـا، لكـن آدم المطرود لم يود أن يوتر الأجواء فقال موجها كلامه لحواء:

– يسرني أن أقرأ أو أسمع منك نصوصا أخرى

– إن شاء الله، ربما في بغداد

– بالمناسبة، إلى أي وقت أنتم باقون هنا؟..

وجـد زوجهـا السـؤال فرصـة للانتقـال بالحديث عن شـيء آخر غير الكتابة وعن وحشة حواء وخواء عالمها، فقال بمرح:

– غـدا صباحـا نسـافر إلـى اسـطنبول، ومنها إلى جنيـف، ومن هناك

نمر بباريس ومن باريس نعود إلى بغداد أن شاء الله. يعني خلال أسبوعين سنكون في بغداد. وأنت، كم ستبقى هنا؟

– غدا سيبدأ المؤتمر، وسيستمر ليومين، ربما سأبقى لبضعة أيام. سأحاول السفر إلى اسطنبول لأبقى فيها بضعة أيام ثم أعود إلى بغداد

– سنلتقي في بغداد إذن، لأننا ربما لن نلتقي في اسطنبول حيث سنبقى يومين فقط، بعدها سنطير إلى جنيف.

أحس آدم المطرود وكأن تشنجا قبض على صدره. نظر إلى حواء الصايغ التي كانت مستسلمة لعالمها ولم تعلق شيئا، أما هو فأحس برغبة مفاجئة في البكاء، لذا تمنى لهم سفرة سعيدة وتبادل مع زوجها العناوين.

فوجئت حواء الصايغ من تسارع الأحداث وقرب النهاية. أحست بحزن شديد، بينما وقف المهندس آدم المطرود مودعا. مضى نحو النادل وتحدث معه ثم وقع على قائمة المشروبات التي وضعها على حساب غرفته.

حينما مضى من أمامهما ثانية أحس وكأنه تركها وحيدة. أدرك أن علاقتها بزوجها برغم تعلقه الواضح إلا أنها علاقة غير طبيعية، وأن نصوصها تكشف عن طفولتها الفقيرة والبائسة، ربما أن زوجها يحاصرها بثروته وبالسفر والرحلات والفنادق الراقية والعواصم الجميلة.

وسأل نفسه هل سيراها مرة أخرى؟. لا بد من ذلك، لقد أخذ عنوان مكتب زوجها وتليفونه المدون على بطاقته الشخصية. لا بد له أن يراها. لقد أحس بسعادتها لوجوده معها فلماذا يترك كل هذا؟.

حينما أنهت حواء المؤمن هذا الفصل أحست بالتعاطف مع حواء الصايغ. إنها امرأة، برغم الثراء الذي هي فيه لم تنكر طفولتها الفقيرة. أحست بتعاطف مع المهندس آدم المطرود أيضا، وأشفقت عليهما، فهما يحبان بعضهما لكنهما وجدا نفسيهما في الزمان والمكان الخطأ.

أحست بشوق لمتابعة القصة، فقد كانت متلهفة لمعرفة القاتل. قلبت الأوراق بين يديها، إذن، لم يبق الكثير من القصة، ستعرف كل شيء، وبدأت بقراءة الفصل السادس.

انتبه آدم البغدادي إلى أن تضمين الرواية نصوصا شعرية هي تقنية قديمة، فقد ترك الشاعر الروسي السوفيتي بوريس باسترناك مجموعة شعرية كاملة تقريبا باعتبارها النصوص التي كتبها الدكتور زيفاكو في الرواية التي تحمل اسمه أيضا، وكذلك استخدمها الكاتب الروائي الألماني هيرمان هيسه في روايته (لعبة الكريات الزجاجية)، وكذلك استخدمها صديقه الشاعر والروائي العراقي حميد العقابي في روايته (أصغي إلى رمادي)، فلا ضير أن يترك حواء الصايغ تقرأ نصوصها.

(6)

دخل المهندس آدم المطرود إلى غرفته واستلقى على السرير سارحا في أفكاره حول حواء الصايغ وزوجها، وما سمعه من نصوص. فكر أنها مشروع شاعرة مهمة لو انتبهت لنفسها ووجهت قراءاتها ووسعت من معارفها النقدية، لكن يبدو أن زوجها لا يريد لها أن تبرز في أي مجال ثقافي فهو في أعماقه يخاف أن يفقدها، لاسيما إذا ما دخلت إلى تلك الأوساط التي أكيد ستقابل فيها رجالا أكثر منه ثقافة وشبابا، وربما هي لا تريد مثل هذه الأوساط لانطوائها على نفسها وإحساسها بالإكتفاء الذاتي وتواضعها وعدم رغبتها فى الشهرة والأضواء، بل على العكس يبدو أنها تخاف الأضواء. أحس بأنها ارتاحت له وتود أن تعمق علاقتها معه، أما هو فيعشقها، فهي المرأة الحلم، المرأة الجميلة الغامضة، المرأة المستحيل، لكن هل هي مستحيل حقا؟

راودته أفكار غريبة فتصور نفسه معها وتساءل: كيف لمثل زوجها أن يضاجعها، وكيف هي في السرير، هل ستبقى حزينة وشفافة وحالمة كما يراها دائما أو أنها ستتحول إلى امرأة أخرى تصرخ من الشهوة وتنطق بكلمات بذيئة؟ لا.. إنها هادئة وشفافة حتى في تلك العلاقة.

حين استيقظ آدم المطرود صباح اليوم الثاني لم يجد في نفسه الرغبة أن ينزل إلى المطعم، لكنه إضطر لذلك لأن المؤتمر سيبدأ بعد الفطور في القاعة الكبرى في الطابق الثاني، فنهض متثاقلا ودخل غرفة الحمام.

بعد الفطور توجه إلى قاعة المؤتمر وعند باب القاعة رأى شابة تركية وضعت أمامها عددا كبيرا من البطاقات العاجية التي تحمل أسماء المشاركين ودولهم، إلى بعض الكراريس والمعلومات عن المؤتمر وجدوله.

لمح صديقه المهندس آدم الصاحب وهو يتحدث مع إحدى المشاركات الأجنبيات، فأخذ البطاقة التعريفية التي تخصه بعد أن وقع على استمارة مقابل اسمه، كما أخذ جدول المؤتمر وبعض المنشورات الأخرى واتجه نحو صديقه. تصافحا وبادر صديقه المهندس آدم الصاحب بتقديمه لزميلته معرفا بعضهما ببعض، فهي حواء كوناي (وتلفظ هوّاء لأن حرف الحاء غير موجود بالتركية)، مهندسة ألمانية - تركية وجاءت لتمثل إحدى شركات المقاولات الكبرى، وهو آدم المطرود من العراق لكنه خريج اسطنبول.

نظر كل منهما في وجه الآخر للحظات قبل أن ينطقا شيئا، ثم تحدثا مباشرة بالتركية وانسجموا وكأنما يعرفون بعضهم منذ زمن فقد قربت اللغة بينهم.

بدأ المؤتمر بأول فقرات برنامجه بعد كلمات الترحيب التقليدية. كان المتحدث الأول هو المعماري العالمي (ريجارد روجيرز) الذي تحدث عن تجربة تصميم مبنى المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان في مدينة ستراسبورغ. كانت محاضرة ممتعة وعميقة، على الرغم من أنه لم يستوعب بعض المفاهيم التي تحدث عنها، إذ كان يدعو إلى خلق مبنى مميز في لغته التصميمية ضمن البيئة المحيطة، أي خلق مبنى صرحي من دون صرحية. الغريب أنه تذكر حواء الصايغ وتمنى لو أنها كانت موجودة.

عند استراحة الغذاء وعلى المائدة جلس مع المهندس آدم الصاحب والمهندسة حواء كوناي التي شعر برغبة في أن يكون معها. أحس المهندس آدم الصاحب برغبة صديقه آدم المطرود فهمس له باللهجة العراقية أن ينتظر إلى الليل وحينها سيدعوها وسيدعو صديقته الروسية ايفا ايضا وسيشربون النبيذ والفودكا، والبقية عليه، وعلق على المصادفة التي جمعتهم بنساء كلهن اسمهن حواء.

في الجلسة الثانية بعد استراحة الغذاء سره أن عرف أن المحاضر هو معماري عراقي ترك العراق لأسباب سياسية ويعيش حاليا في الدنمرك

واسمه (د. خالد السلطاني). كانت محاضرته تعريفية عن تيار (الهاي – تيك) عرج من خلالها على تيارات ما بعد الحداثة، متوقفا عند مفخرة عراقية في فن المعمار العالمي هي (زهاء حديد) وعمارتها التي أطلق عليها (واقعية الفضاء الافتراضي)، متحدثا عن انجازاتها العالمية وفلسفتها التفكيكية، ثم تحدث المحاضر، مستعينا بصور السلايد، عن تنويعات عمارة ما بعد الحداثة، مقدما أنموذج مبنى (البنك المركزي العراقي) والمصمم من قبل مكتب (ديسون ووايتلين) الدانمركي، مبينا قيمته الجمالية الجديدة المتمثلة في مفردة تكوينية واحدة دعاها النقاد في ما بعد بـ(الفضاء الفسيح الواسع والرحيب)، والتي سبق للمعماري (جون بورتمان) توظيفها في الستينات في سلسلة من الفنادق الفخمة ذات اللغة المعمارية المعبرة والمتفردة التي شيدها في مناطق مختلفة بأميركا.

بعد محاضرة (د.خالد السلطاني) التي أثارت الجميع بغزارة معلوماتها تقدم منه بصحبة المهندس آدم الصاحب وعرفا بأنفسهما فرحب بهما جدا، برغم حذره الشديد من أتباع النظام والحزب الحاكم، فهو إلى جانب كونه معماريا شهيرا معارض سياسي نشيط، يكتب عن النظام ويكشف ممارساته القمعية بل وأحيانا يتناول دور النظام في تشويه فن العمارة العراقية والبغدادية بالتحديد.

حاولا دعوته إلى العشاء فاعتذر منهما بأدب جم، وبعد أن تركهم فكر المهندس آدم المطرود للحظات بهذه الكفاءات العراقية المهاجرة والتي لا يستفيد العراق منها، بل إن السلطة هناك طوتهم في النسيان فلا أحد يعرف عنهم شيئا بينما يستمع العالم كله إليهم لغزارة معارفهم وتميز تجربتهم. وفكر للحظة أنهما محظوظان إذ ليس هنا أي شخص من العراق غيرهما وإلا ربما كانا سيواجهان المشاكل عند عودتهما إلى بغداد.

عاد المهندس آدم المطرود إلى غرفته ليأخذ قسطا من الراحة إذ تنتظره سهرة لا يعرف نتائجها، لكنه متحمس لخوضها، فهذه المهندسة

التركية الألمانية تعجبه ويبدو هو أيضا يثير إعجابها لأنه راقبها فوجد أنها تنظر إليه وفي أعماق عينيها رغبة دفينة.

استلقى على سريره ودون إرادته غط في غفوة عميقة لم يوقظه منها إلا رنين جرس الهاتف، وحينما أخذ السماعة سمع صوت صديقه المهندس آدم الصاحب يأتيه قلقا عليه:

– أين أنت يا رجل. نحن ننتظرك. ايفا الروسية وحواء كوناي هنا أيضا، وهي تسأل عنك.
– أوه.. لقد أخذتني الغفوة
– اتصلت بك ثلاث مرات ولم تجبني إلا هذه المرة
– لم أسمع. يبدو أني كنتُ غارقا في نوم ثقيل.
– على أية حال أسرع فنحن ننتظر
– لا أحس برغبة في السهر..
– ما الذي جرى يا صديقي. إنها تنتظرك، وأنت كنت متلهفا لها
– لا أدري. أحس أني أخون حواء
– تخون من؟
– حواء
– أي حواء منهن يا آدم. حواء كوناي أم حواء الصايغ
– حواء الصايغ طبعا
– هل أنت في كامل قواك العقلية يا آدم..
– أقول الحقيقة. هذا هو إحساسي. أشعر أنها معي في كل لحظة، بل أشعر أنها سكنت أعماقي، فهي في داخلي، ولا أرغب في أية امرأة سواها. أريدها. إنني في شوق لها..
– يبدو أن وضعك خطير. تعال يا بني وسأشفيك. تعال. وإذا لم تعجبك الجلسة غادرنا..
– قلت لا رغبة لدي
– تعال فقط لربع ساعة، بعدها تحجج بأي شيء لتذهب. وضعي

محرج. لقد أخبرت حوائي الروسية بأن تساعدنا في ترتيب الأمور. أوضحت لها بأنك تريد المهندسة حواء التركية. اتفقت معها أن تستعلم عن مدى استعدادها. تعال يا أخي..

– حسنا لربع ساعة فقط

– سنكون بانتظارك في المطعم الذي يحمل أسم ألف ليلة وليلة الذي في الطابق الأول ولسنا في صالة المطعم.

نهض آدم المطرود بتثاقل شديد وبدون رغبة حقيقية في السهر علما أنه كان قبل غفوته متحمسا لهذه السهرة. فكر مع نفسه في الأمر وسأل نفسه لماذا جرى هذا التحول في مزاجه، وكيف اختفت رغبته، بينما فكر هو بالمهندسة منذ لحظة رؤيتها.

حينما دخل آدم المطرود إلى المطعم وقف للحظات مستكشفا المكان. أحس أن الأجواء لطيفة وهادئة، والطاولات موزعة بشكل يحفظ خصوصية الزائرين، والأجواء ليست بالمعتمة لكن الإنارة خافتة. لمح صديقه المهندس آدم الصاحب يجلس بجانب ايفا الروسية بينما جلست المهندسة حواء كوناي قبالتهما منتظرة أن ينظم إليها. أشارت حواء كوناي إليه لترشده. كانت هي في أبهى زينتها، وكأنها ليست تلك المهندسة الوقورة والرسمية التي كانت عليها في المؤتمر. تقدم منهم وسلم عليهم جميعا مصافحا، ثم جلس بجوار المهندسة حواء كوناي التي كانت ترتدي ثوبا ضيقا وقصيرا يكشف عن ذراعيها وعن مساحة كبيرة من فخذيها ويبرز جزءا كبيرا من نهديها الثائرين.

كان المهندس آدم الصاحب قد سبقه بطلب قنينة من النبيذ الفرنسي الأحمر، كما كانت المائدة عامرة بالمقبلات الشهية وكان قد طلب العشاء لهم أيضا، وكانوا بانتظاره فعلا، وما أن جلس حتى صب صديقه النبيذ في الأقداح. رفعوا كؤوسهم وشربوا نخب صداقتهم مقربين الكؤوس من بعضها.

بعد الكأس الثانية طلبوا قنينة أخرى، وما أن شربوا الكأس الثالثة

حتى كان الدفء والانتشاء قد تسرب في نفوسهم جميعا وصاروا أكثر استرخاء في الحديث. كان معظم الكلام بالتركية، وأحيانا بالانكليزية مجاملة للروسية ايفا التي كانت تتفاهم معهم بالانكليزية.

انحنى المهندس آدم الصاحب إلى ايفا الروسية وهمس في أذنها فابتسمت، وبعد لحظات نظرت إلى المهندسة حواء كوناي نظرة ذات مغزى ثم قامت طالبة الأذن لدقائق، وبعدها بلحظات قامت المهندسة حواء كوناي أيضا طالبة الأذن لدقائق. حينما بقيا وحدهما قال المهندس آدم الصاحب مازحا:

– ستأتيك حواء الروسية بالخبر اليقين، فقد دعتها إلى حمام النساء وهناك ستسألها عنك أن كانت تريد أن تقضي الليل معك وستخبرني سلبا أو إيجابا، وستكون إشارتي بأن أقبل حواء الروسية أمامكم، فهذا يعني تحرك فالأبواب مشرعة، وإذا لم أفعل فهذا يعني أن التصميم غير ناجح.

ولم يكملا حديثهما لأن المرأتين وصلتا، وكانت ملامح ايفا فرحة ومبتهجة، فقاما لكي يجلسا. بعد لحظات ملأ المهندس آدم الصاحب الأقداح الفارغة بالنبيذ، فرفعوا الكؤوس. كانت ايفا الروسية مرحة أكثر من الجميع وهمست في إذن صديقها آدم الصاحب الذي ارتسمت ملامح الدهشة والفرح على وجهه فأخذها بين ذراعية وقبلها من فمها قبلة حارة.

ارتبك آدم المطرود للحظة ونظر إلى وجه حواء كوناي التي أثارها مشهد التقبيل بين الروسية ايفا وآدم الصاحب، إذ اتقد وجهها بالرغبة، فنظرت إلى آدم المطرود وكأنها تسأله: ما رأيك؟ أو تدعوه لفعل أي شيء مشابه، فأبتسم لها. وكان هو أيضا منتشيا من شرب النبيذ، فمد يده ليداعب يدها وقال لها بالتركية:

– هل لديك رغبة بالبقاء هنا أم نذهب لمكان آخر؟

– لنذهب.. هل لديك في الغرفة ما نشربه، هنا الجو صاخب

– لنذهب أولا وبعدها سنرى

قاما بين ابتسامات ايفا الروسية والمهندس آدم الصاحب الذي علق قائلا:

– يا خائن..

ابتسم المهندس آدم المطرود، فلم يكن يتوقع أن مزاجه سيتغير بهذه السرعة. أخرج محفظته ووضع مبلغا من المال على الطاولة مساهمة منه لدفع وليمة العشاء، وأخذ بيد المهندسة حواء كوناي التي اتكأت عليه لأنها شعرت بأنها غير متوازنة.

حينما دخلا المصعد كانت حواء كوناي تشعر بالثمالة والرغبة المتأججة، وكادت تفقد رزانتها التي كانت عليها سواء في المؤتمر أو حتى بداية السهرة. ضمته إلى صدرها محتضنة إياه مقدمة له شفتيها فلم يستطع أن يرفض عرضها فقبلها بحرارة وشبق.

ما إن وصلا إلى غرفته وفتح الباب حتى هجمت عليه مقبلة إياه، لكنه كان من التهيج والشبق بحيث لم ينتظر فدفعها إلى السرير وفتح فخذيها رفعا ساقيها إلى الأعلى ساحبا سروالها معهما بيد بينما كانت يده الأخرى تفك حزام سرواله، وفي لحظات أولجه فيها بعنف، كانت هي رطبة، أخذت تصرخ فيه أن يمزقها، أن يشقها إلى نصفين، أن لا يترك منه شيئا، أن يقذف فيها ويملأها بمائه وبذوره.

في الصباح استيقظ المهندس آدم المطرود على شخير في غرفته. التفت فوجد المهندسة حواء كوناي عارية إلى جانبه في السرير. أحس بالخجل، وفي هذه اللحظة فتحت حواء كوناي عينيها فقالت له:

– صباح الخير

– صباح الخير.

– كم الساعة الآن

– التاسعة

– علي الذهاب إلى غرفتي للاستحمام وتبديل ملابسي

قامت من السرير عارية، وضعت سروالها في حقيبتها، ارتدت ثوبها

سريعا وحملت وحذاءها وخرجت مسرعة، بعد أن قبلته قبلة سريعة وخاطفة، وهي تقول:

– سنلتقي في المؤتمر.

بقيَ المهندس آدم المطرود في فراشه لدقائق مسترجعا كل ما حدث ليلة أمس. انتبه إلى أنه كان عاريا بالكامل أيضا. نهض ودخل الحمام وصعد إلى حوض الاستحمام وفتح دش الماء على قوته وبقيَ هناك تحت وابل الماء البارد. كان في حالة ذهول. كيف اختفت صورة حواء الصايغ أمام بعض كؤوس من النبيذ؟ هل علاقته معها عابرة بحيث لم تصمد أمام شهوته المتفجرة؟ كيف هذا وهو منذ أيام لا يرى في العالم غيرها، بل كان يرى العالم من خلالها؟

لا، لا يمكن أن تكون كل مشاعره مزيفة إلى هذا الحد؟ هل هو مريض نفسيا ومصاب بمرض انفصام الشخصية؟ أحس بالخوف من نفسه، بينما ظل وابل الماء ينهمر على جسده.

بقيَ لفترة طويلة في الحمام ثم خرج منه وقد ارتدى ثوب الحمام الأبيض. لم يفعل شيئا بل ألقى بنفسه على السري محدقا إلى سقف الغرفة دون أن يحيد بنظره إلى أية جهة وكأنه يحدق إلى نقطة في الفراغ.

أحست حواء المؤمن أن بين المهندس آدم المطرود وزوجها الدكتور آدم التائه شيئاً مشتركاً، خاصة طريقة ممارسة المهندس آدم المطرود الجنس مع حواء كوناي، فقد كان من عادة زوجها الدكتور آدم التائه أن يلقيها إلى السرير ويرفع ساقيها ويسحب سروالها الداخلي بيد بينما يده الأخرى تفك أزرار سرواله ثم ليدفعه فيها بقوة. وتذكر أنها أحيانا ومن فرط التهيج والشهوة كانت تصرخ فيه أن لا يترك منه شيئا وأن يمزقها وأن يملأها بالبذور. هذه هي كلماتها وليست كلمات المهندسة حواء كوناي، وسألت حواء المؤمن نفسها أترى كل النساء هن هكذا في تلك اللحظة؟.

تذكرت حواء المؤمن المشاهد التي كانت تجري بينهما، وتخيلت

هـذا المشـهد المكتـوب فـي القصـة، أنهـا هـي، لكنهـا ليسـت تركية ولا مهندسة، كيف له أن ينقل كلماتها إلى هذه التركية؟

أعجبتها شـخصية حواء الصايغ، صحيح أنها لم تفهم كل ما كتبته، فهـذا ليـس شـعرا، لكنهـا أحسـت بحزن هذه السـيدة الجميلـة، ولم تجد مبـررا لكـي تُقتـل، وكانـت تريد أن تتسـارع الأحداث كـي تعرف النهاية، لذا باشرت بقراءة الفصل السابع.

أحس آدم البغدادي أن الدكتور آدم التائه كان موفقا في اقتناص حالة التداخل التي جرت بين حواء المؤمن زوجة الدكتور آدم التائه وبين المهندسة حواء كوناي لحظة الممارسة الجنسية، وكيف أن حواء المؤمن نفسها كشفت ذلك حينما شبهت زوجها بآدم المطرود.

لكنه بحث في ذاكرته مسترجعا تجربته الشخصية: من تُرى من النساء هكذا تصرفت وتحدثت هكذا، فلم يستطع أن يحدد واحدة منهن لأن معظمهن، كما يتذكر، كن يتحدثن بشبق وبهذه الطريقة، مع شيء من الاختلاف له علاقة بطبيعة المرأة ومجتمعها.

(7)

لـم ينتبـه المهنـدس آدم المطـرود لمـرور الوقـت. السـاعة كانت قد تجـاوزت الثانيـة عشـرة. لـم يعـرف كيـف مـر كل هـذا الوقـت، فهو في شـبه غيبوبة وكأنه ملقى في الفراغ. كان ذهنه سـاكنا وكأن رأسـه جمجمة فارغـة، فهـو مفـرغ من الانفعالات وبارد الأحاسـيس، وكأن نفسـا أخرى تهيمن على جسده.

نهض من سريره بشكل آلي. فتح دولاب الملابس، وارتدى سروالا جديـدا وقميصـا داخليـا، ثـم دخل مجددا إلى الحمام وحلق ذقنه. تعطر، ثـم خـرج مـن الحمـام وجلس ليضع قدميه في فردتي الحذاء. نظر للمرآة الكبيرة التي تتوسط أحد جوانب الغرفة، ثم أطفأ النور وخرج.

كان يحس بنفسه خفيفا، وربما تسرب لنفسه شيء من الشعور المرح الايجابي. حين دخل المصعد رأى رجلا كهلا يتوكأ على عكازه فسـلم عليـه بالانكليزيـة، فلـم يجـب الرجـل، ربمـا أنـه لم يسـمع، أو لا يعرف الانكليزية. وصل المصعد إلى الطابق الأرضي وفُتح الباب، سمح للرجل العجوز أن يخرج أولا ثم خرج بعده، لكنه فجأة انتبه إلى أن قاعة المؤتمر تقع في الطابق الأول، فأراد الدخول إلى المصعد ثانية إلا أن بابه أغلقت وصعـد فارغـا، فاتجـه إلـى باب الصعود عبر الدرج، ومن هناك اتجه إلى قاعة المؤتمر.

دخل إلى قاعة المؤتمر. جال بنظره سريعا في أرجائها، وأتجه بنظره إلى منصة المحاضرة، فاسـتغرب لوجود المهندسـة حواء كوناي وإثنين آخريـن يتحدثـان بالتركيـة عـن التوجهات الحديثة لفـن العمارة في تركيا ارتباطا بالزيادة السكانية وكثافتها في المدن الرئيسة والناتجة عن الهجرة

من الريف إلى المدينة ومن المدن الصغيرة إلى الكبيرة مما دفع بالكثير من المعماريين الترك إلى إعادة النظر في أساليبهم المعمارية والتوجه نحو فن العمارة الحديثة. وكان بعض الوافدين الأجانب يتواصلون معها عبر الترجمة الفورية التي تصلهم من خلال السماعات التي يضعونها على آذانهم.

لم يجلس المهندس آدم المطرود حول أي طاولة، وإنما ظل واقفا عند باب القاعة شابكا يديه على صدره مستمعا لها. لم تكن هي المرأة ذاتها التي كانت ليلة أمس تصرخ فيه أن يمزقها، أو التي طلبت منه أن يمارس معها أشياء كان يتجنبها سابقا خوفا من الأمراض لكنها أصرت أن يفعلها معها.

كانت ترتدي قميصا محتشما وسترة تلقي عليها ملامح الرزانة والحشمة، وما أثار دهشته أنها نظرت إليه مرات عديدة لكنها أشاحت عنه وكأنها لا تعرفه بتاتاً، وبرغم ذلك أعجبه ما قالته وأوضحته في محاضرتها. حينما بدأ زميلاها بالحديث خرج المهندس آدم المطرود من القاعة وتوجه إلى بهو الاستقبال لحين انتهاء الجلسة.

بدأ المؤتمرون يهبطون بالمصعد وبعضهم من خلال الدرج الجانبي، وأخذوا يتوجهون إلى المطعم، فعرف أن الجلسة قد انتهت. فجأة وقف أمامه صديقه المهندس آدم الصاحب متسائلا:

- لماذا تأخرت، ولماذا لم تجلس أصلا، يبدو أن ليلتك الحمراء أنستك كل شيء.

- أجلس.. أنا مصدوم.

- مصدوم؟

جلس المهندس آدم الصاحب على الصوفا المقابلة له، وسأل:

- ماذا حصل؟

- هذه المهندسة حواء كوناي..

- ما لها، أما ذهبتما ليلة أمس معا، هل تركتك؟

– لا.. قضت ليلتها في سريري... لكن

صمت المهندس آدم المطرود قليلا وكأنه يتحدث عن شيء بعيد جدا يحاول تذكره وعن شخص آخر لا يمت إليه بأية صلة. سأله صديقه بعد أن طال صمته:

– تكلم يا أخي. فأنا جائع، أو تعال نتكلم ونحن في المطعم..

– غريبة هذه المرأة..

– لا غريب إلا الشيطان

– إذن، ربما هي الشيطان

– يا رجل.. تحدث وخلصني

– هل تتوقع من هذه المرأة التي كانت اليوم تحدث كل هذه العقول والمواهب العلمية أنها كانت ليلة أمس تتصرف وكأنها عاهرة مرت بكل كهوف الفسق والرذيلة..

– ماذا يعني.. أقصد ماذا فعلت؟

– فعلت كل الذي يمر في ذهنك وخيالك من أوضاع وحركات وكلمات بذيئة

– معقول!

– هذا ما جرى

– ثم ماذا... لماذا أنت مهموم من هذا؟

– لا.. إنما استغربت حينما رأيتها في المؤتمر بزيها المحتشم..

– لا تبالغ يا صديقي. هل تريدها أن تأتي عارية إلى المؤتمر. طبعا تأتي بلباس محتشم ورسمي لأنها تتوجه لأشخاص مهمين..

– أعرف. لا أقصد ذلك، لكني لا أتصور أنها نفس المرأة التي ضاجعتها ليلة أمس.

– لا. يمكنك أن تتصور. ظننتك تعرف النساء جيدا. هيا. هيا. أنا جائع، وايفا الروسية ستسافر اليوم لذا علي أن آكل جيدا وأذهب بعد ذلك لتوديعها.

قاما معاً واتجها إلى المطعم. حينما دخلا كانت المهندسة حواء كوناي تجلس حول مائدة قريبة من الباب مع زميليها اللذين كان على المنصة معاً. مرا من جانبها فلم تعرهما اهتماما وكأنها لا تعرفهما. استغرب المهندس آدم الصاحب من ذلك لكنه فكر ربما لم ترهما، بينما حاول المهندس آدم المطرود ألا ينظر إليها.

انتبهت هي لتجاهل المهندس آدم المطرود لها، لذا وجدت نفسها تتجه إليهما بنظراتها، وحينما جلسا حول مائدة لا تبعد كثيرا من مائدتهم ظلت تنظر إليه لكنه تجاهلها بالكامل، ولأكثر من مرة التقت نظراتهما فحاول تجاهلها وكأنه لا يعرفها، وهذا ما بث القلق فيها فألحّت بملاحقته بنظراتها حتى انتبه اللذان معها فالتفتا إليهما ولم يكن منها إلا أن همست لهما بشيء لم يسمعه سواهم.

بعد أن أنهيا طعامهما قام المهندسان آدم المطرود وآدم الصاحب ومرا من جانب طاولتها دون أن ينظرا إليها، مما بث تيارا من الغضب الخفي في نفسها.

سألت حواء كوناي نفسها غاضبة: لماذا يتجاهلها؟ ألم يفعل معها ليلة أمس كل شيء؟ ألم يسافر في كل زاوية من جسدها هائجا كالثور مخترقا إياها من كل الجهات؟ ألم يبكِ كالطفل على صدرها، فهدأته كي ينام؟ لماذا يتصرف وكأنه لا يعرفها، لماذا يتعامل معها وكأنها عاهرة قضى وطره منها وألقاها على قارعة الطريق؟ هل هي رخيصة إلى هذا الحد؟ لكن لا غرابة فالرجل الشرقي يبقى شرقيا، يشارك في الإثم لكنه ينسى ذلك، سوف أحدثه وأعطيه درسا في كيفية التعامل مع النساء؟ من يرى نفسه؟

وبطريقة دبلوماسية ولطف شديد دون أن تثير أي شك قامت المهندسة حواء كوناي عن مائدتها وانسحبت معتذرة من زميليها.

حين خرجت إلى بهو الفندق كانت متأكدة أنها ستراه هناك، إلا أن خيبتها كانت كبيرة حينما لم تجده بل وجدت صديقه المهندس

آدم الصاحب مع صديقته الروسـية جالسـين في زاوية يتحدثان وأمامهما فنجانان من القهوة.

كانت عازمة على رؤية المهندس آدم المطرود ومحادثته والاستفسار منه عن تصرفه غير المهذب معها، فتقدمت منهما وسلمت بتوتر وسألت صديقـه آدم الصاحـب عنـه، فقـال لهـا إنه في غرفته، ثـم دعاها للجلوس معهما لشرب القهوة لكنها لم تنظر أن يكمل جملته إذ استدارت متوجهة إليه. لم تتذكر رقم الغرفة فرجعت إليهما معتذرة وسألته عن رقم الغرفة فقـال لهـا: 611، فاسـتدارت ثانيـة بعد أن شـكرته بصـوت خافت وكأنها تحدث نفسها.

وقفت المهندسة حواء كوناي أمام باب الغرفة 611 للحظات. كانت متـرددة وكانـت تبـدو وكأنهـا تتنصـت علـى من في الداخـل، بل وخلال لحظات مرت في ذاكرتها كل ما جرى ليلة أمس، فاختلطت مشـاعرها، لكنها حزمت أمرها وطرقت الباب.

كان المهندس آدم المطرود مستلقيا على سريره حينما سمع طرقات على الباب فقام وسـحب اللسـان النحاسـي الذي يوضع في أعلى الباب وفتحه. فوجيء بالمهندسة حواء كوناي الذي كان وجهها ينم عن غضب وخجـل وارتبـاك ورغبـة خفيـة. وكانـت تبدو أكثر جمالا وأنوثـة بثيابها المحتشـمة. البنطلـون والقميـص المغلـق حتى الرقبـة والذي يبرز نهديها النافرين والسترة التي تمنحها رزانة وأنوثة عما كانت عليه ليلة أمس برغم أنها كانت حينها أكثر كشفا لأجزاء مثيرة من جسدها.

ظل لحظات ينظر إليها فقالت له:

– هل سأبقى واقفة عند الباب

– أوه.. عفوا.. تفضلي. قال لها بارتباك

دخلت إلى الغرفة وجلست على الكرسي الذي وضع مقابلا للسرير حول طاولة زجاجية مستديرة. وضعت حقيبتها اليدوية على الطاولة فما كان منه إلا أن جلس على الكرسي الآخر المقابل لها حول نفس الطاولة

وكأنه ينتظر منها أن تبرر قدومها له، نظر إليها فقالت له:

– هل يمكنك أن تطلب لنا قهوة أو شايا.

لم يعلق هو شيئا وإنما أخذ سماعة الهاتف وطلب شايا وقهوة ثم رجع جالسا إلى كرسيه. نظرت إليه متفحصة وكأنها تستشف مدى استعداده لما ستقوله. ظل هو صامتا ينتظر لأنها بالتأكيد لم تأت إلى غرفته لشرب الشاي أو القهوة، وأخيرا تحدثت بهدوء وبثقة، وبدا صوتها في أول كلماتها مرتعشا لكنها سرعان ما انتبهت لرعشة صوتها فسيطرت على نفسها وصوتها، قائلة:

– قبل كل شيء أود أن أقول إن تصرفك اليوم معي لا يمكن أن يفسر إلا أنه تصرف غير محترم، وينم عن عقلية شرقية مريضة، ومتعجرفة.

صُدم أول وهلة من كلماتها وأراد أن يوقفها أو أن يقاطعها مستفسرا عما تقصده لكنه سكت وواصل تأملها. سكتت هي للحظات ثم واصلت:

– أنا لستُ عاهرة تتنقل من رجل إلى رجل ومن غرفة إلى أخرى ومن سرير إلى سرير، وإذا ما كنت قد جئت معك ليلة أمس، فلأني امرأة حرة بنفسي وجسدي، وأحترم نفسي وجسدي، ولا أسلمه إلا لمن أحس بأنه يستحقه، وهذا الاستحقاق لا يأتي من رجولته، أو مكانته، أو وسامته، وإنما لقناعتي الشخصية فيه، بشخصيته وأسلوبه مع الآخرين وذوقه، وحينما قبلت على نفسي أن أكون معك فهذا لا يعني إنني أفعل ذلك ليليا ومع كل من هب ودب، لذا أعتبر أن تعاملك معي اليوم وتجاهلي بهذه الطريقة المهينة هو احتقار لي لأني أعرف تفكير الرجل الشرقي فهو ينظر للمرأة التي تذهب معه قابلة كأنها مومس.

بهدوء شديد سألها المهندس آدم المطرود:

– ما الذي يا تُرى فعلته أو صدر مني كي تعتبريه احتقارا؟

– إنك تجاهلتني بالكامل وكلما أنظر إليك لأسلم عليك وأحييك

تشيح بنظرك عني وكأني دائن تتهرب منه كي لا يراك.

– أنا. أنا. متى كان ذلك؟

– في المطعم عند الغداء.

– يا إلهي. أتدرين لماذا؟

– لماذا؟

– لأني شعرت نفس شعورك هذا، بأنك كنت معي ليلة أمس ونمت في سريري حتى الصباح لكني حين دخلت صالة المؤتمر ووقفت عند الباب أنظر إليك، تجاهلتني وكأنني غير موجود، ومضيت مع زملائك، وفي المطعم مررت بالقرب من طاولتك فلم تتكرمي بنظرة واحدة تجاهي، فماذا تنتظرين مني بعد هذا؟ أنا بدوري غضبت منك، ولا أخفيك، تصورتك شخصية غريبة الأطوار.

لا تدري حواء كوناي كيف صدقته، واستغربت من نفسها حينما شعرت بأن كل غضبها منه وتحاملها عليه زال ولم يبق منه شيئا في نفسها.

في تلك اللحظة طرق الباب فقام لفتحه. كان موظف الخدمة قد جاء بصينية فيها دورقان أحدهما فيه ماءً ساخن والآخر فيه قهوة، وفى الصينية صحن فيه بعض أكياس الشاي وكوبان. وضع الصينية على الطاولة أمامهما، ووقع المهندس آدم المطرود على القائمة التي تحمل رقم غرفته واسمه. خرج موظف الخدمة، وحينما جلس على كرسيه ثانية وجد أساريرها منبسطة.

سألها ماذا تود أن تشرب فقالت القهوة، فصب لها القهوة في أحد الكوبين، ووضع أحد أكياس الشاي في الكوب الثاني وصب الماء الساخن من الدورق الآخر. نظر إليها وكأنه يبحث في وجهها عن شيء مجهول، فانتبهت له وسألته:

– ما بك؟ لماذا تنظرين لي هكذا؟

– أريد أن أسألك شيئا..

– اسأل

– قبل كل شيء أعجبتني شجاعتك واحترامك لذاتك بهذه الطريقة. وبودي أن أسألك، من أنت؟

– توقعت أن تسألني هذا السؤال، لأنه أسلوب المثقفين وبياعي الكلام والكتاب والفنانين، فحينما يودون التقرب من امرأة يطرحون أسئلة مثل هذا السؤال وغيره، ويمنحون المرأة شعورا بالتميز فيعجبها ذلك ويرضي غرورها، وبالتالي تبدأ بتقديم التنازلات لهم، وشيئا فشيئا يأخذون باحتلالها.

– ماذا.. هل هي حرب؟

– نعم، حرب ناعمة، حرب جميلة.

– إنك قاسية تجاه الرجال.

– أنا واقعية. تاريخ البشرية وتاريخ الأدب والفن يؤكد ما أقول.الرجل يبدأ بالحب الروحي الأفلاطوني ليصل إلى الحب الجنسي.

– لكن العكس يحدث أحيانا. يبدأ بالحب الجنسي ليسمو إلى الحب الروحي

– هذا يحصل نادرا جدا، وحتى إذا ما حصل فهو يحصل بحكم العادة والتكرار، ويبقى حبا جنسيا، وإذا ما خَفَتَ فأنه يتحول إلى صداقة.

– أوه.. بدأنا نتحدث بالفلسفة

– لقد درست تاريخ الفن في بداية حياتي الجامعية برغم أن درجاتي كانت تؤهلني لدراسة الطب أو الهندسة، لكني كنتُ مولعة بالفن والموسيقى، ثم مررت بظروف دعتني أن أعيد تصميم حياتي فدرست الهندسة لكي لا أحتاج لأحد.

– إذن، كنتُ محقا عندما سألت من أنت؟

ارتشفت شيئا من القهوة بعد أن انشغلت بوضع مسحوق الحليب أو المبيض في كوبها، وقالت:

– غريب هو الإنسان. لم يدر في ذهني أبدا أن ينتهي بي الأمر إلى

أن اجلس معك هذه الجلسة اللطيفة لنتحدث عن الفن والحب وأعماق الإنسان ونحلل شخصيته، فأنا كنتُ غاضبة منك جدا. كنت آتية لأسمعك بعض الكلمات القاسية على موقفك، بينما أتضح أنك مستاء مني لنفس السبب.يا له من سوء فهم، ويبدو لي أن مآسي البشر تأتي دائما من سوء الفهم المتبادل.

ابتسم لها، وقال:

– أكيد، أتفق معك. هل قرأت رواية (مرتفعات وذرينغ) لأميل برونتي

– نعم قرأتها، فهي رواية شهيرة، وكذلك شاهدت الفلم المأخوذ عنها..

– إن سبب المأساة في قصة الحب العنيفة تلك جاء من سوء الفهم، حينما اعترفت حبيبة البطل للخادمة بأنها لا تستطيع الزواج من حبيبها هيثكليف، وفي هذه الأثناء كان هو في الجانب الآخر من المطبخ ولم تنتبه له، فقام خارجا، بل مغادرا ذلك المكان، بينما هي أكملت كلامها بأنها برغم ذلك لا تستطيع الحياة بدونه، فهو الصخرة التي تستقر عليها حياتها.. لكنه مع الأسف لم يسمع بقية كلامها، وإنما سمع النصف الأول منه، ولم تكن عودته إلا للانتقام منها ومن زوجها وعائلة زوجها بل وحتى من ابنتها. إنه الغضب بل الحقد الذي يولد من سوء الفهم، ومن الجمل الناقصة، والعجلة في إطلاق الأحكام. إنها رواية تؤكد مقولة سيغموند فرويد بأن الحقد هو حب معكوس، فبنفس قوة الحب سيكون الحقد، لاسيما حينما يكون المرء في المنطقة الأخرى، منطقة سوء الفهم.

نظرت إليه منبهرة وكأنما تكتشف شخصا آخر:

– هل تدري، أنا قرأت هذه الرواية وشاهدت الفيلم، لكني لم أفهمه بهذه الطريقة. أنا فهمتها كرواية مأساوية عن حب مأساوي لم

يتحقـق نتيجـة للفـوارق الطبقيـة فدفع بأبطاله إلـى جحيم الغيرة. إنـك الآن فتحـت ذهنـي علـى جوانب لم انتبه لها. سـأعيد قراءة الرواية حينما أعود لألمانيا.

– يمكن فهمها هكذا أيضا، فهي كذلك في مسار أحداثها لكن ليس في الصراعات والتحولات النفسـية في أعماق أبطالها. ثم لماذا بالألمانية؟ ألا يمكنك قراءتها بالتركية؟

– أنا لا استطيع القراءة الأدبية بالتركية. أنا أتحدث بطلاقة وأستطيع الحديـث فـي مجـال اختصاصـي جيـدا، لكـن القـراءة العميقـة أسـتطيعها بالألمانيـة، لغتـي الحقيقيـة هـي الألمانيـة، فقد ولدتُ هنـاك وترعرعـت، ودخلت المدرسـة هناك بـل إن جميع مراحل الدراسة كانت في ألمانيا، أما التركية فكانت لغتي البيت.

– هل أنت تركية بالكامل؟

– نعـم، لكنـي أشـعر بازدواجيـة الانتمـاء، وهـذا ما يقلقنـي، فلا أنا بالتركية، ولا أنا بالألمانية، صحيح ولدتُ هناك، وأفكر بالألمانية، لكني لستُ ألمانية، بل إن الألمان أنفسهم لا ينظرون إليّ هكذا حتى لو عشـت عمري كله بينهم، صحيح أني أحمل جنسـيتهم، لكن أنا إنسانة بلا جذور.

– هل أنت فنانة؟

– لا

– لكنك قلت بأنك درست الفن

– نعـم، درسـت تاريـخ الفـن، لكن دعنا من كل هـذا. أخبرني عنك فقدت أثرت فضولي

– أنا أثرت فضولك. بماذا. بعقليتي الشرقية المتعجرفة كما تقولين

– أنا أعتذر عن القسوة في حكمي عليك

– بالمناسـبة، ربمـا أنـت محقـة. أنا شـخصيا لا أعرف نفسـي جيدا، وأحيانا أتسرع في أحكامي وعواطفي..

– لا يبدو لي ذلك..
– بلى
– هل عشت خارج بلدك، أقصد في أوروبا؟
– لا. في اسطنبول وطبيعي كنت في الجزء الأوربي منها، لكن هذا لا يعني أوربا، لماذا؟
– لأنك تفكر بطريقة متحضرة
– ولماذا تعتبرين أبناء الشعوب الأخرى من غير الأوربيين بأنهم غير متحضرين؟ في النهاية نحن أحفاد حضارات إنسانية مهمة
– لا أقصد ذلك، وإنما عقليتك، رؤيتك للأمور مختلفة عن الرجال الشرقيين.
– لا أعتقد. أنا إنسان شرقي، ربما الأمر له علاقة بالتربية وليس بالحضارة، ثم أنك لم تجيبي عن سؤالي. من أنت؟ لماذا أنت هكذا؟ لا أتصور أن امرأة، لا يهم هنا جنسها، أوروبية أو شرقية، تذهب مع رجل وهما ثملان، ويفعلان ما يفعلان. ثم تستاء منه وتحاول استرداد كرامتها لأنه أشاح بنظره عنها؟ هذا غير طبيعي، ولا تفعله أي امرأة إلا أذا كانت مجروحة الكرامة، وتم معاملتها وإذلالها لمدة طويلة.
– أوه. دخلنا في علم التحليل النفسي..
– ثم ماذا؟ يمكننا أن نحلل كل الأمور وفق آلياتها. وحينما نقترب من النفس فأننا نحتاج لعلم يساعدنا والتحليل النفسي هو هذا العلم..
– ليس دائما.
– أتفق معك أنه ليس دائما، لكن في كثير من الأحيان
– يستطيع الإنسان أن يحلل ذاته إذا ما كان يمتلك وعيا ذاتيا لذاته.
– عليه أن يمتلك الشجاعة لمواجهتها..
– هذا صحيح. لكن ليس من السهل القيام بذلك

– أنت شجاعة، وأعتقد أنك قادرة على مواجهتها..
– تقصد لديّ الشجاعة على الاعتراف..
– نعم
نظرت إليه بتفحص وهي تقرأ ما يدور في ذهنه
– أتود أن أعترف؟
– إذا كنت تودين ذلك، لأني أحس أنك تبحثين عن إنسان تلقي أمامه حملك الثقيل، تبحثين عن فرصة للاعتراف. وأعتقد أنه حانت الفرصة لذلك..

نظرت إليه وكأنها تطلب منه أن يطلب منها ويشجعها أكثر على الاعتراف لأنها ما زالت مترددة.

كلما استمرت حواء المؤمن في القراءة، زادت قناعتها بأن زوجها الدكتور آدم التائه كان يقصدها حينما يتحدث عن المهندسة التركية حواء كوناي، لكن يا له من كذاب، يحاول أن يبين بأن الآخرين سيئون وأنه هو الإنسان الوحيد الذي لا يخطئ.

لقد أحست أن حواء كوناي قريبة منها، لذا لم تتوقف كثيرا عند هذا الفصل وإنما أرادت مواصلة القراءة لتستمع إلى اعترافات حواء كوناي.

انتبه آدم البغدادي إلى تعليق حواء المؤمن ووصفها للدكتور آدم التائه بالكذاب، وهو توصيف أخلاقي وشعبي لعملية تغيير الأحداث والحقائق وإعادة صياغتها ونسبتها إلى آخرين، فهي لا تفهم العملية الإبداعية والجمالية ومفهوم الفن والإبداع عموما، لكن هل فن الرواية هو فن الأكاذيب المقدسة؟.

(8)

صمتت فجأة، وشحب لونها، ونظرت في كأسها. ألهت نفسها بصب القهوة في الكوب بالرغم من أنه لم يكن فارغا. كانت تريد كسب الوقت. هل تقول ما عندها أم لا؟ أخيرا انبسطت أساريرها لكن نظرتها ظلت حزينة وكأن ألما دفيناً كان يرقد في أعماقهما. رفعت رأسها ونظرت إليه وكأنها تريد أن تقرأ شيئا في وجهه، ثم قالت:

- المرأة التي تجلس أمامك والتي تعتبرها إنسانة شجاعة وقوية هي إنسانة محطمة من الداخل.

نظر إليها نظرة متسائلة وقال:

- أنت؟

- نعم أنا إنسانة محطمة وضعيفة جدا من الداخل، وشراستي التي تراها قوة وشجاعة هي محاولة يائسة للدفاع عن نفسي من احتلال الآخرين لي ولعالمي وشخصيتي.

صمت آدم المطرود بينما كانت هي تتوقع أن يعلق شيئا على ما قالته فانتظرت لحظة، وحينما لم يقل شيئا واصلت حديثها بهدوء وبنبرة ألم وكأنها تسترجع شريطا سينمائيا يعُرض على شاشة ذاكرتها، فقالت:

- ولدتُ في ألمانيا. أنا الوحيدة لوالديّ. كانت أمي قد هربت مع أبي من تركيا، وأبي كان عاملا بسيطا، لكنه مات في حادث مؤسف أثناء العمل، كنتُ حينها في السادسة من عمري.

بقيتُ وحيدة مع أمي التي خافت الرجوع إلى تركيا، وأرادت لي أن أتعلم وأواصل دراستي في ألمانيا، ولم تشأ أن أواجه نفس مصيرها القاسي الذي كان ينتظرها في قريتها البعيدة في أقاصي شرق تركيا،

لذا عشنا أول الأمر من التقاعد الذي خلفه لنا والدي، ولكن بمرور الوقت، وارتفاع الأسعار للحاجات والحياة عموما، وبنمو جسدي واتساع دائرة حاجاتي سواء الشخصية أو المدرسية لم يعد مبلغ التقاعد يكفي، فاضطرت أمي للعمل في مصنع للعطور خارج مدينتنا الصغيرة.

كانت أمي المسكينة تستيقظ في الخامسة فجرا لتعد لي الفطور وأحيانا وجبة الغذاء ثم تمضي للعمل، وكانت تعود مع هبوط الظلام لتعد لي العشاء وأحيانا تطبخ بكمية كبيرة لعدة أيام كي لا أجوع حينما أعود من المدرسة.

ما زلتُ أذكر حينما كانت تعود إلى البيت تعبة عند المساء،بالكاد كانت تقف على قدميها، فتتمدد على الصوفا القديمة التي لدينا وتطلب مني أن أدلك قدميها، بل وكثيرا ما كانت تغفو أثناء تدليكي لهما، لكنها كانت تفز بعد وقت قصير لتقوم بإعداد وجبة العشاء، أو لغسل الملابس، ولم تشأ أن أساعدها لأنها كانت تقول لي لا تفكري بشيء ولا تشغلي نفسك بشيء سوى الدراسة.

وفعلا كنت جيدة في دراستي بل حينما أنهيت الدراسة الثانوية حصلت على درجات عالية جدا تؤهلني لدخول الجامعات العلمية لكني اخترت دراسة الفن، وكنت قد حصلت حينها على الجنسية الألمانية بعد بلوغي الثامنة عشرة على الرغم من أن أمي لم تحصل عليها وإنما على الإقامة فقط، كما حصلت على منحة المساعدة الدراسية التي تقدمها الدولة للمحتاجين الذين لا يستطيع أهلهم الأنفاق عليهم لمواصلة دراستهم.

كانت أمي سعيدة بل فخورة بتقدمي الدراسي ونجاحي الباهر، وكأنها انتصرت على قدرها، لكنها كانت واهمة لأنها لم تستطع أن تتمتع بنصرها طويلا إذ أن الموت أخذها مني ورحلت معه إلى عوالمه الغامضة.

حينها لم أكن ناضجة بما فيه الكفاية. وكنت على الرغم من روح التمرد التي تغفو في داخلي ما زلت أسيرة التقاليد التي ورثتها عن أمي.

لم يكن لدينا أقارب سوى العم آدم كوناي الذي كان يُعد من أقارب أبي البعيدين.كان هذا العم البعيد أرملَ، ويعيش مع ابنه آدم تورك الذي كان يكبرني بعامين تقريبا. لا أريد أن أشوه صورة أمي لكني كنت أحس بأن ثمة علاقة قوية تربطها بالعم آدم كوناي. بالمناسبة، حين سمعت باسمك انجذبت إليك مباشرة، فهو اسم محبب لنفسي. آدم.

العم آدم كوناي كما أخبرتني أمي ذات مرة، ولم تكرر ذلك الحديث قط، عاقب زوجته، أم آدم تورك، إبنه، لأنه كان يشك أن لها علاقة بقريب لها، فطلقها وأرسلها إلى قريتها التي تقع في جنوب شرق تركيا، في منطقة هكاري.

كان يشك في أن آدم تورك ليس ابنه، وإنما هو ابن ذلك الرجل الذي كان يعيش في مدينة قريبة من مدينتنا، والذي وجد مقتولا في شقته ذات يوم. وبرغم أن الشكوك كانت تحوم حول العم آدم كوناي لأن زوجته أم آدم تورك أتهمته بقتله، إلا أن الشرطة لم تجد أي أثر للجريمة. عموما ماتت أم آدم تورك في قريتها بعد سنوات، وظلت علاقة العم بابنه آدم تورك سيئة جدا، وكان آدم تورك يكرهه أيضا، أو على الأقل لا يحبه.

على أية حال، لا أدري ما هو سر العلاقة بين أمي وبين العم آدم كوناي، لكنها حينما انهارت صحيا وكانت على مشارف الرحيل طلبت مني أن أتزوج آدم تورك ابن العم. لم استطع أن أرفض لها طلبها الأخير، بيد أني لم استطع أن أكشف لها مصيبتي الشخصية، بل لا أخفيك، وربما يبدو كلامي لا إنسانيا وقاسيا إذا ما قلت إني شعرت ببعض الراحة عند موتها، لأني أحسست أن موتها جنبها عار فضيحتي، إذ لم أكن حينها عذراء، وأنت تعرف ماذا يعني ذلك لامرأة شرقية، وسأحكي عن ذلك.

بعد موت أمي كنتُ مضطرة أن أتواصل معهم وكأنهم من تبقى لي في هذه الدنيا. كانت مسألة زواجي من آدم تورك وكأنها تحصيل حاصل، فهم يعيشون وحدهم وأنا المرأة الوحيدة التي بينهم، وكنت أحيانا أعود للعيش في شقتنا المؤجرة. عند المساء كان آدم تورك يأتي

ليأخذني عندهم، وأحيانا كان العم آدم كوناي يأتي إلي، وحينما كنت أريد أن أبقى لأغسل ملابسي أو أعد لبحث دراسي مطلوب مني، كانا يأتيان للمبيت في شقتنا.

كان العم آدم كوناي قد فاتحني بموضوع الزواج من ابنه مرات عدة، وكنت أتهرب من الموضوع متحججة بالدراسة، لكني كنت أوفر لنفسي المال كي أجري عملية ترقيع لغشاء البكارة المفقود، وكنت قد استطلعت عن الموضوع من بعض الفتيات التركيات والعربيات اللائي أعرفهن، وفعلا أجريت العملية في مدينة بعيدة نسبيا عن مدينتنا.

وبعد نهاية السنة الثانية من الجامعة، وفي العطلة الصيفية وبعد مرور سنة وثمانية أشهر من رحيل أمي، تزوجت من آدم تورك.

لم أكن أحب آدم تورك لكني كنت استلطفه، ولم أكن مرتبطة عاطفيا بأي كان، وكل تجربتي كانت لا تتجاوز اندفاعات مراهقة تملك حرية واسعة بالقياس إلى الكثير من الفتيات، لغياب الأب وانشغال الأم.

كنت أقيم علاقة مع شاب ألماني لم نتجاوز القبل السريعة المسروقة، لكن أحد الشبان الأتراك تشاجر معه من أجلي وهدده، فخاف صديقي الألماني وتركني للشاب التركي آدم عصمان، الذي أول من لامسني وداعب جسدي، ومارس معي أول الأمر من الخلف حفاظا على بكارتي، وبقيت معه إلى أن أنهيت الثانوية، ولكونه كان يعمل في سوق الخضار الكبير مع أخوته وأبيه فلم يتمكن من النجاح وإنهاء الدراسة الثانوية.

مع آدم عصمان عرفت أفراح الجسد. لم تكن العلاقة طبيعية أول الأمر حيث كان يأتيني من الخلف، وكنت في البداية أكره ذلك، وأكره نفسي، وأشعر بالألم والاختناق، لكني مع مرور الوقت، واستمرار المداعبات والشبق تعودت، بل وكنت أطلب ذلك بنفسي في لحظات معينة من التهيج، نعم تعودت على ذلك بل وأحببته، لكنه كان أيضا يداعبني من الأمام، ولا أدري كيف إننا في لحظة تهيج وشبق التحمنا، واخترقني.

ليت ذلك لم يحصل، لأن آدم عصمان بدأ يتهرب مني، وابتعد شيئا فشيئا، ربما لأنه خاف أن أطالبه بالزواج مني، لكني تجاوزت الفضيحة من خلال صديقاتي التركيات والعربيات، وبالتحديد إحدى التونسيات التي كانت قد رتقت نفسها لثلاث مرات. وهكذا تزوجت آدم تورك.

كان عرسنا متواضعا. احتفلنا في إحدى المطاعم التركية، ثم انتقلنا إلى شقتهم. شقتنا أنا وأمي بقيت فارغة. لكني لن أنسى تلك الليلة ما حييت.

مشكلتي مع آدم تورك أنه شبح، ظل إنسان، فعلى الرغم من أنه شاب وسيم قوي البنية، لكنه كان بلا شخصية، إذ طغت عليه شخصية أبيه الذي تجاوز منتصف الخمسينات، الوسيم، القوي البنيان. لم يكن لدى آدم تورك أي رأي أو وجهة نظر خاصة، كان رأيه من رأي أبيه، وحتى إن كانت لديه وجهة نظر فأنه لم يكن يعترض أو حتى يكشف عنها أو يبدي رأيه.

في تلك الليلة كنا أنا وهو في شقتهم، فقد ذهب الأب لينام بعد انتهاء حفل الزفاف في شقتنا، إذ كان يوما متعبا حقا. قبل ذلك طلب العم من جيرانهم أن يساعدوني في إعداد نفسي وتجهيزها، ثم ذهبنا أولا إلى المسجد لنتزوج على الطريقة الإسلامية، بعدها إلى المحكمة للتسجيل الرسمي، ومن ثم السياحة بالسيارة في أزقة المدينة، ثم إلى المطعم الذي أكتظ بأصدقاء وأقرباء العم.

على أية حال، تلك الليلة التي كانت بالنسبة لي كارثة بكل المقاييس، إذ أحسست أن آدم تورك مرتبك جدا. حاولت أن أساعده. تخففت من ملابسي ولبستُ ثوبا شفافا جدا يكشف عن كل شيء تحته، حتى وكأني عارية كليا، ثم استلقيت على السرير بوضع مغرٍ منتظرة، لكنه لم يأت.

كان قد ذهب إلى الحمام وبقيَ هناك فترة طويلة. ناديته لكنه لم يجب. حينما عاد وجدته شبه منهار. دعوته للاقتراب مني فاقترب. لقد كان طائعا. أحسست أنني أقوى منه ويمكن أن أقوده، وأن أساعده، فهو

على أي حال صار زوجي، لكنه فجأة أخذ يبكي كالطفل. ارتبكت. بدأت أهدئه، فهدأ. ثم أخذت أنزع عنه ثيابه، وحينما وصلتُ إلى سرواله رفض أن انزعه. بدأت أشك في قدرته، وأردت أن أستكشف الأمر بنفسي. خلعت ثوبي فصرت عارية، اقتربت منه لكنه ابتعد خائفاً.

استلقيت على ظهري وطلبت منه أن يستلقي إلى جانبي ويسترخي. غطيت جسدينا بملاءة ناعمة، وبدأت أقترب منه، لكنه كان هامدا. بدأت أداعبه، فكان يستجيب، لكن بلا توهج أو إثارة. أخذت يده وبدأت أتجول معها في جسدي، فكان كالنائم. ترك يده في يدي، لكنه لم يبادر بأي شيء.

بدأت أشعر بالإحباط فسألته عن حاله وما يشكو منه، هل أني لا أعجبه، فأجاب كالمذنب، بأنه على العكس من ذلك، أنه يحبني جدا ويراني جميلة جدا، وأنه سعيد بزواجه مني، ثم أخذ بالبكاء مجددا، مؤكدا بأنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء. إنه يريدني، يريد أن يكون معي، لكنه لا يستطيع. سألته هل هو عاجز، فنفى أن يكون عاجزا، بل إن لديه شهوة جنسية عارمة، لكنه يضاجعني في خياله، وقد ضاجعني بشبق وعنف وجدارة مرات عديدة، لكن في خياله، حيث كان يمارس عادته السرية وأنا حاضرة في خياله، لكنه الآن عاجز رغم أنا عارية وجسدي بين يديه.

حاولت مساعدته، داعبته، أخذت أقبله من كل جهات جسده عسى أن يتأثر أو يتهيج، لكن دون جدوى. طلبت منه أن يريحني، فأنا متهيجة ومتوترة، كما ذكرته بأن العم ينتظر منه أن يريه رجولته ودم بكارتي.

حينها بدأ يبكي وألقى بنفسه بين يدي يقبلها، وانحنى ليقبل قدمي وهو يولول: خلصيني، أنقذيني، لأن أبي لو عرف سيقتلني ويزيلني من وجه الأرض.

أشفقت عليه، وأحسست أن واجبي أن أحافظ عليه من طغيان العم.

لم يكن أمامي سوى أجد مخرجا من هذه المحنة. تذكرت أن العم آدم كوناي كان يعاني من ارتفاع بسيط في السكر وأنه يحتفظ بجهاز القياس في الشقة، فأتيت بالجهاز وغرزت فيه الإبرة، وبدأت ألسع نفسي بالإبرة وأعصر إصبعي، فيخرج الدم منه فأمسحه بمنديل أبيض كان الأب قد أعطاه له ليضعه تحتي لحظة الفتح العظيم. كررت هذا الأمر مرات عدة وبمعظم أصابعي، وطلبت منه أيضا ذلك فوافق، حتى تلوث المنديل حقا بالدم، حينها قلت له أن يقدم ذلك لأبيه كي لا يشك بشيء.

في اليوم الثاني جاء العم ليستكشف الأمر. إنزوى مع زوجي آدم تورك ودخلا إلى غرفة أخرى، بينما حاولت أنا أن أشغل نفسي فدخلت إلى الحمام لأستحم وأعطيهما الفرصة لمناقشة مسألة فحولة الابن.

خرج العم مزهوا وكأنه هو العريس لأن الابن أثبت رجولته ورفع رأسه عاليا، وهكذا اجتزنا هذه المحنة. بعد ذلك تدهورت حالة آدم تورك إذ أصابته الكآبة، ربما لخجله أمامي، أو لعجزه عن مضاجعتي برغم رغبته فيّ، أو خوفه من أن يكتشف الأب الحقيقة.

لا أعرف بالضبط ما جرى له، لكنه صار حزينا، قليل الكلام، عصبي المزاج. أحيانا أحسست نمو روح التمرد فيه، إذ بدأ يبحث عن أعمال تتركه بعيدا عن البيت، حيث صار سائقا للسيارات التجارية الكبيرة التابعة لإحدى للشركات الكبرى التي تتيح له السفر لفترات زمنية طويلة.

كنتُ أفهمه، ولم أعترض على تصرفاته، لكن العم آدم كوناي كان لا يفهم كيف يترك العريس الجديد عروسه ليسافر أسابيع ويرجع في الشهر لبضعة أيام ليغادر ثانية. هذا الأمر مبعث توتر بينهما، لكني لاحظت أن آدم تورك صار أكثر ميلا إلى التمرد على أبيه، ويتحجج بأنه يريد أن يجمع المال ليضمن مستقبله ويكون نفسه.

تمرد آدم تورك النسبي على أبيه أثر على مزاج العم، فصار أكثر عصبية وصار يتأخر في المقهى الذي يرتاده الأتراك والذي يقع بالقرب من البيت، وأحيانا يأتي ثملا. أما أنا فأصبحت أكثر حرية. أتابع جميع

محاضراتي، لا أطبخ الطعام إلا نادرا إذ أن العم حسن تورك يأكل معظم وجباته في المطعم أو المقهى، بينما أنا آكل في مطعم الجامعة.

حين يعود آدم تورك في إجازة ليقضي أيامه بيننا أقوم بالطبخ. كنا نذهب معا إلى الدكان التركي الكبير، وكنا نقابل بعض المعارف من النساء والرجال فكانوا يسألون عن حياتنا الجديدة وهل هناك طفل في الطريق، فكنت أبتسم وأقول بأن الأمر بيد الله، وأنا ما زلت أدرس، وأمامنا وقت كثير، بينما كان الانزعاج يبدو على وجه آدم تورك.

وفي الليل، حينما ندخل إلى غرفة نومنا، كنت أحس فيه يحاول أن يقترب مني وكنت أرحب بذلك فأنا أيضا أحتاج إليه، لذا كنت أساعده، فقد لاحظت أنه صار أكثر جرأة مما كان عليه في الليلة الأولى، وفسرت ذلك بخبرة السفر وأحاديث أصدقاء العمل، وربما حصلت له بعض التجارب، والحقيقة لم أكن أعترض حتى لو حصل له ذلك لأني أرى أن ذلك ربما سيشفيه، غير أن محاولاتي لم تجد نفعا مرة أخرى، وهذا ما ترك تأثيراً سيئا جدا عليه، فهوى في بئر داخلية مظلمة.

أخذ آدم تورك يغيب لفترة أطول في سفراته، وأحيانا كان يراودني شعور أنه في إجازة لكنه لا يأتي للبيت وإنما ربما يراقبني من بعيد، لأني ذات مرة كنت خارجة من الجامعة فوجدت في الزحمة القريبة من شارع الجامعة شابا ظننته هو، وخُيل إليّ وكأنه يتبعني، فالتفت إليه وصعقني الشبه بينه وبين زوجي آدم تورك، إلا أن هذا كان يضع طاقية على رأسه، ولم يطرأ في ذهني لحظتها أنه هو لمعرفتي بأنه مسافر، وحينما أردت التأكد من ذلك التفت ثانية فلم أجده، إذ اختفى.

عموما، كان في بداية الأمر يسافر لمدة عشرة أيام أو أسبوعين كأقصى حد، لكنه صار يسافر لشهر أو أكثر. من جهة أخرى، ساء وضع العم النفسي، إذ صار يأتي إلى البيت أحيان وقد تعته السكر.

كانت تصرفات العم ونظراته إليّ تريبني. أحس في نظراته عتاباً

وكأنني السبب فيما جرى لحال آدم تورك، لكنه لا يجرؤ على مفاتحتي بذلك. أحيانا كان ينظر إلي نظرات غريبة، فيها ما فيها من الرفق والشفقة، والرغبة العمياء وكأنه يحسد ابنه على وجود امرأة مثلي معه بينما هو يختفي. كان ثمة صراع خفي في أعماقه ما بين بقايا رجولته وبين دوره الأبوي.

كنت حينها قد أنهيت المرحلة الثالثة بتخصص تاريخ الفن، وكنت أعيش تناقضا بين ما أدرسه من غوص في علم الجمال، والعلاقة ما بين الجمال الروحي والحب الجسدي وتحولات هذه العلاقة، وبين ما كنت أعيشه من تناقضات. كنت أعاني كثيرا.

ذات يوم لمحت صديقي الأول آدم عصمان من بعيد. هو لم يرني لكني لمحته. أحسست بالرغبة العارمة. ذلك اليوم نفسه دخلت مكتبة الجامعة أفتش عن كتاب (معنى الحب) لفيلسوف روسي اسمه (فلاديمير سولوفيوف) عاش قبل الثورة البلشفية. حينها أردت أن أكتب بحثا فصليا عن الايروس في الفن، فأخبرتني موظفة المكتبة بأن هناك نسخة منه استعارها أستاذ أجنبي، لكنه أراد أن يتصفحه في المكتبة ويمكنني إذا ما كنت في حاجة ماسة للكتاب أن أنتظر فربما سيعيده قبل نهاية الدوام لأنه لم يرغب في استعارته لفترة طويلة، وأشارت إليه بشكل غير مباشر.

إلتفتُ إليه. كأن ثمة شرارة كهربائية مستني. رأيت رجلا في منتصف الثلاثينات من العمر، حنطي اللون، وسيماً بشكل ملفت، تلك الوسامة التي لا تشبه وسامة نجوم السينما وإنما وسامة الأبطال القادمين من متاهات التاريخ. ربما لا تصدق إذا ما قلت إني توجهت إليه لا إراديا وجلست على الكرسي المقابل له ولم تفصل بيننا سوى الطاولة.

نظر إليّ وابتسم مجاملة. تلك الابتسامة التي نمنحها تعبيرا عن الترحيب والسلام، فابتسمت له. راودتني رغبة غامضة في أن أحدثه، فسألته إن كان يكتب بحثا عن سولوفيوف؟ انتبه إلي وتوقف عن القراءة. نظر إليّ وقال مبتسما بأدب:

- لا، أنا أتصفح الكتاب لأن علي إعداد محاضراتي في علاقة الإيروس بالثقافة، وسولوفيوف له رؤية مهمة في هذا الموضوع.

كان يتحدث بألمانية واضحة اللكنة الأجنبية، لكنها صحيحة من الناحية النحوية وسليمة البناء، فدفعني الفضول بأن أسأله:

- من أين حضرتكم؟
- من مصر
- أوه. من أرض الفراعنة

ابتسم وقال:

- نعم من أرض الفراعنة.
- تشرفنا. اسمي حواء كوناي
- تشرفنا. أنا آدم المصري

سألت نفسي عن هذه المصادفة الغريبة التي تجذبني لكل من يحمل اسم آدم، وهكذا تعرفت على آدم المصري. حينها تحدثنا بشكل موسع عن سولوفيوف.

- من هو سولوفيوف؟
- ألم يترجم إلى العربية؟
- لا أعتقد، فمعظم ما نعرفه فكريا وليس أدبيا عن الفترة الروسية القيصرية قليل جدا، ومن خلال ترجمات دار التقدم في موسكو، أي من خلال منظار سوفيتي.
- خسارة. فلاديمير سولوفيوف مفكر روسي وأحد مؤسسي نظرية الحب الفردي الإيروسي، وصاحب فكرة سمو وتعالي الشخصية الإنسانية عن طريق الحب وتجاوز الأنانية والبعث والكمال الأخلاقي للإنسان. في كتابه (معنى الحب) قدم تحليلا نقديا مفصلا للنظريات اللاعقلانية التي كانت منتشرة في الغرب على نطاق واسع، والتي طورها شوبنهاور الذي أكدا بأن الحب هو خدعة الطبيعة أو الإرادة التي تخدع الإنسان، عن طريق غريزة

جنسية قوية وتجعله أداة عمياء للتكاثر والانتقاء الجنسي، حيث أكد سولوفيوف أنه إذ عُد الحب مجرد وسيلة لاستمرار الجنس البشري فأنه يتحول إلى مجرد غريزة حيوانية بسيطة.

- رائع

- سولوفيوف أكد على الحب البشري، ففي رأيه أن الإنسان في الحياة الواقعية يرى نفسه مركز الأنانية بل ومركز العالم. يعامل المحيطين حوله انطلاقا من حاجاته ومصالحه الشخصية، ومن هنا فهو يرى الحب القوة الوحيدة القادرة على لجم الأنانية الفردية، دون أن يحذف السمات الفردية، بل يؤكدها ويتفهمها.

لهذا فأن مغزى الحب البشري هو تبرير وحماية النزعة الفردية من خلال التضحية بالأنانية، وهذا يحدث عن طريق الحب، فنحن نؤكد الأهمية المطلقة للفرد الآخر، فالحب هو إلغاء كامل للأنانية. إنه نقل اهتمامنا من الذات إلى الآخر، حتى أن سولوفيوف يرى أن الحب الجنسي بالذات هو القوة الرئيسة القادرة على لجم الأنانية الفطرية، لأنه وحده يحافظ على المساواة بين المحب والحبيب.

- يبدو أنك مؤمنة بأفكاره

- نعم، فمع اعترافه بأهمية الحب الجنسي، يتحدث سولوفيوف عن ضرورة استنارة الجسد واستلهامه، فالجانب الجسدي في الحب هام، لكنه لا يُعد الهدف الرئيس، ويمكن للحب الحقيقي أن يكون بدون اتحاد جسدي، كما يمكن للتلاحم الجسدي أن يكون بدون حب، وبعبارة أخرى، إذا ما أصبحت الفيزيولوجيا هي الهدف، فإنها تقتل الحب.

لا يدري المهندس آدم المطرود كيف انبثقت صورة حواء الصايغ من أعماق ذاكرته وتجسدت في ذهنه المتوقد، لاسيما حينما قالت إنه يمكن

للحب الحقيقي أن يكون بدون اتحاد جسدي، بينما لا تربطه بهذه المرأة التي تتحدث معه سوى شهوة عارمة. لم يعد يركز على حديثها الفكري لكنه انتبه أنها رجعت في الحديث إلى آدم المصري.

– أخذنا نلتقي يوميا تقريبا. انتبهت لنفسي بأني بدأت أعيش حياة مزدوجة، فأنا أعيش في البيت حياة شبه محافظة، بينما كنت مع آدم المصري أعيش السمو الروحي والجسدي. لم تبعد ملامساتنا عن القبل، حتى جاء ذلك اليوم الذي دعاني فيه إلى شقته الصغيرة جدا، وهناك لم استطع التفكير. حينما أراد أن يأخذني قلت له إني عذراء. لم يصدق. داعبني ليكتشف بنفسه، وسهلت عليه الأمر حينما قلبت نفسي ففهم، كنت معتادة على ذلك، كما أنه يعجبني.

مشكلتي مع آدم المصري أنه كان في إيفاد لمدة ثلاثة أشهر فقط، لكني، وهذا ما استغربت له ولا أزال، هو أنني لم أتأثر كثيرا برحيله، بيد أني كنت قلقة جدا. لكني، ولا أدري لماذا، شعرت بالذنب أمام العم الذي كان يوليني اهتماما خاصا، وكذلك أمام زوجي آدم تورك الذي أحسست أنه يحبني من أعماقه لكنه كان لا يجد حلا سوى أن يبتعد عن عالمي.

أحيانا لا أعرف نفسي جدا. كنتُ في حيرة عميقة مع أني كنت واثقة من ثقافتي ومعارفي بحيث يمكنني أن أعرف ما يجري لي، وسبب هذه الحيرة أني حينما ثانية التقيت آدم عصمان صديقي الأول في مكان ما، لم استطع إلا أن أحييه وأسلم عليه، ويبدو أن هذه السنوات التي فرقت بيننا قد أضفت عليّ نضجا أنثويا مثيرا، إذ وجدته معجبا وعاشقا مرة أخرى، بل وأكثر من الأول، وأخذ يلاحقني في كل مكان طالبا مني أن نلتقي ولو مرة واحدة في شقته، فقد صارت لديه شقة خاصة له.

كنت أعرف ما الذي سيكون بيننا، فمن حيث الثقافة والتعليم كنت قد تجاوزته، فأنا كنت في عامي الجامعي الرابع، بينما هو قد ترك الدراسة.

لا أدري كيف جاءتني الفكرة الجنونية كي أذهب معه لمرة، مشترطة عليه أن تكون المرة الأولى والأخيرة، ويكف بعدها عن ملاحقتي، وحينما كنا هناك وحدنا فقدت كل توازني وعدت تلك المرأة المهووسة بالجنس. لقد طلبت منه أن يعيد معي كل ما كان يفعله سابقا، بل وصرت أنا التي أتصل به وأبحث عن أية فرصة لمقابلته هناك.

لم يكن الأمر عليّ سهلا. لحظتها كنت لا أفكر بما أفعل، بل كنت أفكر بمتعة الجسد فقط. وكنت أشعر أني أعاني من ازدواجية الشخصية، فمن جهة أنا التي كنت أبتعد عنه فصرت التي تركض خلفه، وأيضا حينما أكون معه في الشقة أتحول إلى امرأة داعرة بكل معنى هذه الكلمة، لكن ما أن أفتح باب بيتي حتى أحس بالندم وبشعور هائل بالذنب وتصيبني حمى أخلاقية تدفعني باتهام نفسي بأني عاهرة رخيصة وساقطة. كان هذا الشعور يعذبني، وتنتابني هذه المشاعر الطهرانية أكثر حينما يصادف أن نسهر معا أنا والعم حسن في البيت وحدنا. كنتُ أحتقر نفسي، وأحس أن الإنسان كائن منحط ودنيء وسافل، أتدري لماذا؟

صمت آدم المطرود للحظات، كان يفتش عن جواب ينسجم مع أجواء هذه الاعترافات الهائلة، فقال بنبرة حزينة:

– ربما أدري، أو لا أدري، لكن كيف توصلت أنت إلى ذلك؟

– لم أصدق أن في أعماقي هذه المساحة من المستنقعات الآسنة؟

– في أعماقك أنت؟

– نعم.. أتدري ماذا فعلت؟

– لا

– بعد كل هذا الكم الهائل من الندم والحمى الأخلاقية بدأت أفكر بإغواء العم.

– ماذا؟

– نعم، هذا ما حصل. بدأت أرتدي الملابس المثيرة مساء حينما يكون موجودا، وأطلب منه أن لا يخرج من البيت مساء أو أن

يأتي مبكرا كي نسهر معاً.

انتبه هو لوضعي، وأحسست أن الأمر أعجبه أول الأمر، لكني كنت أرصد تحولاته النفسية. كان يتعذب بين رغبته فيّ وعلاقته الأسرية معي. صار يبتعد عني ويغيب أكثر عن البيت.

أنا وضعت أسس اللعبة لكني وجدت نفسي أسيرة هذه اللعبة أيضا. خرج الأمر عن كونه لعبة مجنونة إذ صرت أنتظره بلهفة، وأتمنى بحرقة أن يرجع مبكرا إلى البيت.

كنت أتمادى في الإغواء. أنام شبه عارية. أترك نفسي دونما أغطية عسى أن يجيء. كنت أنتظره ساهرة، وحينما أحس حركة المفتاح في الباب أسرع إلى السرير وألقي بنفسي عليه وكأنني أغط في نوم عميق، بعد أن أكشف عن مساحات من جسدي وأترك الباب مفتوحا. كان يقف عند الباب ثم يتقدم شيئا فشيئا ليغطيني. يقف لبعض الوقت يتأملني ثم يخرج.

تكررت هذه المشاهد مرات عديدة، وصار يتجنبني أكثر، بل وصار يأتي إلى البيت ثملا.

في تلك الفترة عاد زوجي آدم تورك إلى البيت ليقضي إجازته السنوية بيننا، وكان كعادته عاجزا، لكنه هذه المرة كان مختلفا، إذ كان يحمل معه بعض الأفلام الجنسية الإباحية، ولكي يشاهدها اشترى جهازا للعرض وتلفزيونا وضعهما في غرفة النوم. الغريب أنه برغم ضعفه كان يطلب مني ممارسات كتلك التي يشاهدها في تلك الأفلام. حاولت أن أجاريه، لكني لم أستطع، كنت أفكر في أبيه.

ذات يوم كنت قد أنهيت أحد امتحاناتي النهائية في الجامعة فرجعت مبكرة إلى البيت. دخلت دونما ضجة فسمعت صراخا بينهما. سمعت العم يعنف زوجي على سفره الدائم وتركي وحيدة، وأنه يجب أن يفكر فيّ، فأنا امرأة يمكن أن أخطئ إذا ما تركني بهذا الشكل، لأني كأي إنسان لي مشاعري وأحاسيسي ورغباتي، وإذا لم ينتبه لهذا الأمر فربما

يدفعني لطريق سيندم عليها. سمعت زوجي آدم تورك يدافع عن نفسه وعني ويقول بأنه واثق مني ومن أخلاقي، وإنه كان يراقبني دون أن أعرف وهو متأكد بأنني شريفة ولا يمكن أن أخطئ. فصاح العم به بأن للصبر حدوداً. أخبره زوجي بأنه خلال أيامه التي يقضيها بيننا يمتعني بحيث أرتوي لحين عودته، فسأله العم: لماذا إذن لا يراجع الطبيب ويأخذني أيضا لأنه مضى فترة طويلة على زواجنا وليس هناك حمل؟. إنه يريد أن يسمع صراخ وضحك وضجيج أحفاده في البيت. طبعا لم أستطع الدخول فرجعت متسللة إلى الشارع ثم دخلت ثانية مع كثير من الضجيج وكأني لم أسمع شيئا، لكني حينها كنت غاضبة مع نفسي ومن زوجي العاجز الذي أدعى رجولة مفقودة.

بعد أشهر أنهيت دراستي الجامعية. بحثت لفترة طويلة عن وظيفة لكن بدون جدوى. تركت المعلومات الكاملة عني وعن اختصاصي عند دائرة العمل التي وعدت بالبحث عن مكان يحتاج اختصاصي، لذا كنت أقضي معظم وقتي في البيت. أما زوجي آدم تورك فترك عمله كسائق، وأراد أن يفتح مطعما للمأكولات الشرقية، لكن أباه لم يشأ ذلك، وكان ذلك مثار جدل بينهما، فسافر آدم إلى تركية للاستجمام، ولم يسألني إن كنت أرغب في الذهاب معه. لقد تركني في دوامتي.

زاد اهتمام العم بي. كان مستاءً من خلافه مع زوجي آدم تورك. أخذ يشرب بشراهة. بينما كنت وحيدة. ولقتل الوقت، وبسبب الضجر المقيت وتأجج الرغبات الجسدية عدتُ للعبة الإغواء التي كففت عنها عندما كان زوجي في البيت، لكن هذه المرة أخذت الأمور مجرى آخر.

في تلك الفترة راودتني فكرة دراسة الهندسة، لاسيما وأن درجاتي في الاختصاصات العلمية عالية جدا، فقدمت طلبي وتم قبولي بعد فترة من الانتظار في قسم الهندسة المدنية.

ذات مرة كنت راجعة من الجامعة في وقت مبكر لإلغاء محاضرة

بشكل مفاجئ، وحينما دخلت البيت خلسة، إذ كنت أتوقع وجود العم في البيت، اكتشفت شيئا مذهلا.

لم ينتبه هو لدخولي. سمعت الصراخ والآهات الجنسية المثيرة تأتي من غرفتي. لم أدخل الغرفة وإنما ذهبت مباشرة إلى الحمام وأحدثت ضجيجا وضغطت ماسورة المياه، فارتبك وخرج من الغرفة، بعد أن أطفأ جهاز التلفزيون، فتقابلت نظراتنا، وكأنه كان يعلم بأني أعلم بوجوده وأني اشغلت نفسي. إنتبهت لملامحة المتهيجة. سلم علي وخرج قائلا أنه سيتأخر.

أنا خبيثة جدا. أشعر بالتقزز من تلك المرأة التي كنتها في تلك الفترة، ففي تلك الليلة زينت نفسي ولبست ثوبي الشفاف والمثير جدا يكشف أكثر عن جسدي كله دون أن يستر أي شيء، وتمددت على سريري بانتظاره. وضعت أحد الأفلام الجنسية التي جلبها زوجي في الجهاز، وأخت أشاهده، كنت مهتاجة وكنت انتظره. الغريب أنه تأخر تلك الليلة، لكنني بقيت منتظرة، وحينما عاد كشفت عن نفسي وعن المنطقة السفلى العارية من جسدي، وتمددت بطريقة مغرية بعد أن أخفضت من صوت التلفزيون الذي تركته يعرض الفيلم الجنسي الذي أخترته عن أب يضاجع ابنته حينما يرجع سكرانا فيجدها عارية في السرير فيخترقها وهي مستمرة ومستمتعة في النوم. هذا الفيلم شاهدته ذات يوم وحدي وأثارني جدا.

دخل العم الغرفة. ألقى نظرة على شاشة التلفزيون الذي كان يعرض مشاهد الفيلم الساخنة. جلس على حافة السرير وأخذ يشاهدني. حدق بشبق إلى جسدي العاري. سمعته يفح كالثور. حركت جسدي وكأني نائمة ثم فتحت فخذيّ، تحركت بعفوية. فجأة انحنى عليّ وأخذ يداعب فخذيّ. سحب ثوبي للأعلى حتى رقبتي فانكشفت له بكل جسدي.

وضع رأسه على بطني، وبأصابعه بدا يداعبني. كنت متهيجة، وربما انتبه إلى أني أتناوم ولستُ بنائمة، فهبط يقبلني من الأسفل. لا إراديا

كنت أتحرك متجاوبة رغم أني ما زلت أغمض عينيّ وكأني نائمة. فجأة قام عني وعن السرير. نزع عنه بنطاله وسرواله وسحبني إلى حافة السرير وفتح فخذي. كنت مبتلة ورطبة جدا، فأولجه فيّ بعنف وقوة حتى أني صرخت دون إرادة مني وسال دمي.

لم أشعر منذ فترة طويلة بمثل تلك النشوة. وأخيرا انتهت عاصفته في أعماقي. وكان ماءه غزيرا. لكنه ارتعب حينما وجد دم بكارتي. إذ قام منصرفا وهو يحمل بنطاله وسرواله مرعوبا، وكأنه استوعب ما فعل. أنا أيضا قمت إلى الحمام لأغتسل، وهنا انتبه هو إلى أني كنت مستيقظة.

في صباح اليوم الثاني وفي وقت مبكرُ طرق الباب الخارجي. لم يخرج هو، فلبست ثوبي وعليه بلوزة طويلة. وعندما فتحت الباب وجدت ساعي البريد الذي أعطاني برقية. لم افهم مضمونها، كانت بالحروف الألمانية، لكن مضمونها بالتركي. ولم أفهما جيدا، لكني فهمت بأن زوجي آدم تورك حصل له حادث. ذهبت مسرعة إلى غرفة العم، طرقت الباب فقام مرعوبا وخجلا في نفس الوقت، أعطيته البرقية، قرأها. فجأة انهار على السرير كبيت هدم بالديناميت. لم أسمع منه سوى صرخة هائلة:

– آدم تورك

– ما الذي جرى له؟

– مات في حادث

فجأة وجدت نفسي أنهار على الأرض باكية. أخذنا كلانا نبكي. ضممته إلى صدري. كان يبكي كالطفل، وكنت أبكي أيضا بحرقة وألم. كنت أبكي شفقة على زوجي آدم تورك وعلى نفسي، أبكي على انحلالي وسقوطي، أبكي على آدم الإنسان البريء والضحية. كنت أبكي وأصرخ بحرقة وصدق كأي زوجة تفقد زوجها الحبيب. تذكرت وجه أمي كيف كانت تندب أبي. كان العم برغم مصيبته وبكائه ينظر إلي مستغربا كل

هذا الحب الذي أكنه لزوجي آدم تورك.

لـم يكـن أمامنـا سـوى السـفر إلـى اسـطنبول فـي تركيـا. ذهبنـا إلى المستشـفى، وأخذنـا الجثـة ودفناهـا فـي إحـدى المقابر. هنـاك عرفنا أن الحـادث كان عابـرا ومـن غيـر قصـد. بقينا لأكثر مـن أربعين يوما، بعدها عدنا إلى ألمانيا، ولم يكن أمام كل منا سوى الآخر.

بعـد أيـام مـن عودتنـا إلـى ألمانيا، وفي ليلة ليـلاء طلب مني توضيح الأمر إذ سألني: هل كان ذلك دم البكارة حينما كان معي؟ فأجبته بنعم، فسأل عن آدم تورك وإدعاءاته بالفحولة؟ ودم البكارة صباح اليوم الثاني من الزفاف؟ والأفلام الجنسية التي كان يحملها معه كل مرة عندما كان يعود في إجازة؟ ولم يكن أمامي إلا أن أعترف له بكل شيء.

حينهـا غـرق العـم فـي دوامة صمت. كان مصدوما مما سـمع. فجأة أخذ يضحك بهستيريا، صار كالمجنون، ثم قام وفي عينيه نظرات غريبة. أخذني من يدي، بل يمكن القول جرجرني خلفه إلى السرير، عراني من ثيابي، ثم دفعني إلى السـرير، بل سـحبني إلى حافة السـرير، فتح فخذي وأولجه فيّ بقوة، بهستيريا. وطلب مني أن أقلد الأفلام التي كان يشاهدها، وكان يكرر كالمجنون: أنت قحبتي، أنت قحبتي.. ويسألني: من أنت؟ ثم يجبرني على الجواب: بأني قحبته، فكان يسألني وهو يدفعه فيّ بهستيريا: من أنت؟ فكنت أجيب: أنا قحبتك؟

الغريـب أنـي كنت أشـاركه أول الأمر بخـوف وفيما بعد بمتعة، وفي أول الأمـر لـم يعجبنـي جوابـي له بأني قحبته، لكني صرت أسـتمتع فيها في ما بعد وأقولها بصدق وهياج؟

كنت أحس في الوقت نفسه وكأني أرى واحدة أخرى تقوم بكل هذه الحركات، حواء كوناي أخرى تقوم بكل هذه الأشياء، وكان هو ليس هو، إذ صار مجنونا جنونا حقيقيا. لم يكن هو العم آدم كوناي أبدا. وكان هذا الأمـر يتكـرر بيننـا يوميـا تقريبا. كان يضاجعني في كل الأوقات، وفي كل زوايا البيت. في المطبخ، في غرفة النوم، في غرفة الاستقبال. وكنت أنا

مستمتعة بذلك رغم عنفه وتوجيه الشتائم والكلام البذيء لي، وإجباري بالاعتراف بأني قحبته وأني أموت فيه وأعشقه.

بعد أسابيع واجهتُ كارثة حقيقية هي اكتشافي أني حامل. لم أستطع تحمل الفكرة، ولم أشأ الاحتفاظ بالطفل، فذهبت إلى إحدى العيادات التي طلبت مني موافقة من مكتب تابع لإحدى الكنائس لأن الإجهاض ممنوع في ألمانيا. ذهبت إلى مكتب يعود لإحدى الكنائس وشرحت وضعي فوافقوا بعد أن عجزوا عن إقناعي بالاحتفاظ بالجنين. أجريت العملية، لكني كنت في وضع سيء، وتدهورت صحتي، لم أكن أتوقع أن الأمر سينتهي بكارثة أخرى.

ذات فجر، سمعت صوت طلقة جاءت من غرفة العم. فزعت، وحينما دخلت عليه كان ميتا، لقد انتحر.

اتصلت بالشرطة فجاءوا مسرعين. أُجري تحقيق استمر لأيام، لكن الحالة كانت واضحة بالنسبة لهم، إذ فسروا الحادث بأسباب نفسية. إنتحر لأنه لم يتحمل فقدان ابنه الوحيد.

لم تستطع المهندسة حواء كوناي أن تواصل اعترافها إذ قامت فجأة وخرجت من الغرفة. قام المهندس آدم المطرود خلفها، لكنها خرجت دون أن تقول أي شيء. لم يشأ المهندس أن يلحق بها إحتراما لمشاعرها وكم المعاناة الهائل الذي كان يتجسد في نبرة صوتها وملامحها حينما كانت تعترف له.

بقيَ آدم المطرود في غرفته مذهولا من هول الذي سمعه. إنها رحلة عبر الجحيم الأرضي، جحيم النفس التائهة. لا يعرف كيف ينظر إلى حواء كوناي، هل هي داعرة فاسقة ساقطة أم أنها قديسة تتطهر بنار الجحيم؟

لم تنتبه حواء المؤمن للدموع التي ترقرقت في عينيها. أحست أنها تعرف هذه المهندسة حواء كوناي التركية جيدا. صحيح هي نفسها غير متعلمة مثل تلك مهندسة، إلا أنها تعرف هذه المشاعر والمعاناة، وتعرف

معانـاة النفس حينمـا تصـل إلى الدرك الأسـفل مـن الفجور أيضا، تعرف جحيم الشهوة وغواية النفس والجسد.

انتبهـت حـواء المؤمـن بـأن زوجهـا الدكتـور آدم التائه لا يشـك فيها وحسـب بـل إنـه متيقـن بمـا جرى بين والده وبينها، لكنـه ربما يعتقد أنها هـي التـي أغـوت أباه، لأن المهندسـة حـواء كوناي هي التي أغوت العم، وقد اعترفت بذلك، وهو هنا وضع المهندسة بدلا عنها.

سـألت حـواء المؤمـن نفسـها: تُـرى من أين أتى زوجهـا الدكتور آدم التائه بمسألة الممارسة من الثقب الآخر، من الخلف؟ هل يعرف يا تُرى ما جرى بينها وبين حبيبها الأول؟ من أين لديه كل هذه المعلومات؟.

سـألت حـواء المؤمـن نفسـها أيضـا: لمـاذا يغير زوجهـا الدكتور آدم الحقائق؟ لماذا لا يكتب عن الأشياء كما هي؟ لماذا لم يكتب عن عقوقه بحق والده وكيف القاه في دار للعجزة؟ ثم هل هو يشك في علاقة والده بأمه؟ وما قصة أم آدم تورك وقريبها، وشك العم آدم كوناي في كون آدم تورك ليس ابنه ومن صلبه؟

تُرى ما علاقة ذلك بالدكتور آدم التائه، هي لم تسمع بمثل هذه الأمور في بيتهم، لكنها تعرف أن علاقة الوالدة الطيبة كانت سيئة جدا بزوجها وكان هو قاسيا جدا معها، وكأنها ليست زوجته؟

تُـرى هـل علاقـة الدكتـور آدم التائـه بأبيه هي نفسـها علاقـة العم آدم كوناي بابنه؟ ثم لماذا يكتب بهذا الشـكل المفضوح؟ لماذا يصرف وقته وأعصابـه لكتابـة مثـل هـذه الأشـياء المفضوحـة التي يخجل الإنسـان أن يواجه نفسه معها؟

كان الحـزن قـد تغلغـل بعمـق إلـى روح حواء المؤمن، وأحسـت أن هناك أشـياء مشوشـة وغير مفهومة؟ فكرت أن زوجها يكتب عن نفسـه لكنه يكذب كثيرا، فهو لا يسمي الأشياء بأسمائها؟

عليها أن تقرأ بحذر وتفتش عن نفسها في كل سطر. ألقت نظرة إلى الساعة المعلقة على الجدار، كانت قد أنفقت أكثر من ساعة ونصف من

الوقت في القراءة.

قامت من مكانها واتجهت إلى المطبخ لتصب لنفسها كوبا من القهوة، ثم عادت لتواصل القراءة.

انتبه آدم البغدادي إلى ملاحظات الدكتور آدم التائه على نصه الروائي. أعجبه محاولاته لاقتناص المسارات التي تقود إلى ينابيع الإبداع، كما توقف عند اعترافات المهندسة حواء كوناي مفتشا عن أصول الشخصية الروائية ومصادرها الحقيقية في الحياة.

هل تُرى لملم الدكتور آدم التائه تفاصيل هذه الشخصية من تفاصيل شخصية لامرأتين أو ثلاث من النساء التركيات أو العربيات اللائي تعرف إليهن ليركب منها شخصية المهندسة حواء كوناي. فجأة ابتسم آدم البغدادي مع نفسه، وسأل: لماذا يبحث في شخصية الدكتور آدم التائه ولا يبحث في حياته هو، أوليس هو الذي صنع شخصية الدكتور آدم التائه؟.

(9)

أفاق المهندس آدم المطرود فوجد نفسه في المستشفى الحكومي، في غرفة شبه فارغة إلا من السرير الذي يرقد عليه، وقربه طاولة وضع عليها بعض الأدوية. انتبه إلى أن إحدى قدميه مقيدة بالسرير، وقرب الباب يقف أحد رجال الشرطة، وكانت يده مربوطة بإبرة مرتبطة بقنينة المغذي، لذا لم يستطع أن يحرك جسمه ولا أن يجلس بشكل طبيعي أو أن يحرك يده بحرية.

دخل المحقق آدم التكريتي مع أحد الأطباء وخلفهم وقف الشرطي عند الباب. بادر الطبيب إلى قياس ضغطه ونبض قلبه، ثم خاطب المحقق قائلا:

– يمكنه أن يخرج الآن. كان لديه انخفاض حاد في ضغط الدم والسكر. الآن كل شيء طبيعي. يمكنه أن يذهب معكم. سأذهب لأعّد لكم أوراق الخروج.

قال الطبيب ذلك وغادر الغرفة. بقيَ المحقق آدم التكريتي ينظر إليه نظرات متفحصة ثم قال بسخرية:

– هل أنت ممثل أم مهندس؟

لم يجب المهندس آدم المطرود، بينما استمر المحقق في تعليقه الساخر:

– بالأمس أغمي عليك أثناء التحقيق، وحين أردنا مساء أن نواصل التحقيق معك، مثلت دور الذي على شفى الموت، حتى نقلناك للمستشفى لتنعم بالراحة والعناية.

لم ينتظر أية إجابة وإنما التفت إلى الشرطي وقال له:

– ساعده على الخروج. أمامنا عمل كثير، وقضايا كثيرة، لننتهِ من هذه القصة الموجعة للرأس.

قال ذلك ثم خرج. بعد لحظات دخل ممرض وفك الإبرة عن معصم المريض، كما قام الشرطي بفك قيده الذي يربط قدمه بالسرير، وبعدما حرر قدمه وضع القيد في يده، وخرجا بينما بقيَ الممرض في الغرفة.

في السيارة التابعة لجهاز الشرطة كان المهندس آدم المطرود جالسا وقبالته كان الشرطي، وكانت السيارة تجتاز شوارع بغداد المزدحمة.

في شارع الأميرات بمنطقة المنصور ثمة مبنى من ثلاثة طوابق يحمل لافتة كبيرة تغطي واجهة الطابق الثاني تحمل اسم (شركة الفردوس للتجارة العامة). دخل المهندس آدم المطرود المبنى واقترب من المصعد ليقرأ أسم الشركة والمكاتب الأخرى على لوح مجاور، فعرف أن الشركة تحجز الطابق الثاني برمته، بينما كان الطابق الأول يحمل أسماء طبيبين أحدهما لأمراض القلب وآخر لأمراض وجراحة العيون، ولم يكن هناك ما يشير لأي جهة تحتل الطابق الثالث.

حينما خرج المهندس آدم المطرود من المصعد وجد نفسه في صالة استقبال الشركة مباشرة، وبالمقابل كانت طاولة كبيرة تجلس خلفها فتاة جميلة الملامح أنيقة الملبس، وكان من الواضح أنها تقوم بمهمة مديرة المكتب أو السكرتيرة.

على جانب من القاعة طاولة أخرى، لم يكن هناك من يجلس خلفها، وعلى الجانب الآخر ثمة حواجز تشير إلى أن خلفها تبدأ مكاتب الإدارة والمدير المسؤول.

على جدران القاعة تتوزع لوحات فنية بعضها أصلية وثمينة وبعضها إعادة رسم وتقليد لكنه متقن أيضا. كانت هذه اللوحات تجسد ذائقة واهتمام نبيل الولهان الذي تحدث عنه حينما تعرف عليه وزوجته حواء على ظهر المركب البحري في تركيا، فموضوعات اللوحات كانت شرقية،

بيع جواري في سوق النخاسة، اغتصاب نساء شرقيات، حمام نساء، منظر طبيعي من الشرق.

انتبهت السكرتيرة إليه لكنها لاحظته يتأمل اللوحات باستمتاع واهتمام، ولما أحست أنه استعرضها جميعها وبشكل سريع سألته:

– عفوا أستاذ، هل من خدمة أستطيع تقديمها؟

ابتسم المهندس آدم المطرود لها بثقة وقال:

– أنا المهندس آدم المطرود. جئت لمقابلة الأستاذ آدم الولهان.

– أهلا وسهلا أستاذ آدم.. هل لديك موعد معه الأستاذ آدم؟

– لا، إنني جئت بلا موعد مسبق. إذا كان مشغولا فسأمر مرة أخرى

– لا. لحظة من فضلك، سأسأله إذا كان لديه مجال للقائك، تفضل بالجلوس وخذ راحتك.

أشارت إلى الكرسي الذي أمام طاولتها بأن يجلس، وقامت هي بدورها إلى إحدى الغرف التي تقع خلف الحاجز. جلس المهندس آدم على الكرسي والتفت يتأمل إحدى اللوحات التي عرف أنها تقليد لإحدى لوحات الرسام الروسي سوريكوف، ولم تمض إلا لحظات حتى سمع وقع أقدم وجلبة، فالتفت ليجد آدم الولهان يسبق السكرتيرة بالترحيب الحار.

– أهلا وسهلا أستاذ آدم، يا لها من مفاجأة، متى وصلت؟

تصافحا بحرارة وأخذه آدم الولهان من يده واتجها إلى المكتب وهما يتحدثان:

– أنا هنا منذ أكثر من أسبوع، لكني تصورت أنكما ربما لم ترجعا بعد..

– فعلا. نحن رجعنا أمس

– كيف حال السيدة حواء؟

– إنها ممتازة دائما. تتذكرك على الدوام، وكانت تستعجل العودة إلى بغداد كي تحّضر كتاباتها. إسمع، أنا لدي حديث مطول مع

بعـض الـوكلاء المهميـن. لم انته بعد مـن اجتماعي معهم. لكني قطعت الاجتماع حينما قالت السكرتيرة إنك هنا. أفضلُ شيء أن تأتي إلينا هذا المساء. أنا أدعوك إلى العشاء. سيكون هناك ضيف آخر. حواء ستفرح فرحا عظيما بوجودك. ما رأيك؟.

لـم يتـرك آدم الولهـان أي خيـار أمـام آدم المطرود إذ كتب له العنوان على ورقة ملاحظات صغيرة. كانت سعادة المهندس أكبر من أن توصف. إنه سيرى حواء مساءً، فقال بارتباك:

– رائع. سأكون عندكم هذا المساء، لكن كم الساعة؟

– في الثامنة..

تصافحا ثانية وخرج آدم المطرود من عنده، وحينما وصل إلى مقربة من السكرتيرة انفتح باب المصعد وخرجت منه امرأة جميلة ومثيرة لكنها ليسـت من طراز السـيدة حواء الصايغ وإنما من طراز تلك النسـاء اللاتي يتحدث عنهن دستويفسكي، النساء الجميلات مع شيء من العفونة.

لاحظ أن السكرتيرة ارتبكت لدخول السيدة بحضوره، كما انتبه إلى أنها قامت باحترام للسيدة، وقالت لها بارتباك وكأنها تريد أن تموه على شيء:

– أهلا وسهلا مدام ايفا، الأستاذ بانتظارك.

لم تنظر السيدة ايفا إلى آدم المطرود وإنما شقت طريقها إلى المكتب. أدرك هـو أن آدم الولهـان لـم يكـن واضحـا معه، فهـو لم يذكر بأنه ينتظر أحدا، وإنما قال له إن لديه اجتماعاً. لم يأبه للأمر كثيرا من فرط سعادته بلقائه القريب مع حواء.

لم تفهم حواء المؤمن لماذا ترك زوجها قصة المهندسة التركية حواء كوناي حتى النهاية. كانت متلهفة لسماعها، وما جرى معها بعد أن تركت الغرفـة؟ وكيـف عاشـت بعد موت زوجها وانتحـار العم؟ وكيف صارت

مهندسة، وكيف انتهت قصتها؟

لماذا يترك زوجها النهايات مفتوحة على المجهول؟

أرادت أن تعرف نهاية هذه القصص المتداخلة، والتي أبطالها يحملون الاسم نفسه، لكن دائرة حياتهم أكبر وأوسع من حياتهما هي وزوجها، فقلبت الصفحات لتصل إلى النهاية الموعودة.

آدم البغدادي: أعتقد أن ملاحظة حواء المؤمن حول عدم استكمال قصة حواء كوناي صحيحة لحد ما، لكن ربما يفكر الدكتور آدم التائه بالعودة لها في نص آخر.، أو في سياق الرواية مرة أخرى. عموما، النص فاضح جدا، ومن المؤكد أنه سيثير غضب البعض، وربما سيعجب آخرين.

(10)

قبل أن يصل المهندس آدم المطرود إلى مكتبه، انتبه إلى حركة غير طبيعية في الشارع، سيارات الشرطة تتوزع بكثافة في كل زاوية من بغداد، في الساحات والمنعطفات وتحت الجسور وعند مداخلها من الجانبين، ما الذي يجري؟

صحيح أنه ينتمي لحزب السلطة منذ أن أراد التوجه للدراسة في تركيا، لكنه يعد نفسه غير سياسي، ومحايداً، ومنعزلاً، وليست لديه أية رغبة في أن يعارض السلطة، بل ولم يعارضها قط، ويؤدي ما يراد منه إذا أقتضى الأمر.

يذكر كيف انتمى للحزب الحاكم، حينها أرادت عائلته، وبالتحديد أمه التي كانت جدتها من تركيا وتحن إليهم دائما، إرساله للدراسة إلى تركيا، وكان عليه أن يأتي بموافقة من التنظيم الطلابي في الثانوية التي درس فيها، وحينما ذهب إليهم طالبا تزويده بكتاب التأييد، قالوا له إنهم يعرفون أنه إنسان مسالم وليست لديه أية ميول أو أهواء معادية للحزب والثورة لكنه ليس عضوا، وعليه الانتماء فقبل بلا تردد.

حينما سافر إلى اسطنبول لدراسة الهندسة كان يراجع السفارة العراقية هناك بين فترة وأخرى مشاركا عاديا في احتفالاتهم ومناسباتهم دونما أي نشاط سياسي واضح، فهو إنسان بعيد كل البعد عن أي اهتمام سياسي، لكن هذا لا يعني أنه بلا أفكار ورؤى فكرية بل هو يدرك ما يفور في أعماق مجتمعه، لكنه يعرف أنه جبان، ولا يخاف من أن يقر مع نفسه بهذه الحقيقة، إنه يعشق الجسد ومتعه ويخاف من أي وجع جسدي وأي ألم نفسي وتهديد وجودي لكيانه ووجوده.

في تركيا تعمد أن لا يواظب على الدراسة من أجل تمديدها لأطول فتـرة ممكنـة وذلـك بالاتفـاق مع أمه لأن البلاد كانت في حرب لعينة مع جارتها إيران، ولكنه أيضا لا يستطيع أن يمدها إلى أجل غير مسمى فعاد في سـنة الحرب الأخيرة، فالتحق بمديرية الطرق والجسـور، وكان معه صديقـه المهنـدس آدم الصاحـب أيضـا، الـذي كان قد أنهى دراسـته قبله بسنة تقريبا. كانت فترة عصيبة، لكنها أيضا كانت فترة عملية ممتازة بسبب الظرف الاستثنائي والنزول إلى ساحة العمل التطبيقي الميداني مباشرة.

وحينمـا اندلعـت الانتفاضة الشـعبية ضـد النظام في جميع محافظات البلاد أحس بشيء من الراحة وكأنه ينتظر الخلاص، لكنه كان خائفا أيضا لـذا لـم يخـرج مـن مكتبه لأكثر من أسـبوعين. كانت حـواء اللهيبي تأتيه بكل ما يحتاجه، رغم أنها أيضا لم تنتظم في دوامها، فكانت تتغيب عن الدوام بشكل مستمر، وحينما تأتيه بالطعام وببعض الحاجيات، كانت تأتيه بالأخبـار أيضـا عـن الإعدامات التي تقوم بهـا قوات الحرس الجمهوري وتمارسها ضد المنتفضين.

يذكـر أن أحـد المقربيـن مـن السـلطة والـذي كان يأتيـه بالمقاولات والصفقات التي يجريها مع أزلام النظام، واسمه آدم الحلي، جاءه في أحد تلك الأيام، وكان مرعوبا، ولـم يكن أحد في المكتب غيره، فأخذ يشكو إليه من الوضع والنظام، ومن الشخصيات التي يرتبط معها والتي تأخذ منه نسبة مئوية تصل إلى النصف فقط لموافقتها على منحه المقاولات، التي يتفق معه ومع مكاتب أخرى لانجازها، وكيف أنه ينتظر ساعة الخلاص، كي يستطيعوا التنفس والعمل بحرية.

كان آدم الحلـي هـذا يومـئ لـه بأن أيام النظـام صارت معدودة، لكنه حينما شعر بأن النظام أخذ الضوء الأخضر من القوات الأميركية لضرب المنتفضيـن، جـاءه ثانيـة لكـن هذه المرة بدأ يدافع عن النظام وعن عمالة المنتفضين لإيران.

كانـت تلـك الأيـام بالنسـبة له خصبـة من الناحيـة الإبداعية، فقد بدأ

كتابة روايته الجديدة عن صديقه الشاعر آدم العندليب الذي وجدوه ميتا في بيته وسط أوراقه على أثر سكتة قلبية، عرف أنها كانت نتيجة رعبه من الاستدعاء لدى جهاز الأمن. أراد أن يكتب عن مجتمع هوت قيمه إلى الحضيض وانهارت منظومته الأخلاقية حيث تقوضت فيه كرامات البشر نساء ورجالا، وشاعت الروح الانتهازية والوصولية الشيطانية. أحس المهندس آدم المطرود وكأنه ربان عجوز في سفينة مثقوبة تواجه العاصفة.

وبرغم مرور حوالي ثلاث سنوات على تلك الانتفاضة الشعبية المجهضة التي ملأت روحه بإحباط شديد في أي تغيير يمكن أن يحدث في البلاد، إلا أنه كان وما زال مستعدا لأن ينافق السلطة من أجل أن يبقي دائرته الخاصة واهتماماته بعيدة عن أعينها ورجالها.

كانت معلومات الأجهزة الأمنية والحزبية عنه مطمئنة، لذا لم يجد مشكلة في حركته اليومية ولا حينما يود السفر فالسلطة عنه راضية في كل الأحوال، وهذه حالة صديقه المهندس آدم الصاحب أيضا، ولذا ربطت بينهما علاقة الصداقة منذ أن كانا في السنة الأولى لتعلم اللغة التركية في اسطنبول.

بيد أنه ارتبك الآن من رؤية كل هذه السيارات التابعة لأجهزة السلطة. لقد تركت في نفسه قلقا لم يتعود عليه سابقا، وحينما دخل إلى مكتبه لم يجد سكرتيرته حواء اللهيبي في مكانها، وسمع حركة في غرفة مكتبه فتوجه بحركة خفيفة غير مسموعة وأطل برأسه فرأى السكرتيرة منحنية تفتش في أحد الدواليب التي يضم فيها ملفاته المهمة، ومشاريعه، وكتاباته الأدبية والفكرية ومشروع روايته الجديدة. لم تنتبه إليه فقد أعطت الباب ظهرها لأنها لم تتوقع أن يعود، لكنه سأل نفسه عن أي شيء تفتش؟ ولماذا؟ وكيف تتجرأ أن تفعل ذلك؟ ولحساب من؟

رجع إلى الوراء حتى وصل الباب الخارجي ثم فتحه وأغلقه وكأنه دخل فجأة فخرجت من غرفته مرتبكة جدا، وهي ترتب ثيابها وكأنها كانت في غرفة الحمام التي تقع في الزاوية المواجهة لغرفته وللصالة.

حين دخل المهندس آدم المطرود مكتبه تخلى عن قلقه الذي تولد من رؤية الحضور الطاغي للسلطة في شوارع بغداد، وبرغم ما واجهه من أسئلة مع نفسه حينما رأى سكرتيرته حواء اللهيبي تفتش في مكتبه، فلم يطرأ في ذهنه أي هاجس سياسي، وإنما ظل الأمر غامضا بالنسبة له، لذا لم يشغل نفسه فيه الآن، إذ ود أن يحضّر نفسه للقاء المساء.

لقد كان حضور حواء الصايغ طاغيا جدا في مخيلته ومزاجه وتفكيره، وبدأ يضع الخطط للقاء المساء، كيف سيقابلها؟ وكيف سيتصرف ليعبر عن شوقه وحبه لها بوضوح دون أن يثير انتباه زوجها آدم الولهان؟ زوجها الذي يحتفظ كشيء ثمين مثل لوحاته الثمينة، لأنه وكما يظن أنه يخونها، فالسيدة ايفا كانت تبدو وكأنها عشيقته، أو امرأة قريبة جدا. لا ضير من كل هذا، بل شعر بسرور خفي من هذا الأمر. المهم هو أنه سيراها ويريد أن يكون هذا اللقاء هو الباب للقاءات أخرى.

فجأة، ضغط الزر طالبا حواء اللهيبي التي جاءته مرتبكة أيضا ظنا منها أنه انتبه لبعض التفاصيل في مكتبه، لكنه قال لها:

- أريد منك، وحسب ذوقك ان تشتري لي باقة زهور متميزة، لأني مدعو عند عائلة أزورهم لأول مرة.
- ولماذا أنا التي يجب أن أختار باقة الزهور؟
- لأني أثق بذوقك؟

أحست حواء اللهيبي بالاسترخاء النفسي إلا أنه لم يتحدث عن رؤيته لها وهي تفتش مكتبه لأنها كانت متأكدة بأنه انتبه إليها. لم تقل هي شيئا، وإنما هرعت مسرعة لتنجز هذا الأمر سعيدة فهذا يعني أنه لم ينتبه إلى ما جرى.

انتبه المهندس آدم المطرود لثوب السكرتيرة حواء اللهيبي الأسود الذي يبرز مفاتن جسدها المتناسق المثير. إنه نفس طراز الثوب الذي كانت المهندسة حواء كوناي تلبسه في مطعم ألف ليلة وليلة بتركيا. ذراعان مكشوفتان وساقان مكشوفتان لما فوق الركبة بقليل وخصر

مضغوط وصدر ناهد وبارز وطري، وجه متناسق وشفتان ممتلئتان. وجه يكشف عن رغبات دفينة، وجه لا يشي بالابتذال ولا يشبه وجوه العاهرات، على العكس وجه أنيق يذكر بوجوه الارستقراطيات في لوحات القرن السابع عشر والثامن عشر.

كانت شخصية حواء اللهيبي غامضة، فمن خلال تكوينها الجسدي وملامحها المعبرة أحس أنها ذات شخصية قوية، لكنها في الواقع هشة وضعيفة وبلا رأي أو شخصية، بشكل محير. كانت حواء اللهيبي متزوجة من موظف يعمل محاسبا في إحدى الوزارات.

حين رآها صديقه المهندس آدم الصاحب، عندما زاره أول مرة ولم يكن قد مر على التحاقها سوى أيام، علق قائلا بأنها أنثى حقيقية. حينها أخبره هو بأنه لا يتعامل معها إلا باعتبارها موظفة لا أكثر.

كانت حواء اللهيبي برغم ملابسها العصرية وزينتها الصارخة محافظة جدا في علاقاتها، وحذرة، ومترددة في أن تنفتح ولو قليلا مع الغرباء، وكانت بالنسبة له أطول امرأة استغرق معها من الوقت كي يقنعها بأن تقيم علاقة معه.

كانت حواء اللهيبي بطبيعتها خجولة ورسمية في العلاقة معه، لذا اتبع معها سياسته أيضا، فلم يبد لها بأنها تعجبه أو أنه يريدها، وبعد أسبوعين لاحظ أنها تحاول أن تكتشف عالمه، هل لديه امرأة أخرى، ما هي اهتماماته النسائية؟ لاسيما وأنها سمعت بأنه كاتب روائي ولديه رواية فضائحية منعت من النشر في العراق وأحدثت ضجة خارجه.

فضولها كاد يقتلها، إلا أنها لم تبد أي إشارة توحي بأنها تريد أن تعرف عنه كل شيء، حتى وأن اعترفت مع نفسها بأنه أنيق ووسيم ومتعطر دائما بعطور طيبة ومثيرة، وأنه طيب في التعامل معها ويحترمها ولا يسيء الأدب معها أبدا، حتى أنه كي لا يضطر لتوجيه الأوامر إليها لتقديم بعض الخدمات، لاسيما عند يأتيه الضيوف، فقد عين رجلا ريفيا يدعى أبو قابيل، هو في الوقت نفسه حارس البناية، ليقوم بخدمة المكتب

وإعـداد القهـوة، إلا أنهـا طلبـت مـن أبي قابيل أن يخـدم الضيوف ويهتم بنظافة المكتب فقط، أما المهندس آدم المطرود فخدمته من اختصاصها. اسـتمر الحـال بينهمـا هكـذا إلـى أن جاء ذالك اليـوم العاصف الذي كان مفتاحا لتقاربهما.

دخل المهندس آدم المطرود إلى المكتب وألقى التحية عليها. أجابته بنبرة هادئه مليئة بالحزن، ودون أن يناديها قامت بتحضير القهوة وحملتها إليـه ثـم خرجـت بهـدوء. بعد قليل دعاها إلـى مكتبه فجاءت دونما رغبة واضحـة، إذ كانـت سـاهمة الوجـه والنظرات. دخلـت إليه وظلت واقف أمامه منتظرة تعليماته. نظر إليها بانتباه نظرات متسائلة وقال:

– استريحي

– لا شكرا لدي عمل كثير، تفضل أستاذ

– قلت استريحي

ترددت قليلا ثم جلست، نظر إليها بتعاطف وسأل:

– مـا بـك؟ أراك حزينـة لأول مـرة منذ أن بدأت العمل في المكتب، هل هناك مشكلة؟

– لا..

– كيف لا ووجهك الجميل لا يقول إلا أنك حزينة وحزينة جدا..

فكرت مع نفسـها، هذه أول مرة تسـمع منه كلمة يعبر فيها عن رأيه بجمالها، لقد أعترفَ الآن بأنها جميلة، فاسترخت نفسيا قليلا وقالت:

– لا شيء، مشاكل عائلية اعتيادية

– أنـا مسـتعد لأي مسـاعدة ماليـة لا تتـردي إذا مـا كنـت في ضائقة مادية..

– شـكرا جزيلا أسـتاذ آدم، لن أنسـى موقفك هذا أبدا، لكن صدقني المشكلة ليست مادية

– ماذا إذن..؟ إذا لم يكن سرا

– بموقفك هذا الذي فاجئني، أحس أنك صرت قريبا مني، ويمكنني

أن أحدثك..

- تفضلي.. لا ترددي

صمتت لحظة ثم نظرت إليه وكأنها تريد أن ترى ردة فعله، وقالت بهدوء حزين:

- زوجي يخونني

أبدى المهندس آدم المطرود تعبير الاستنكار والذهول أمامها. وللحظات أحس بأنها تتجه نحوه بل وصارت قريبة جدا منه، وليس أمامها الآن غيره، وعليه أن يتقن استخدام هذه اللحظة وإلا فأنها ستفلت منه. قام من مكانه غاضبا واستدار ليجلس على الكرسي المقابل لها:

- يخونك.. هل هو مجنون؟ رجل لديه امرأة، يمكن القول إنها أجمل امرأة في العالم ويخونها. هذا رجل مجنون، لكن هل أنت متأكدة؟

كلماته عنها بأنها أجمل امرأة في العالم كانت عزاءً خفيا وحقيقيا لها، فقد منح كبرياءها الأنثوية الجريحة شيئا من الثقة والمواساة. أحست للحظات أنه صار قريبا فعلا منها. فقالت:

- نعم متأكدة، فإحدى صديقاتي المقربات، لديها صديقة تعمل معه، أكدت لي أن لديه علاقة مع موظفة متزوجة تعمل معه، والكل هناك يعرفون ذلك، وحينما واجهته أنكر ذلك طبعا، لكني متأكدة.

لم يشأ آدم المطرود أن يكشف عن أطماعه الجنسية فيها فأراد أن يظهر نفسه بمظهر الرجل المحايد فقال لها:

- ربما أنت مخطئة؟ ربما الرجل بريء حقا؟

أغاظها ما قاله في الدفاع عنه، لأنها تريد أن تدينه، لتجد التبرير للاقتراب منه، فقالت بعصبية:

- أنا متأكدة بأنه يخونني.. أنا متأكدة

وترقرقت الدموع في عينيها. صمت آدم المطرود للحظات، وفجأة أخذ كفيها بين كفيه بتعاطف، ولم تفسر هي هذه الحركة منه تفسيرا آخر،

فاجأها نعم، لكنها ارتاحت له فأسلمت كفيها دونما اعتراض، فقال لها:

- لا أدري ما أقول، أنا متعاطف معك جدا.. لكن دعيني أسألك وأجيبيني بصراحة..

نظرت إليه دون أن تسحب كفيها من كفيه وقالت:

- اسأل

- ربما أنت لا تقومين بواجبك كما يجب، أقصد ربما بسبب عملك فأنت لا تطبخين أو يأتي والأشياء غير جاهزة، وهذا كثيرا ما يزعج الزوج..

- أبدا.. أبدا.. فأنا حينما أرجع إلى البيت أجهز كل شيء، ثم أن لدينا امرأة تطبخ لنا وتنظف البيت وتغسل الملابس، وأنا دائما أصل قبله، لذا فحينما يأتي يكون كل شيء جاهزاً..

- غريب..

- هذا هو الذي يقتلني في كل هذه القصة، فلو أني كنت مقصرة في خدمته فربما أجد له بعض العذر في ذلك.. لكني مثل الخادمة بالنسبة له..

نظر إليها بتساؤل وهو يداعب كفيها بتعاطف وقال:

- لدي سؤال محرج بعض الشيء، لكن له علاقة بما نحن فيه..

- تفضل اسأل..

- علاقتكما.. أقصد علاقتكما الحميمة، أقصد.. أقصد علاقة الرجل بالمرأة.. علاقتك معه في السرير.. كيف هي.. هل هو مرتاح معك..؟

شعرت بالخجل من سؤاله، وأحست أنه جريء فعلا، فقد دخل إلى صلب الموضوع، فقالت باستحياء، وهي تسحب كفيها بهدوء:

- اعتقد أنها طبيعية.. لم أقصر معه في شيء. إنني أمنحه كل شيء حتى إذا ما كنت غير راغبة في ذلك، أو أريد أن أنام..

- غريب.. أحياناً يتوجه الرجال إلى نساء غير زوجاتهم إذا كانوا

غير مرتاحين معهن من هذه الناحية، فقد تكون المرأة ممتازة كربة بيت لكنها لا تستطيع أن تمتعه بشكل يرضيه في السرير....

صمت المهندس آدم المطرود للحظات وكأنه لاعب شطرنج ينتظر حركته الأخيرة في الهجوم، وقرر الاقتحام والبدء بالنقلة التي ربما تحقق له الفوز أو الخسارة.. إنها مغامرة.. فقال لها وهو ينظر بعينيها بإصراره وتركيزه بحيث عرفت أنه يعريها من الداخل ويدخل معها إلى المناطق المحرمة:

– سؤالي الأخير لفهم ما يجري.. فأنت كما تقولين ربة بيت ممتازة، وأيضا كريمة معه في السرير والمعاشرة، لكن السؤال، واعذريني من صراحتي، كيف أنت معه في العلاقة، أقصد في السرير، هل أنت باردة أم ساخنة؟

– لا أفهم ماذا تقصد.. فأنا طبيعية..

أحس بخجلها وأنها تتهرب وهذا يعني أن نقلته كانت موفقة، وعليه أن يقود اللعبة للأخير:

– ماذا يعني طبيعية؟

– يعني، هل تمنحينه جسدك بحرارة أم تتركينه يفعل ما يشاء وحده؟ هل تتجاوبين معه أم لا؟

أحست أنها خسرت وأنها لا تستطيع المقاومة أمام هجومه الساحق، فقالت باستسلام:

– لا أعرف أن كنتُ حارة أم باردة، فأنا لا أعرف كيف تتصرف النساء الأخريات. أحيانا أتجاوب معه، وأحيانا اتركه يأخذ ما يريد بصمت ولا أعارضه في شيء.

– وأنت هل تتمتعين معه في هذه العلاقة..

– أحيانا

– أحيانا؟

– نعم.. ليس دائما..

– سؤالي الأخير لكي أستطيع أن أفهم..

– لكن السؤال السابق كان هو سؤالك الأخير كما قلت؟ أسئلتك محرجة

– نعم.. لكن جوابك لم يكن شافيا فأردت طرح السؤال الأخير، هل أنت حسية؟

– ماذا تقصد؟

– أقصد.. أقصد.. هل أنت امرأة شهوانية؟

– لا أعرف.. ربما نعم.. وربما لا

– أهذا لغز؟ كيف سنعرف إن كنت كذلك أم لا إذا أنت نفسك لا تعرفين؟

– لا أعرف.. وهل هذا مهم؟

– طبعا مهم.. ربما بسبب ذلك اتجه إلى واحدة أخرى..

– لكن تلك المرأة ليست أجمل مني

– المسألة ليست لها علاقة بالجمال.. وإنما بالراحة النفسية والجنسية بين الزوجين..

أحست حواء اللهيبي بالانكسار والضعف وشبه الانهيار، وأحست بالحاجة إليه، لحنانه وقوته، ولكلماته الجميلة التي تبعث النشوة في نفسها، وأثارها جرأته في الأسئلة. نزلت دمعتان من عينيها، فسحب كرسيه نحوها مقتربا أكثر بحيث تماست ركبتاهما، وبحركة مفاجئة بالنسبة لها مسح بكفيه دموعها، وهو يقول لها:

– لا أريد أن أراك باكية؟ هل تفهمين، لا أريد أن أرى الدموع في عيني أجمل امرأة في العالم.. أنا معك.. سأقف إلى جنبك.. أنت لست وحيدة في هذا العالم..

صمتت لحظة، ثم قالت فجالت فجأة: هل بإمكاني أخذ إجازة؟

– هل بإمكاني أخذ إجازة في ما تبقى من أوقات الدوام. أحس بنفسي متعبة

– طبعا يمكنك ذلك..

خرجت حواء اللهيبي وكان واضحا أنها ليست غاضبة، لكنها قلقة وكأنها تقيّم الأمور مع نفسها وتحتاج أن تكون وحدها.

إنقطعت حواء اللهيبي عن الدوام ليومين. ظن المهندس آدم المطرود انها لن تأتي أبدا، لكنها جاءت في اليوم الثالث وكأن شيئا لم يحدث بينهما. كانت تتحاشى نظراته، ومع هذا كانت تنظر إليه نظرة إعجاب واضح كلما رأته منشغلا.

استمر الحال بينهما هكذا، كل منهما ينتظر بادرة من الآخر، لكنه انتبه إلى مبادرتها غير المباشرة إذ كانت تدخل عليه بسبب وبدون سبب لتسأله عن أبسط المسائل.

ومضت ثلاثة أيام أخرى على هذه الحال. في اليوم الرابع، وحينما دخلت عليه ووقفت أمامه فنظر إليها وسألها:

– هل من جديد مع زوجك..

– لا.. قررت أن أتركه يفعل ما يشاء..

– وأنت

– ماذا عني

– هل تقبلين بهذا الوضع

– لا طبعا.. لكن ماذا أفعل. صرت لا استطيع أن اقترب منه، وأحيانا نجلس ساعات دون أن نتكلم.. أو أذهب أنا إلى غرفة النوم بينما يواصل هو مشاهدة التلفزيون، ويرجع لينام إلى جانبي، وحينما يحاول الاقتراب مني لا أتجاوب معه وكأني أغط في نوم عميق..

– يعني أنكما لا تقيمان أية علاقة جسدية

– لا.. منذ مواجهتي معه..

كان آدم المطرود غارقا في عشقه، لذلك حينما أحس بميل حواء اللهيبي نحوه بدأ يتهرب منها بالعمل وكثرة المشاكل. والمهام التي عليه

انجازهـا ومواعيـد وهميـة مهمـة عليه حضورها، بينمـا هي بمرور الوقت صارت تحبه فعلا، ويعنيها كشخص وليس كرجل فقط، لذا صارت تتألم حينما أحسـت بأنه بدأ يتهرب ويبتعد عنها، وقد لمسـت ذلك خصوصا بعد عودته الأخيرة من اسـطنبول، إذ أحسـت أنه تغير، وأنه صار شـخصا مختلفا.

لقد فتشـت هي في مكتبه عسـى أن تصل إلى أي شـيء يكشـف لها عن سبب هذا التغيير، فهي بحسها الأنثوي الغريزي تعرف أن سبب هذا التغييـر هـو وجـود امـرأة أخـرى، لكـن من هي؟ ثم أنه لـم يبق في تركيا سوى أسبوع واحد، فكيف رجع متغيرا كل هذا التغيير.

كان آدم المطـرود منشـغلا بروايتـه التـي اسـتمد معظـم تفاصيلها من علاقتـه بالشـاعر آدم العندليـب وتفاصيل مغامراتهما الشـعرية والعاطفية، وكيـف أن صديقـه الشـاعر مـات رعبـا، لكنه أخذ يفكر فـي تمزيقها لأنه أحس بخطورتها، وأيضا لأنه التقى حواء الصايغ.

دخلت السكرتيرة حواء اللهيبي حاملة باقة جميلة ومتميزة من الورود المختلفـة الألـوان والمحاطـة بالخضـرة، والمغلفة بالورق الشـفاف على قاعـدة تتألـف مـن سـلة صغيـرة، وكانـت هـي تفكـر بأمر هـذه الباقة من الورد؟ لمن هي يا تُرى؟ فهي هنا منذ أربعة شـهور لـم تشـاهد المهندس آدم يشتري وردا أو يبعثها لشراء الورد.

مـن المؤكـد أن ثمـة سـراً يخفيه؟ وإلا ما هـذا التبدل الذي طرأ عليه منذ عودته من تركيا؟

حين دخلت عليه حاملة باقة الورد قام فأخذ الباقة منها ووضعها على طاولته. نظر إلى الساعة فوجدها قد تجاوزت الثالثة بدقائق. انتبه إليها إذ وجدها واقفة أمام الباب، استغرب فسألها:

– مـاذا؟ لقـد انتهـى الـدوام، ألا تريدين الذهـاب إلى البيت؟أنا لدي بعض الأشياء التي يجب أنجازها هنا لذا سأتأخر قليلا.

كان هو يفكر بأن أمامه وقتاً طويلاً لحين موعد العشاء، أما هي فقد نظرت إليه ولم تجب بل ولم تتحرك من مكانها.

كان هو ينظر معجبا بباقة الورد لتنوع زهورها، بل كانت تذكره بلوحة فنية لفنان روسي كان مختصا برسم باقات الزهور والمزهريات. إنتبه إذ رآها ما زالت واقفة في مكانها. لم يستوعب لماذا لم تذهب. أحس أن هناك شيئا، ربما له علاقة بما كانت تفتش عنه في مكتبه صباح اليوم. سألها ببرود:

– هل هناك شيء ما؟
– لا.. لاشيء..
– لماذا لا تذهبين إذن؟
– لا أدري.. أردت أن أبقى معك قليلا؟
– ألا ينتبه زوجك لو تأخرت قليلا؟
– لا.. إنه يأتي في حدود الرابعة عصرا، وبيتنا قريب من هنا، فنحن نعيش في الصالحية، وهي قريبة، ويمكن أن أصل بسرعة، وحتى لو تأخرت فأن الطعام جاهز منذ البارحة..
– هل هناك شيء.. ليس من عادتك البقاء.. إن كان هناك شيئاً تودين إخباري عنه فيمكنك ذلك فانا لن أخرج من هنا إلا بعد ساعتين على الأقل..
– لدي سؤال..
– سؤال.. اسألي ما تشائين من الأسئلة
– أعتقد أن ما بيننا يسمح لي بأن أسألك: لمن هذه الزهور؟ لا أعرف أن لديك أصدقاء تذهب لهم بالزهور، أعرف صديقك المهندس آدم الصالح وهو أعزب مثلك..

نظر إليها بارتباك أول الأمر لكن ارتباكه لم يستمر لأقل من ثوان قليلة، ثم ابتسم وقال محاولا أن لا يدعها تشك فيه، فقد أحس فجأة أنها غيورة وربما ستخلق هذه الغيرة له المشاكل، فابتسم وقال لها وكأنه

يمزح:

– وأخيـرا بـدأت تغاريـن علـيّ.. يا إلهي.. الحمـد لله.. حواء بدأت تغار عليّ..

انتبهـت حـواء اللهيبـي لارتباكه على قصر مدته، وأنه الآن يحاول أن يـداري الوضـع، وهـذا مـا زاد مـن يقينها بوجود شـيء لا تعرفه وراء باقة الزهور هذه، فقالت:

– أنا لا أغار وإنما أسأل..

– بل تغارين من باقة الزهور الجميلة هذه.. لكن صدقيني أنها ليست أجمل منك..

– هذا ليس بجواب..

– بلى..

– لا.. أنت مدعو إلى عشـاء وسـتذهب بباقة من الزهور الجميلة.. وطبيعي الزهور لا تقدم كهدية لرجل..

– أوه.. لم أفكر بأن ذهنك سيذهب إلى هذه المنطقة من التفكير..

– انـه سـؤال بسـيط.. والـذي قلتـه تحصيـل حاصل.. الزهـور تقدم للنساء.. أليس هذا صحيحا؟

– بلـى.. بلـى.. صحيـح جـدا.. يـا سـيدتي الجميلـة أنـا مدعو عند عائلـة آدم الولهـان، الـذي تعرفـت عليها في تركيا عندما حضرت المؤتمـر.. واليـوم التقينـا صدفـة في المنصور عند مقر شـركته.. ودعاني للعشـاء، وليس من اللائق أن اذهب خالي اليدين، فمن الأفضل آن آخذ باقة الورد لزوجته.. هذا كل ما في الأمر.. أهذا هو الذي يقلقك؟؟

– نعم.. سؤال آخر؟

نظر إليها ليرى تأثير ما قاله عليها، فلقد كان صادقا في معظم ما قاله، لكنه لم يقل لها صراحة بأنه كان يعد الأيام والليالي ليتأكد من رجوعهم إلى بغداد، وإنه هو الذي ذهب بنفسه إلى مقر الشركة بعد أن بحث عنها

أياما، حتى عندما كان متأكدا بأنهما لم يرجعا بعد.

كانت حواء المؤمن متلهفة لقراءة تفاصيل لقاء المهندس آدم المطرود بالمرأة الغامضة حواء الصايغ، لذا بدأت تقرأ الفصل الجديد الذي سيتحدث عن لقائه معها على العشاء بعد عودتها إلى بغداد.

انتبه آدم البغدادي إلى ما جرى بين السكرتيرة حواء اللهيبي والمهندس آدم المطرود في نهاية الفصل، بعد أن حملت الزهور، وما جرى في الواقع في موقف مشابه بين آدم التائه وزوجته حواء المؤمن، لكن المشهدين مستمدان من موقف عاشه آدم البغدادي نفسه بطريقة مختلفة نوعا ما، انتبه آدم البغدادي لتحولات التجارب الشخصية أثناء العملية الإبداعية.

كما انتبه إلى ملاحظة الدكتور آدم التائه حول الوصف التقريري لحالة البلاد السياسية، وكذلك ملاحظته عن مشرع المهندس آدم المطرود لكتابة رواية عن موت الشاعر آدم العندليب التي انتشرت في جميع الأوساط، واتفق معه في أن شخصية آدم المطرود لا تؤهله أن يكتب مثل هذه الرواية التي لا بد وأن تكون سياسية، وهو البعيد عنها والمرعوب منها.

(11)

استغرب المهندس آدم المطرود من أن آدم الولهان وزوجته حواء الصايغ يسكنان شقة في بناية وليس بيتا منفصلا، لكنه استغرابه زال حينما دخل إلى البناية، إذ كانت الباحة التي تقود إلى المصاعد نظيفة جدا ومرتبة ومفروشة بالسجاد الأحمر مما يدل على أن جميع سكان البناية ذات الطوابق الثلاثة من الموظفين الكبار في الدولة، فهؤلاء لديهم امتيازات استثنائية تختلف عن عامة الناس.

عند مصعد البناية وقف آدم المطرود حاملاً باقة الورد بيديه، منتظراً أحد المصعدين اللذين كانا معلقين في الطابق الثالث. من غرفة في أقصى الممر خرج حارس البناية الذي كان في ثياب رسمية أنيقة على خلاف حراس البنايات فهو كما يبدو من رجال أمن البناية، تقدم من آدم المطرود وسأله:

– عفوا.. حضرتك تقصد مَن من سكان البناية؟

– أنا ضيف السيد آدم الولهان؟

– واسم حضرتك إذا ممكن.. هذه إجراءات فلا تنزعج رجاء؟

– أنا المهندس آدم المطرود.. صديق العائلة

– أهلا وسهلا أستاذ آدم..

– عفوا، ممكن أن تخبرني في أي طابق يسكن السيد آدم الولهان

نظر الحارس إليه بتساؤل، فانتبه آدم المطرود لذلك، فقال:

– عفوا أنا أزورهم لأول مرة

– مفهوم، هو يسكن في الطابق الثالث..

مضى الرجل الحارس إلى مدخل البناية، بينما هبط أحد المصعدين فدخل آدم المطرود أحدهما، وفي تلك اللحظة بالذات وقبل أن يضغط

على زر الطابق الثالث دخل المصعد رجل وامرأة، عجوزان، نظرا إلى آدم المطرود مع ابتسامة ودودة وألقيا عليه التحية:

– مساء الخير

– مساء النور

أُغلق باب المصعد وبدأ بالصعود، وحينما فُتح باب المصعد مرة أخرى في الطابق الثالث، انتبه آدم المطرود إلى أن الطابق لا يضم إلا شقتين، ومن خلال حركة العجوزين عرف أن الشقة الأخرى هي المقصودة، فاقترب وقرأ الاسم على لوحة نحاسية قرب جرس الباب. ثم ضغط على الجرس.

فتحت امرأة بدا واضحا أنها التي تقوم بالخدمة في البيت، فدخل آدم المطرود إلى الباحة التي كانت بمثابة غرفة استقبال أيضا.

كانت غرفة الاستقبال واسعة جدا وعالية السقف ومزينة باللوحات الفنية والتماثيل الصغيرة ومفروشة بالسجاد الثمين، وكانت مفتوحة على صالة كبيرة للطعام تتوسطها مائدة صُفت عليها الأطباق الصينية الثمينة والملاعق والسكاكين والأشواك والمناديل.

ما أن دخل حتى أشارت إليه المرأة بالجلوس وسألته إن كان يحب أن يشرب شيئا، فجلس ولم يطلب شيئا سوى كأسٍ من الماء، فاختفت المرأة وبقيَ وحيدا مستغربا من عدم وجود أحدٍ. فجأة سمع وقع أقدام وحركة تأتي من جناح آخر في الشقة، التفت فرأى حواء الصايغ أمامه.

وقف منبهرا بجمالها الساحر وبهول المفاجأة وكأنها هبطت من المجهول. نظر كل منهما إلى الآخر بلهفة، فقد كان واضحا أنها تنتظره أيضا. اقتربا من بعضهما بلهفة. أرادا أن يحضنا بعضهما البعض لكنهما، كلاهما تردد في ذلك، فصافحها بحرارة واللهفة تتألق في كل كيانه، مقتربا منها جدا إذ لم يفصل بين وجهيهما وجسديهما إلا باقة الورد، نظرت إليه بشوق وأخذت باقة الورد وقالت بحرارة ودفء وتلقائية:

– يا لها من باقة جميلة، يا لتنوع الألوان، شكرا جزيلا

ثم التفتت تفتش في أرجاء الصالة عن مكان تضع فيه باقة الورد، فوجدت طاولة جانبية فاتجهت إليها ووضعت باقة الورد التي بدت وكأنها لوحة فنية حقا، ثم توجهت إليه وجلست على مقعد وثير بالقرب منه، نظرت إليه بحنان وقالت:

– اعذرني لأني تأخرت في استقبالك، زوجي سيتأخر ساعة أخرى، وظننت أنه أخبرك، وأنك ستأتي في التاسعة أيضا. الحمد لله أنك جئت مبكرا، فلقد اشتقت إليك كثيرا..

لم يصدق ما يسمع، فالأخبار المفرحة تتوالى، أولها هذا الاستقبال الحميم والرائع، وثانيا قولها إنها اشتاقت إليه كثيرا، وثالثا أن زوجي ليس في البيت ورابعا أنه سيأتي بعد ساعة، يا لها من ساعة مباركة. بعد لحظات قال لها:

– لقد كنت أعد الأيام منتظرا عودتكم

– لم أصدق أذني حينما قال لي آدم إنك مررت عليه في مكتبه بالشركة وإنه دعاك إلى العشاء.

– وأنا أيضا

دخلت المرأة وهي تحمل صينية فيها كأس من الماء. تقدمت من المهندس آدم وانحنت لتقدمه، فأخذ الكأس، وما أن انتهى من شرب الماء حتى بادرته:

– هنيئا.. ماذا تشرب عصير فواكه، شاي، قهوة؟

– شكرا. لا أريد شيئا.. فأنا غير مصدق لوجودي هنا في بيتكم..

– لا يجب أن تشرب شيئا لأن العشاء سيتأخر قليلا..

– طيب.. فنجان قهوة.. إذا أمكن.. وسط

– طبعا..

التفت للمرأة التي كانت تنتظر أوامر السيدة، وقالت:

– اثنان.. وسط

ثم التفتت إلى آدم المطرود وقالت له:
– كيف هي الكتابة معك.
– لم أكتب شيئا منذ مدة طويلة، فقد انشغلت بالمؤتمر لأكثر من أسبوع، ومذ عودتي وأنا أحاول أن أواصل روايتي لكن بلا فائدة.. أحس بالتشتت.
– التشتت.. هذا يمكن تحمله وفهمه.. أنا أحس بشعور أكثر إيلاما.. أحس بأنني في متاهة كبيرة لا منفذ لها أبدا..
– تعيشين وسط كل هذا العز والأبهة والهيلمان وتشعرين بأنك في متاهة لا منفذ لها؟ لو يسمعك عامة الناس لقالوا إن هذا بطر، بطر حقيقي..
فقالت بحزن:
– أعرف. هذه المرأة التي تعمل عندنا في البيت قالت لي مرة كلاما مشابهاً تقريبا في المضمون، لكنها فسرت الأمر بأن سبب ذلك كوننا أنا وآدم لا أطفال لدينا، وهي لا تدري بأن عزائي أحيانا هو أننا بلا أطفال..
– ربما هي محقة
– حتى أنت؟
– أسمحي لي إذا ما قلت ربما إنك لا تدركين جيدا كيف يعيش عامة الناس العراقيين
– أستاذ آدم.. هل تعتقد إنني ولدتُ وفي فمي ملعقة من الذهب.. أنا أنتمي لعائلة متوسطة الحال، أقرب إلى الفقر. والدي كان مدرسا للغة العربية، وكنت وحيدته، حينما وصلت المرحلة المتوسطة ماتت أمي، فكرس أبي حياته لي. لم يتزوج، بل ظل معتكفا على نفسه وكتبه وذكرياته الجميلة مع أمي. عاش إلى أن دخلت الجامعة ودرست اللغة الألمانية والأسبانية، وكنت في السنة الأخيرة من الجامعة حينما رحل عن عالمنا هذا.

ذات يوم دخلت عليه في الغرفة التي كانت غرفة نومه ومكتبته أيضا فوجدته مسجى على سريره يغطي كتاب (المواقف والمخاطبات) لعبد الجبار النفري وجهه. حاولت إيقاظه فلم يستيقظ، وحينما رفعت الكتاب عن وجهه، وجدت عينيه مفتوحتين على اللانهاية؟ لقد انتبهت للصفحة التي كان يقرأها، والموقف الذي خط تحت كلماته بقلمه الملون. هل تعرف في أي موقف كان أبي حينما رحل عن عالمنا هذا؟

– من أين لي أن أعرف..

في هذه اللحظات جاءت المرأة بالقهوة فصمتنا إلى أن وضعت الفنجانين أمامهما مع كأسين من الماء وانسحبت. أخذت أحد الفناجين وسلمته له فأخذه وهو يتمتم بكلمات الشكر. صمتت لحظة، ثم واصلت:

– صحيح.. من أين تعرف.. سؤال عفوي لكنه غبي..

– لا عفوا.. لم أقصد

– لا عليك.. سؤالي بالأساس كان خطأ..

– في أي موقف كان؟

– في تلك الصفحات نص لموقفين هما: **موقف العز وموقف القُرب**.. ما زلت أذكر كلماته، ففي **موقف العز** يقول: (أوقفني في العز وقال لي لا يستقل به من دوني شيء، ولا يصلح من دوني لشيء، وأنا العزيز الذي لا يستطاع مجاورته، ولا تُرام مداومته، أظهرت الظاهر وأنا أظهر منه، فما يدركني قربه، ولا يهتدي إلى وجوده، وأخفيت الباطن، وأنا أخفى منه، فما يقوم على دليله، ولا يصلح إلى سبيله. وقال لي لولاي ما أبصرت العيون مناظرها، ولا رجعت الأسماع بمسامعها. وقال لي لو نطق ناطق العز لصمتت نواطق كل وصف، ورجعت إلى العدم مبالغ كل حرف. وقال لي لا أنا التعرف ولا أنا العلم، ولا أنا كالتعرف ولا أنا كالعلم). أما في **موقف القرب** فيقول: (أوقفني

في القرب وقال لي ما مني شيء أبعد من شيء ولا مني شيء أقرب من شيء إلا حكم إثباتي له في القرب والبعد. وقال لـي البعـد تعرفـه بالقرب، والقـرب تعرفه في بالوجود. وأنا الـذي لا يرومـه القـرب، ولا ينتهـي إليه الوجـود. وقال لي لا بعـدي عرفـت ولا قربـي عرفـت ولا وصفي كما وصفي عرفت. وقال لي: أنا القريب لا كقرب الشيء من الشيء، وأنا البعيد لا كبعد البعيد من الشيء. وقال لي القرب الذي تعرفه مسـافة، والبعد الذي تعرفه مسـافة، وأنا القريب البعيد بلا مسـافة. وقال لي أنا أقرب للسـان من نطقه إذا نطق، فمن شهدني لم يذكر ومن ذكرني لم يشهد).

حينما بدأت حواء الصايغ تقرأ النصوص التي كانت قد حفظتها بدا وكأنها تحلق في عالم آخر. تألق وجهها الجميل وكأن هالة قدسية بدأت تنوره. كان آدم المطرود يتأملها بوله واضح، وحينما انتهت قال:

– هـذا رائـع.. هـل تحفظيـن نـص هذيـن الموقفيـن فقـط، أم تـراك تحفظين نصوص المواقف الأخرى؟

– أحفـظ نـص هذيـن الموقفين بالتأكيد لأنهما المواقف الأولى التي تـرد فـي كتـاب المواقـف، ولأنهما كانا في الصفحة التي كان أبي رحمة الله عليه يقرأهما.

– ثم هل كان الوالد رحمه الله صوفياً؟

– لا، لكن كان مؤمنا إيمانا عميقا لحد الشك؟

– غريب.. الإيمان لحد الشك..؟

– نعم..

– كيف؟

– كان أبـي يضـع فـي مكتبتـه نصـا مأخـوذا مـن كتـاب هنـدي هـو فـي الحقيقـة همـس لبراهمـا يُعـد كصـلاة هندية قديمة في سـفر اليوبانيشاد، والنص يقول:

إذا ظن القاتل أنه قاتل
والمقتول أنه قتيل
فليسا يدريان ما خفي من أساليبي
حيث أكون الصدر لمن يموت
والسلاح لمن يُقتل
والجناح لمن يطير
وحيث أكون لمن يشك في وجودي
كل شيء حتى الشك نفسه
وحيث أكون أنا الواحد
وأنا الأشياء

حينما أنهت حواء الصايغ جملتها الأخيرة بدت وكأنها تنطق بصوت المطلق. صمت آدم المطرود لحظات وهو يفكر مع نفسه ويبحث عن أثر هذا النص على روحه وتفكيره، وأخيرا علق:

- لكن هذا له علاقة بفلسفة وحدة الوجود..
- صحيح جدا.. والدي رحمه الله يؤمن بأن للكون والوجود واجداً، خالقاً، وهذا الخالق هو الذي يسمى في الدين باسم لفظ الجلالة الله. وهذا هو اسمه في اللغة العربية، لأنه في اللغات الأخرى يسمى أسماء مختلفة، لكنه في الجوهر هو المقصود. المشكلة التي كان يفكر فيها أبي هي أن الأديان والفلسفة تؤكد بأن الخالق ليس ماديا وليس له أي تجسيد مادي، وبالتالي كان أبي يسأل أحيانا، وهذا ما دونه في يومياته، بأنه لو كان الخالق خارج الكون والوجود المادي، فهو إذاً ليس بالمطلق، لأن الكون أو الوجود يأخذ حيزا مكانيا كبيرا، والخالق خارج هذا الحيز، بينما فلسفة وحدة الوجود ترى أن الكون هو إحدى تجليات الخالق، وهذا ما ذهب إليه بعض الفلاسفة والمتصوفة المسلمين، كما ذهبت إليه بعض الديانات الشرقية، وأعتقد أن الفيلسوف سبينوزا يؤيد ذلك.

– أقر بأنني أمام فيلسوفة..

– لا.. أبدا.. ربما أنا أفكر.. أبي علمني التفكير.. لكن التفكير يولد الحزن..

– الآن فهمت لماذا أنت حزينة رغم أنك وسط كل هذا الترف المادي..

– ألم تقرأ لأحد الشعراء القدامى حين يقول: **ذو العقل يشقى في النعيم بعقله**

– بلى.. بعض الفلاسفة يتحدثون عن الوعي الشقي

– صحيح.. بالمناسبة.. أبي أراد أن يدون طفولته وحياته السياسية والفكرية بشكل روائي فكتب رواية.. لكنها ظلت ناقصة...

– هل هي موجودة لديك..

– نعم.. وفكرت في أن استكملها لكن هذا مستحيل، لأنها تتوقف عند أحداث هو وحده يعرف تفاصيلها.. وبذلك لا أكون أمينة له

– هل يمكنني أن أقرأها..

– ممكن.. لكن خطه غير مقروء تماما..

في هذه اللحظة بالذات فاجأهم آدم الولهان بدخوله إلى الصالة، فقد فتح الباب بالمفتاح ودخل. نهض المهندس آدم المطرود مرحبا ومرتبكا أيضا، فتقدم آدم الولهان بمرح مصافحا ومتعذرا:

– أهلا وسهلا أستاذ آدم، أنا آسف حقا لعدم تمكني من أن أخبرك بتأجيل العشاء إلى التاسعة، فأنا لا أعرف رقم تليفون مكتبك ولا حتى أين يقع.

– صحيح، أنا لم أعطك حينها رقم تليفون المكتب، مكتبي في الحارثية، بالقرب من ساحة النسور، مقابل بوابة معرض بغداد الدولي..

وأخرج من جيبه بطاقة تعريفية له وفيها عنوان المكتب وأرقام التليفونات فأخذ آدم الولهان البطاقة ووضعها في جيب سترته الأعلى،

وقال له:

– أرجو أن تكونوا قد استمتعتم بالنقاش، فقد كانت أجمل مفاجأة بالنسبة لحواء

– لا.. أنا اكتشفت في السيدة حواء، ليس الشاعرة فقط وإنما الفيلسوفة أيضا..

فابتسمت حواء الصايغ بتواضع حقيقي وقالت:

– شكرا جزيلا، أنا لا استحق هذا الإطراء.. ربما كان أبي هو الفيلسوف

فعلق آدم الولهان بمرح وبخبث خفي:

– أوه.. لقد تحدثتم عن الوالد رحمه الله. يبدو أنني قاطعتكم..

– لقد جئت في الثامنة، وأخبرتني السيدة حواء بتأجيل الموعد إلى التاسعة، فأخذنا نقطع الوقت بالحديث

فعلق آدم الولهان مرددا حكمة شائعة قائلاً:

– الوقت كالسيف إذا لم تقطعه يقطعك

التفتت حواء الصايغ إليه وسألته محاولة أن تدير الحوار إلى منطقة أخرى فهي تعرف الغيرة الخفية التي تكمن في أعمق أعماقه من كل ما يثير إعجابها:

– لكن أين ضيفنا الآخر؟

نظر آدم الولهان إلى ساعته التي كانت تشير إلى دقائق قبل التاسعة وقال مخاطبا زوجته:

– أنت تعرفين آدم جورج الشماس، ليس من عادته أن يكون دقيقا في المواعيد

التفت آدم الولهان إلى آدم المطرود قائلا:

– آدم جورج الشماس صديقنا، لبناني – فرنسي، تعرفنا عليه في باريس قبل سنتين، شخص غريب الأطوار، يعيش متنقلا بين البلدان الأوربية، إنه مزيج ما بين فنان وتاجر، لكنه لا هو بالفنان

ولا بالتاجر، إنه يتاجر بالفن ويتفنن بالتجارة.. إنه صديقنا

علقت حواء الصايغ بمرح:

– إنه صديقك أنت.. فهو بالنسبة لي إنسان متعب

في هذه اللحظة بالذات رن جرس الباب، نظر آدم الولهان إلى ساعته اليدوية فرأى أنها تشير إلى التاسعة بالضبط فعلق مبتسما:

– لا أعتقد أنه هو.. فهو يتأخر عشر دقائق دائما عن أي موعد مهما كان مهما

فتح آدم الولهان الباب بنفسه فدخل رجل قد تجاوز الخمسين من العمر، أبيض الشعر، حيوي، قلق النظرات. وسيم المظهر. استقبله الزوج ضاحكا وهو يقول له:

– الشماس.. مش معقول.. هذا أنت تصل في الموعد المحدد بالضبط..

ودون أن يجيب تقدم الرجل نحو المهندس آدم المطرود وحواء الصايغ. أخذ يد حواء الصايغ فقبلها بصورة احتفالية بحيث ارتبكت لاسيما أمام آدم المطرود، ثم التفت نحوه مادا كفه للمصافحة:

– إذن، أنت المهندس الأديب الذي اقتحم عالم آدم الولهان وزوجته الساحرة حواء الصايغ.. أنا آدم جورج الشماس.

– أهلا وسهلا.. أنا المهندس آدم المطرود

مد آدم المطرود كفه مصافحا أيضا دون أن يبدي عليه أي أثر لرد الفعل على طريقة آدم الشماس الاحتفالية، بل إنه فرح مع نفسه لما قاله، فهذا يعني أنهما تحدثا عنه، بل وفكرا فيه. ألقى آدم المطرود نظرة خاطفة إلى حواء الصايغ التي كانت في تلك اللحظة تنظر إليه، فالتقت نظراتهما وابتسم كل منهما للآخر بلطف.

جلس الجميع على المقاعد الوثيرة، وقبل أن يبدأ أحد بالحديث بادر آدم الشماس مخاطبا آدم المطرود قائلا:

– حينما سألت آدم وحواء عندما وصلا باريس عن أهم الأشياء التي

شاهدوها أو تعرفوا عليها في سفرتهم، أجابني كلاهما بأن تعرفهم على آدم المطرود كان من أبرز الأشياء..

ارتبك المهندس آدم المطرود للحظة ولاحظ هو بأن حواء الصايغ ارتبكت أيضا، بينما زوجها ابتسم مؤكدا كلامه، فقال آدم المطرود:

– هذا لطف منهما لا أكثر، وشعور جميل أبادلهما أنا فيه أيضا.

كان آدم الشماس جريئا، مقتحما بكلامه، لا يعير اهتماما للشكليات، فاستمر في حديثه:

– حديثهم عنك، وبالتحديد المدام حواء أثار اهتمامي، فوددتُ أن أراك، فأنا عشت معظم حياتي في أوروبا، حتى لبنان بلدي الذي أحبه جدا نادرا ما كنتُ فيه، وما أثارني حقا أن مدام حواء الصايغ تحدثت عن مسيو آدم المطرود حديثا مليئا بالتبجيل، وأنا أعرف مدام حواء جيدا فهي دقيقة جدا في استخدام المفردات، بل وهي بخيلة في الإطراء والمديح، لاسيما للرجل الشرقي.. وبالتالي انتابني الفضول في أن أتعرف إليك..

انتبه المهندس آدم المطرود إلى أن حواء الصايغ لا تود الاسترسال في هذا الموضوع، وأنها لا تميل لطريقة آدم الشماس في الحديث معه، فسأله آدم المطرود بهدوء:

– عفوا أستاذ آدم. لا أفهم ما المقصود بالرجل الشرقي؟ فهي كلمة واسعة جدا.. الصيني والفيتنامي، والهندي، والإيراني، والتركي والكردي والعربي كلهم شرقيون. والشرق يعني التوراة والإنجيل والقرآن.. والأنبياء كلهم شرقيون.. والأديان كلها شرقية.. فان كنت أنا سليل كل هذا فانا افتخر وأتعجب كيف السيدة حواء الصايغ تنتقد الإنسان الشرقي..

بهت آدم الشماس من إجابة المهندس آدم المطرود فقال معلقا على سؤاله، مبديا أيضا عدم رغبته الواضحة في مواصلة الحديث وكأن سؤال آدم المطرود كان بمثابة هزيمة له، ففقد شيئا من حيويته ومرحه الذي

رافقه عند الدخول، ومستدركا:

- لا.. لا.. يبدو أن عليّ أن أكون دقيقاً في انتقاء كلماتي عند الحديث معك، ومع ذلك أعتقد أن الحديث معك سيكون ممتعا.

أدرك آدم الولهان حالة صديقه آدم جورج الشماس، فهو دائما يسعى لإثارة إعجاب زوجته حواء بالنقاش والأفكار الغريبة والجريئة، مثلما انتبهت حواء الصايغ إلى ذلك أيضا، فنظرت إلى آدم الشماس بمرح، لأنها بغريزتها أحست أنه سوف لن يغفر للمهندس آدم المطرود هذا الموقف، وأنه سوف يستفزه طوال هذه الأمسية، وربما سيحقد عليه لاحقا، ولكي تنهي هذا الجو الذي توتر للحظات، قامت ودعت الجميع إلى المائدة.

لم ينتبه المهندس آدم المطرود إلى الطريق ولا إلى المكان الذي وصلوه، ولا إلى الممرات التي ساقوه فيها، ولا القاعات والغرف، إلا عندما سمع المحقق آدم التكريتي يقرب وجهه منه ويصرخ فيه:

- الصمت لن يساعدك.. إنك تؤكد التهمة على نفسك..

ظل المهندس آدم المطرود صامتا، فقال له الرجل الذي كان يبدو أنه رئيس المحققين:

- حتى لو صّمت فلدينا معلومات مؤكدة عنك. فلقد شاهدك الجيران ليلة حدوث الجريمة وفي الساعة نفسها التي حددها الطب العدلي لساعة وقوع الجريمة، وكذلك شاهدك حارس أمن البناية، ولدينا أيضا شهادة سكرتيرتك حواء اللهيبي، وكم كبير من الأقوال المتضاربة التي يمكن أن تكون لصالحك أو ضدك وهذا كله متوقف عليك..

ما أن ذكر المحقق اسم حواء اللهيبي حتى دبت الحركة والحيوية في نفسه. تُرى ما الذي قالته عنه؟ وهو لحد الآن لا يستوعب رحيل حواء

الصايغ عن هذا العالم، وبهذه الطريقة، أي أن تُقتل.

نظر آدم المطرود إليهم نظرة متفحصة لكن كان واضحاً أنه يفكر بأشياء أخرى. لم يقل أي شيء. تبادل المحققون النظرات في حيرة، فبادره المحقق آدم التكريتي:

– لعلك تريد أن تستريح أو أن تفكر في أن تحدثنا عن كل شيء. أنت رجل ذكي؟؟ كاتب معروف، وبوسعك أن تساعد العدالة أو تكون عائقا لها. وحدك من سيقرر ذلك. سنتركك قليلا لتستريح، فكر وحدك، وإلا، فحينما نعود سنكون مضطرين لاتخاذ أساليب أخرى معك لا نود أن نستخدمها، فملفك أمامنا وأنت إنسان مخلص للحزب والثورة. ملفك ليس فيه من هذه الناحية أية شائبة.. فكر وقل لنا لماذا قتلت حواء الصايغ؟

قام الجميع وخرجوا إلا آدم المطرود فقد بقيَ على كرسيه تائه النظرات، محدقا في الماضي بعيون جاحظة.

شعرت حواء المؤمن بتعاطف مع حواء الصايغ. أحست أنها قريبة منها رغم أنها كما رسمها زوجها الدكتور آدم التائه مثقفة، بل ومثقفة جدا، لكن ربما هي تعيسة حقا لأنها بلا أطفال مثلها، فكل الثروة لا تعوض المرأة عن فقدان الأطفال والحرمان من مشاعر الأمومة.

سألت نفسها: لماذا يريد زوجها آدم التائه أن تُقتل هذه المرأة الجميلة الحزينة المسالمة؟ وهل يا تُرى سيتم إنقاذ آدم المطرود من هذه التهمة ويكشف عن القاتل؟

كانت في شوق لمعرفة ذلك فانتقلت للفصل اللاحق.

سأل آدم البغدادي نفسه هل صادف هو في حياته امرأة مثل حواء المجهول؟ حاول أن يستذكر، فوجد أنه قابل فعلا أثناء دراسته الجامعية ببعض الفتيات المثقفات جدا، وكانت واحدة منهن مثقفة ثقافة استثنائية لكنها كانت قبيحة بالمعنى الحقيقي

للقبح، وتعرف على واحدة أخرى كانت مثقفة وجميلة لكنها ليست بجمال حواء المجهول.

انتبه آدم البغدادي إلى أن الكاتب مثل ذلك الطبيب الجراح الذي كان مهووسا بفكرة الخلق، فجمع أشلاء مختلفة وأجرى ما أجرى من لصق وترقيع وتركيب من الأشلاء كي يوجد مخلوقا مسخا مثل فرنكشتاين، وربما آدم التائه أو هو آدم البغدادي بالذات، قام بتجميع سمات مختلفة من نساء عديدات صادفهن في حياته، وأوجد شخصية حواء المجهول من خلال الكاتب آدم المطرود.. ربما.

(12)

في اليوم التالي لمساء الدعوة تأخر وصول آدم المطرود إلى المكتب على غير العادة، فقد مضت الساعة الحادية عشرة ولم يصل بعد. وحينما فتح باب المكتب ودخل مرحا ووجهه يفيض بالحيوية والسعادة واجه السكرتيرة حواء اللهيبي وتأمل سريعا وخلال ثوان وجهها فأحسه يمور بمزيج من الغيرة وروح المشاكسة، فقد خمنت أن السيدة زوجة صاحب الدعوة لا بد وأنها مصدر كل هذا الفيض من السعادة التي تشع منه.

وطبعا كانت حواء اللهيبي محقة في تخمينها، إذ كانت دعوة العشاء منعطفا مهما في حياة آدم المطرود الروحية، فالجو الرائع والطعام الشهي واللذيذ، والنقاش الذكي والحوار المتميز من قبل الجميع قد ترك عليه وعلى الجميع مثل هذا التأثير، حتى أنهم أمضوا وقتا أكثر مما كان متوقعا، إذ أنهم بعد العشاء جلسوا في صالة الضيوف وتبادلوا الأحاديث حتى وقت متأخر من الليل.

حين وصل آدم المطرود إلى طاولتها حياها بمرح وبتملق واضح قائلاً:

– صباح الخير يا أجمل سكرتيرة في الدنيا، صباح الخير يا أجمل حواء التي أنقذت آدم المطرود من الجنة.

نظرت حواء اللهيبي إليه وفي داخلها مرجل من المشاعر المختلطة يغلي، وقالت بنبرة ذات اتهام صريح:

– صباح الخير. لكن ما سر كل هذا المديح الذي تعرف جيدا أنك لا تعنيه أبداً. ثم إذا كانت حواء، التي هي أنا كما تقول منقذة آدم المطرود من الجنة، من هي يا تُرى التي أنقذت المهندس

آدم المطرود من العزلة والضجر ومنحته كل هذه السعادة وكأنه طير حر طليق..

انتبه آدم المطرود لنبرة العداء الخفية في ثنايا صوتها فتوجس غيرة قد تؤثر على مزاجه الرائق وربما ستقود إلى نتائج غير مطمئنة. أراد أن يوجه الأمور إلى الجهة التي يعرفها والتي تهدئها، لذا بادر قائلا بنفس المرح:

– ومن هي يا تُرى غير حواء اللهيبي.

مر آدم المطرود من أمامها ودخل مكتبه، لكنه فجأة رفع سماعة الهاتف وقال لها:

- حواء.. فنجان قهوة لو سمحت
- حاضر استاذ
- بسرعة لو سمحت لأني أود أن اعتكف لكتابة شيء مهم
- حاضر
- شكراً

كان آدم المطرود قد مر، قبل مجيئه إلى المكتب، على السيدة حواء الصايغ في شقتهم الواسعة ليشرب معها فنجانا من القهوة، حيث طلبت منه أن يمر صباحا ليشرب القهوة عندهم. ولم تكن حواء الصايغ تتردد في أن تعبر عما تفكر فيه، وكذلك لم تتردد في طلبها ذلك أمام زوجها عندما ودعاه ليلة أمس عند نهاية السهرة.

كانت حواء الصايغ بقدر الغموض الذي يحيط شخصيتها وماضيها وعالمها فهي أيضا واضحة في رؤيتها للأشياء وواثقة من نفسها ومن تصرفاتها، وربما هذه الثقة في جانب منها مستمدة من الثقة التي يمنحها زوجها آدم الولهان لها، لذا لم تكن تتردد في أن تعبر عن رأيها في أعقد المسائل وأكثرها حساسية أمامه.

قبل ذهابه إلى مكتبه توجه آدم المطرود إلى شقتهم، وحينما وصل وجدها في الصالة وبكامل زينتها ولباسها. عرف منها بأن السيد آدم

الولهـان قـد خـرج قبـل وصوله بقليل، فلقد انتظره لكنه تأخر مما أضطره للذهاب.

تـردد آدم المطـرود فـي الجلـوس كثيرا ولعن نفسـه علـى التأخير إلا أن حـواء الصايـغ طلبـت منـه أن يشـرب معهـا فنجانـا مـن القهـوة. قبل الدعوة مرتبكا وسعيدا في الوقت نفسه، وجلس بالقرب منها في الصالة، حيـث كان دورق القهـوة وأكوابهـا موجـودة فـي صينية فضية على إحدى الطاولات.

نظرت حواء إليه مليئة بالود وسألته سؤالا مباغتاً:

– أستاذ آدم، ما رأيك بزوجي؟

بوغت بهذا السؤال، بصراحته ومباشرته ووضوحه، فقال بتردد:

– ماذا تقصدين؟

– قصدي واضح، ما رأيك أنت بزوجي آدم؟

ظل آدم المطرود مرتبكا محاولا كسب الوقت ليحلل السؤال ودوافعه وأن يبحث عن جواب دبلوماسي، فسأل:

– من أي ناحية تقصدين؟

– من جميع النواحي، الخارجية والداخلية..

– وهل رأيي مهم هنا؟

– يعني.. أحب أن اعرف رأيك..

– بصراحة؟

– ولماذا أسألك إذا لم أنتظر الإجابة الصريحة منك؟

– لا يزعجك رأيي إذا لم يعجبك؟

– أبدا.. لماذا أسأل إذا كنت أتوقع الإجابات التي تعجبني فقط؟

– طيب. إن شخصية الأستاذ آدم الولهان الخارجية، برغم دخوله في خريف العمر، إلا أنها تشـير إلى شـخصية جذابة ولطيفة. فرغم تقاطيعـه المتناسـقة ونعومـة ملامحـه، وأناقتـه الطاغيـة والتـي لا يختلف حولها اثنان، إلا أن المرء لا يرتاح لرؤيته كل الارتياح.

فوجئت حواء الصايغ من صراحة آدم المطرود فابتسمت له مشجعة كي يواصل حديثه، فاسترسل:

– أحيانا أجد أن تعبير وجهه وبعض نظراته تكاد تكون منفرة لأنها مزيفة وغير حقيقية، لأنه يتكلفها، فهناك ثمة قناع يغطي وجهه الحقيقي. والغريب أن عينيه البنيتين الجميلتين، اللتين تسترعيان الانتباه لكل من ينظر إليه، تتركان انطباعا للناظر لوجهه بأنهما لا تخضعان لإرادته، فحتى إذا ما أراد أن ينظر نظرة رقيقة ورومانسية فأن ثمة أشعة لا مرئية من القسوة والشراسة والغدر يمكن أن تصدر منهما.

إنه يتعذب، لأنه لا يرتاح أبداً، فحياته كلها تمثيل في تمثيل. لقد رسم لنفسه شخصية وهو لا ينفك يسعى لأن يكونها لكن من خلال تمثيلها. إنه غيور جدا برغم كل هذا التحرر الذي يبديه، بل إنه يلعب دور المتحرر. إنه في أعماقه متغطرس ومتعالٍ على الرغم من تجسيده لشخصية النبيل المتواضع التي يجيدها بشكلٍ مثير للإعجاب، وهو في الجوهر إنسان أناني، وأعتقد أن الحياة، بكل ما فيها، من حب، ومشاعر، وصداقة، ومتعة، وجمال، بالنسبة إليه لا تتعدى كونها صفقة، فهو لا يهدر شيئا من مشاعره وماله ووقته إلا باعتبار ذلك ضمن حساب الصفقة. كل شيء لديه محسوب، حتى الابتسامات واللطف الذي يبديه للضيوف والأصدقاء وإليك أيضا محسوب، إذا لم أقل إنك أكبر صفقة رابحة في حياته.

كانت حواء الصايغ تنظر إليه مصدومة، ومع تدفق كلماته ارتسمت الكآبة على وجهها شيئا فشيئا. انتبه آدم المطرود لها فسأل:

– أرجو أن لا أكون قد تجاوزت حدودي

فقالت بهدوء وبصوت خافت:

– أبدا... أنت تتحدث وكأنك مرآة روحي..

استرخت أعماق آدم المطرود حين سمع ذلك، لكنها واصلت القول بسؤال آخر:

– وماذا عني؟ كيف تراني..
– أنت؟
– نعم أنا..
صمت آدم المطرود للحظات ثم تاهت نظراته واسترسل قائلا:
– أنت صاحبة نفس حساسة جداً، رقيقة، وبرغم ذلك فهناك طبقات من العناد متحجرة في أعماقك. أنت غامضة ومعقدة. كريمة النفس ونبيلة القلب لكنك عصبية، علما أنك لا تبدين عصبيتك أبداً بل تسعين إلى الصفح عن الذين تغضبين منهم وكأن في الصفح لذة مجهولة. أنت حزينة إلى حد التلذذ بالحزن بل والتطهر الروحي من خلاله.
لم يستطع آدم المطرود أن يسترسل إذ قاطعته حواء الصايغ قائلة:
– إنك تبالغ في إطرائي..
– أبدا. إن مقاطعتك لي هو دليل على سمات الشرف والاستقامة والتواضع لأني أثنيت عليك.. قد أكون على ضلال، لا أدري، لكني سواء كنتُ مصيبا أو مخطئا فأني مخلص في ما أقول..
– تقول هذا لأنك تميل إليّ..
– أميل إليك؟ هذه كلمة شاحبة وعليلة أمام ما أحس فيه تجاهك من عمق المشاعر والأحاسيس والاحترام
– أشكرك على هذا الفيض من كلمات الثناء ومن المشاعر التي تشعرني بالسعادة. لكن ألا تخاف من شخصية زوجي..
– بلى، لكننا نتجنب المواجهة. برغم قصر علاقتنا، وأعتقد أنه لا يحب التواصل معي إلا لأنك ترغبين بذلك، وهو بهذا يعذب نفسه أيضا، وكلما تعمق تعارفنا أصر على أن يقرب بيننا، إنه ممثل تراجيدي بارع.
– ولماذا يفعل كل ذلك برأيك؟
– لا أدري، ربما لأنه يحبك بطريقة مرضية، ربما لأنك أعظم صفقة

رابحـة فـي حياتـه كمـا قلت، أو لأنه جامـع للوحات وأنت أغلى وأجمل لوحاته.

– بدأت أخاف منه.. أنك تؤكد ما أنا أحسه أيضا.

قالـت حـواء الصايـغ ذلـك بنبـرة حزينة ثم صمتـت للحظات طالت لدقيقة من الوقت خافضة رأسها الجميل الذي يعشق هو تسريحته حيث الشـعر المصفـوف للـوراء الـذي يكشـف معالم الوجه كاملـة، ثم رفعت رأسها سائلة بتوسل وخوف ورجاء:

– أود أن تكـون صديقـي. صديقـي الوحيـد. موضع أسـراري ومرآة روحي وقلقي ومخاوفي، فهل تقبل بذلك؟

– أنا

لم يتوقع آدم المطرود مثل هذا الطلب الذي قدمته بتوسـل ورجاء. لقـد فوجـئ، وأحـس بخـوف مجهول وكأن الأمر غيـر عادي على الرغم مـن أنـه كان يتمنـى أن يحدثهـا سـابقا، والآن تطلـب منـه هي بنفسـها أن يكون صديقها الوحيد وموضع أسـرارها، وهذا يعني سـيكون أقرب إليها مـن زوجهـا، وهـل يمكنـه يـا تُرى أن يرفض؟ فكر في نفسـه أنها اللحظة المناسبة للمكاشفة فقال لها وهو منفعل:

– أنـا.. هـل تعتقديـن باسـتطاعتي أن أرفـض؟ هـل يمكـن للمرء أن يرفـض نعمـة البصـر؟ هل بإمكانـه أن يوقف نبض قلبه؟ أنت لي نور البصر وألق البصيرة، نبض القلب ومعنى الوجود. إن حياتي ووجودي وكياني كله بين يديك.

كان آدم المطـرود ينظـر إلـى وجههـا وهـو يقـول كلماتـه تلك ورأى دفق الانفعالات السـعيدة التي كانت تنعكس على وجهها الجميل، لكن الابتسامة الحزينة لم تغادر ذلك الوجه. نظرت إليه وفي عينيها أمواج من مشاعر الشكر والامتنان والحب الخفي تنساب برفق، وقالت:

– لا أعـرف كيـف أشـكرك فالكلمـات كثيـرا مـا تعجـز عن تجسـيد المشـاعر البشـرية، ولكونـك كشـفت عن مشـاعرك نحـوي بهذا

الوضوح فبودي أيضا أن أقول إنك توأم روحي، إنك قريني، إنك أنا، إنك نصفي الآخر. وبودي أن نكون قريبين معا..

تألق وجه آدم المطرود بسعادة تعجز الكلمات عن وصفها، لكن هذا التألق انطفأ فجأة. لاحظت هي ذلك فسألت:

– ما بك؟

نظر إليها وقال بتساؤل:

– والسيد آدم الولهان؟

– ما لنا وله. علينا أن نخلق عالمنا الخاص بنا بعيدا عن صفقاته وتلصص عيونه. أنا لم أصدق أني التقيت إنسانا مثلك، لقد حلمت بذلك كثيرا، لقد كنت أحلم بإنسان طيب ورقيق وفيه بعض الطفولة. وجدتك، ولا أريد أن أفقدك. ربما تظنني غير طبيعية، ربما تفكر بأني أشعر بالوحدة وبالحاجة الجسدية والحنين لصدر رجل لأن زوجي آدم يكبرني في السن كثيرا، لا أبدا ليس هذا، فأنا لا أميل إلى ذلك، وأنه ما زال قويا، برغم أن حاجتي إلى إنسان مثلك لا توصف ولا يمكن ربطها بعالم الجسد المادي. إنها رغبة في التكامل الإنساني، التكامل الوجودي. لا أدري كيف أوضح ذلك.. هل تفهمني؟

– أفهمك.. أفهمك جدا.. أنا أيضا أحتاجك.. أحتاج لحضورك الطاغي في حياتي ووجودي.. منذ أن قابلتك صرت لا أستطيع تخيل العالم بدونك، لا أستطيع أن أتخيل حياتي بدون وجودك فيها.. لكن ماذا لو عرف الأستاذ آدم؟

– من أين له أن يعرف؟ وما دامت هذه العلاقة صافية وطاهرة وغير ملوثة، فأنها لن تخيف حتى لو تم اكتشافها، وبالمناسبة أنه معجب بك، برغم ما قلته عن غيرته منك.

– معجب؟

– نعم..

ابتسمت حواء الصايغ قليلا، وأرادت أن تبتعد من موضوع حديثهما السابق لأنها أحست أنهما لو استمرا فيه الآن فربما سينتهي الأمر بكارثة، إذ أحست أن آدم المطرود برغم عمق مشاعره وصدقها حينما عبر عن حبه لها إلا أنه كان يشع رغبة فيها أيضا وهذا ما أخافها قليلا، فهي لم تفكر في هذه المنطقة الملتهبة من العلاقة حينما أرادته بكل وضوح أن يكون صديقها الوحيد، لذا عليها أن تدير الشراع نحو اتجاه آخر، وقالت:

– تصور أننا بعد لقائنا بك في تركيا التقينا أصدقاء لنا في جنيف، وكان بينهم أحد المهندسين، فأراد زوجي أن يبين معارفه في فن العمارة، وأخذ يردد المعلومات التي سمعها منك وكأنها معارفه، ولكونه ليس صاحب المعلومات أساسا، ولأن الهندسة وفن العمارة ليس حقله، فأنه أفسد المعلومات لأنه وضعها في غير موضعها، فحصلت بلبلة في النقاش لأن المهندس الآخر كان من مؤيدي تيار ما بعد الحداثة في العمارة، ولم يستطع زوجي أن يدافع عن رأيه ولا أن يواصل النقاش، مما عكر عليه مزاجه ذلك اليوم كله وظل غاضبا من المهندس الآخر. والغريب أنه كان غاضبا منك أيضا، وكأنك السبب في هزيمته بالنقاش، نعم هزيمته، لأن كل شيء لديه هو معركة، أنت أسميتها صفقة، فهو لا بد أن يخرج منها رابحا أو منتصرا مليئا بالزهو، وهذا الأمر يتكرر في الفن التشكيلي، فكثيرا ما يسمع آراء فنية فيتبناها وكأنها رأيه، وأحيانا تكون هذه الآراء متعارضة ومتناقضة تناقض التيارات والمدارس الفنية، لكنه في هذا المجال حينما يُحاصر يستطيع أن يجد منفذا، لأنه بالأساس تاجر في مجال الفن، أما في مجال فن العمارة فلم يكن سوى استعراضي بائس لم يجد من مفر سوى إثارة البلبلة ثم التراجع.

– بدأت أخاف منه.. لم أنتبه لهذا الأمر فيه..

– علي أية حال.. أرجو أن تنتبه لنفسك.. سأحاول الاتصال بك على المكتب.. هل يمكنني ذلك؟
– بكل تأكيد
– هل أنت وحدك في المكتب أم مع شركاء؟
– لا.. المكتب لي وحدي.
– هل لديك مكتب سكرتارية
– نعم.. لدي سكرتيرة.. حواء
– ألا يضايقك أن أتصل بك؟
– أبدا... وأتمنى أن تشرفيني بزيارة المكتب..
– هذا شيء صعب.. لا أعدك فيه.. فكل حركة من حركاتي محسوبة.. وآدم يعرفها أو يجب أن يعرفها، بل هو يسأل المساعدة في خدمة البيت عن تحركاتي وتصرفاتي حتى داخل البيت، لا لأنه يشك في، لا وإنما يخاف عليّ ويريد أن يوفر لي كل سبل الراحة كما يقول، علما أن هذا يضايقني جداً، لأني أشعر وكأني سجينة حبه واهتمامه، إلى جانب أنه لا يأتمن الوضع في البلاد، إذ أحيانا يسرني بأن بعض رجال القمة يرسلون إلى الشوارع من يلتقط لهم النساء الجميلات كي يخطفوهن، أو يصلوا إليهن، وإلى أزواجهن بطرق ملتوية آخرها التهديد.. بالمناسبة، هل هذا صحيح أم أنه يريد أن يخيفني فحسب؟

أحس آدم المطرود ببعض الخوف، أحس أنه يدخل منطقة مليئة بالألغاز، لكنه أرتاح بأن حواء الصايغ وزوجها آدم الولهان ليسوا من أتباع السلطة، لذا يمكن الحديث معها بحرية، فقال:

– هذا صحيح جدا.. فالسيد الرئيس وأبناؤه لديهم فرق خاصة تقوم بهذه المهمة، بل ويقال إن المنظمة النسائية التابعة لحزب السلطة مهمتها توفير الفتيات الجميلات للمسؤولين الحزبيين وحسب الأهمية والمنصب.

شحب وجه حواء الصايغ قليلا وقالت بخوف:

– أين نعيش نحن؟ وفي أي البلاد؟

أراد آدم المطرود أن يغير مسار الحديث ليعود إلى زيارة مكتبه، فقال:

– على أية حال. لا أريد أن أضايقك، لكن يشرفني زيارتك لمكتبي..

نظرت إليه وكأنها فهمت ما يرمي إليه، فقالت مع ابتسامة مرتبكة لا تنسجم مع ملامح الخوف التي سبقتها:

– دعنا من هذا حاليا، سنفكر فيه لاحقا. بيننا التليفون، وأنت أيضا يمكنك زيارتنا بشكل متواصل، لكن علينا الانتباه، فآدم صرت تعرفه جيدا. يجب أن تكون زياراتك بحضوره كي لا يشك بشيء، إلى أن يعتاد على حضورك، رغم أنه لا يثق بأحد..

في هذه اللحظة رن جرس الهاتف، وبعد لحظات جاءت المرأة التي تساعد في أمور خدمة الشقة وقالت لحواء:

– السيد آدم على التليفون

– سآتي

في هذه اللحظة نهض آدم المطرود ومد يده مصافحا، وقال:

– علي الذهاب أيضا، شكرا على القهوة

مدت يدها مصافحة أيضا ونظرت في عينيه بعمق وقالت:

– سأتصل بك.. متى هو الوقت الملائم للاتصال كي لا أعيقك عن عملك؟

– بعد الثالثة دائما.. أكون حينها وحدي تماما..

– وقبل ذلك؟

– قبل ذلك أيضا.. يمكنك الاتصال.. ستجيبك السكرتيرة..

– لا.. يفضل أن تكون أنت على الخط وليس السكرتيرة. لا أريد أن ينتبه أحد لذلك. المهم سأتصل بك بعد الثالثة من كل يوم أستطيع فيه الحديث معك.. شكرا لمجيئك..

وضغطت على كفه وبقيا للحظات قصيرة ينظر كل منهما إلى الآخر، وخرج.

دخل المحقق آدم التكريتي إلى غرفة التحقيق الواسعة وكأنها قاعة كبيرة، والمعتمة إلا من مصباح يتدلى من السقف الإسمنتي وينشر ضوءه الفقير على مساحة قليلة فوق رأس المهندس آدم المطرود والطاولة التي أمامه وكذلك رأس المحقق آدم التكريتي الذي جلس على الكرسي المقابل. نظر المحقق إلى آدم المطرود وسأل بنبرة قوية واستفزازية:

- هل فكرت؟ أخبرني الآن عن كل شيء، لماذا قتلت السيدة حواء الصايغ؟

ارتسمت ملامح الرعب على وجه آدم المطرود وقال:

- أنا لم أقتل حواء الصايغ؟ ولماذا أقتلها؟
- نحن نريد أن نعرف لماذا؟
- أنا لم أقتلها؟
- رجعنا إلى نقطة الصفر. لا تجبرني أن أنتزع الاعتراف منك بالقوة، هل تفهم؟
- أنا لم أقتلها..
- أسمعني جيدا.. كل الدلائل تشير إليك، بل لدينا معلومات خطيرة عنك، كنا نتصور أنك أحد الناس المؤيدين للحزب والثورة واتضح لنا العكس..

ارتعب آدم المطرود عند سماع هذه الكلمات، فالقضية أخذت مجرى آخر، لقد كان مطمئنا خلال الأيام الماضية من البراءة، لكن القضية الآن أخذت بعدا سياسيا، ولم يفهم الذي يقصده المحقق..فقال مرعوبا:

- أنا دائما كنت مع الحزب والثورة.. منذ أيام الثانوية ولحد الآن.. وأنتم تعرفون أنه ليس لدي أي شيء يسيء للحزب والدولة

– مـن كان يـزورك فـي مكتبـك أيـام تمرد عملاء إيـران ضد الحزب والثورة

– لا أحد

– لا أحد؟ هل تستغفلنا أيها الحقير

فجأة، وبدون أي توقع، أحس آدم المطرود بصفعه قوية ومدوية على وجهه فكاد أن يقع عن كرسيه إثرها.

– حقيـر.. نحـن نعـرف كل شـيء عنـك وعن نشـاطك ضد الحزب والثورة..

– أقسم لكم بكل المقدسات لم يزرني أحد في مكتبي غير سكرتيرتي

– ومن غير السكرتيرة؟

– لا أحد

صفعه المحقق آدم التكريتي ثانية صفعة أقوى من الأولى فسـال دم من شفتيه، وهو يقول:

– وهذه كي تتذكر أيها السافل الحقير.. كنا نحترمك لكن اتضح أنك لا تسـتحق سـوى أن نضع الخراء في فمك يا حقير.. ألم تقابل المقاول آدم الحلي في مكتبك؟

تذكـر آدم المطـرود أنـه قابـل هـذا المقـال المدعـو آدم الحلي الذي يكلفـه بانجـاز مقاولاتـه التـي يحصل عليها من الدولة، وأن لهذا المقاول علاقات وطيدة بأزلام السـلطة، وأنه لم يزره في المكتب سـوى مرتين، وفـي كلا المرتيـن لـم يكـن أحد فـي المكتب، فحواء اللهيبي كانت غائبة عن الدوام تلكما اليومين.

صاح المحقق آدم التكريتي متجها بندائه صوب باب الغرفة:

– أيها الضبع.. يا آدم الضبع

دخل الغرفة رجل طويل القامة بشكل لافت، مفتول العضلات، أسود البشـرة، كريه الملامح، واقترب على مسـافة من المحقق مسـتعدا بحركة عسكرية قائلا:

– نعم سيدي

– شد وثاق هذا الكلب الأجرب إلى الكرسي كي نؤدبه

تقدم المدعو آدم الضبع قليلا ليتأمل آدم المطرود، ثم قال موجها كلامه للمحقق آدم التكريتي:

– لحظة سيدي، سآتي بالحبال

خرج المدعو آدم الضبع من القاعة. أحس آدم المطرود بالرعب، فبرغم الخدر والورم اللذين يحسهما في وجهه أثر الصفعتين، إلا أنه يخاف التعذيب الجسدي، ولا يتحمله، وهو مستعد أن يقول لهم أي شيء يريدونه، لكنهم يسألونه عن أشياء ليست لديه علاقة معها، فهو لم يقتل حواء المجهول، وليست لديه أية نشاطات سياسية، ولم يخطر في باله أي شيء يمكن أن يفسر بأنه يعارض النظام. إنه لا يفهم ما يدور حوله.

كان المحقق آدم التكريتي يدخن سيجارته وينفث الدخان إلى الأعلى ويتأمل تطايره في غيوم صغيرة تتعالى نحو المصباح ثم تتبدد في العتمة التي تحيط الغرفة من جميع جوانبها.

دخل المدعو آدم الضبع إلى الغرفة ثانية وبيده حبل متين. اقترب من آدم المطرود وأخذه من يديه التي سحبهما إلى الخلف على جانبي الكرسي وبدأ يشدهما إلى الكرسي ثم بدأ يدير الحبل على صدره ورجليه، إلى أن صار المهندس جزءا من الكرسي. وكان المهندس آدم المطرود مستسلما لمصيره استسلام الشاة ليد الجزار.

حاول المهندس آدم المطرود أن يستذكر وجه حبيبته حواء الصايغ وهي قتيلة فلم يستطع، لكنه استذكرها في مواقف أخرى.

بعد أول لقاء له مع حواء الصايغ على الفطور ظل آدم المطرود ينتظر اتصالها التليفوني بلهفة شديدة. كان يستعجل نهاية الدوام، وكانت السكرتيرة حواء اللهيبي مستغربة الحالة التي هو فيها، إذ كان يسألها في اليوم الواحدة ثلاث مرات أو أكثر إن كان هناك من اتصل بالمكتب فكانت تخبره بمن اتصل، لكنه يعقب دائما إن كان هناك غير هؤلاء قد اتصل،

فكانت تجيبه بالنفي، وبدأت تلاحظ قلقه وانتظاره ولهفته، ولاحظت أنه أخذ يتأخر يوميا في مكتبه متحججا بأنه مشغول بروايته الجديدة.

في نفس ذلك اليوم مساء كان يحوم حول بنايتهم لكنه لم يستطع الدخول فرجع إلى المكتب ليبقى فيه إلى وقت متأخر جدا، ولم يكن يرغب بمغادرة المكتب فنام هناك.

وفي الصباح الباكر وقبل مجيء السكرتيرة حواء اللهيبي رن جرس التليفون. فنهض متكاسلا وحينما رفع السماعة جاءه صوت آدم الولهان مرحا:

- صباح الخير أستاذ آدم..
- صباح الخير أستاذ آدم..
- أين أنت يا رجل.. افتقدناك.. لم تزرنا منذ أيام.. أرجو أن يكون المانع خيرا..
- والله ظروف العمل يا أستاذ آدم. ما هي أخباركم؟ أنا افتقدتكم أيضا. كيف حال السيدة حواء؟
- إنها بخير وتسأل عنك.. هل لديك اليوم ما يشغلك عن العشاء عنا..
- لا أبداً.. يشرفني ذلك..
- سيكون آدم جورج الشماس معنا أيضا.. سيغادر غدا إلى باريس، بالمناسبة إنك أعجبته جدا.. ويسعده أن يلتقي بك ثانية...
- يسعدني ذلك..

ما أثار استغراب آدم المطرود أن مشهد الزيارة تكرر بتفاصيله وكأنه فيلم معاد، فعندما دخل إلى مدخل البناية جاءه حارس الأمن نفسه ليسأله السؤال نفسه، وعندما ضغط زر المصعد، وحينما وصل وقبل أن تغلق أبوابه دخل العجوز وزوجته اللذان يسكنان الطابق الثالث، سلما عليه وابتسما له. وتكرر وجه المرأة التي تساعد في الخدمة، التي فتحت له الباب، ودعته للجلوس في الصالة، حيث جلس على نفس المقعد الذي

جلس عليه سابقا عند زيارته الأولى والثانية.

أحس وكأنه يحلم، لكن الذي أكد له حقيقة ما يرى هو دخول السيدة حواء الصايغ، بثوبها الحريري الرماني اللون ومعها زوجها آدم الولهان، الذي كان في بدلته الرمادية وقميصه الأبيض وربطة عنقه الحمراء، حيث رحبا به بحرارة، وفي ذلك الوقت رن جرس الباب ففتحه السيد آدم الولهان بنفسه فدخل آدم الشماس وهو في بدلته الزرقاء الأنيقة، وبيده كيسا من النايلون وشيئ آخر ملفوف بورق الهدايا الثمينة، وتقدم من السيدة حواء الصايغ محييا مادا ما بيده قائلا بطريقة احتفالية كعادته:

– كل عام وأنت بألف خير أيتها الحواء الجميلة الرائعة، يا أم الجمال والسحر والعطاء

وقدم لها هداياه، ابتسمت له وفي عينيها نظرات الشكر والامتنان وقالت:

– شكرا جزيلا آدم.. ليس من داع لكل هذا.. حضورك يكفي

امتقع وجه آدم المطرود وأحس بالخذلان، فقال لآدم والولهان وحواء الصايغ بأسى حقيقي وغضب خفي:

– لماذا لم تقولا لي إن اليوم هو عيد ميلاد السيدة حواء وإنني مدعو للاحتفال معكم بهذه المناسبة.

انتبه آدم الولهان وزوجته لاستياء آدم المطرود من عدم إخباره بالمناسبة لأنه جاء بدون هدية، فقال له:

– لا عليك.. حضورك يكفي.. نحن عادة نكون خارج العراق في مثل هذه الأيام من الصيف، وكثيرا ما نكون في باريس، لكننا هذه السنة هنا، ولم نعرف أن كان الوضع يسمح للخروج إلى أحد المطاعم فقررنا الاحتفال هنا في البيت. وآدم الشماس هذه السنة هنا أيضا، وهو يعرف أن 7/7 من كل عام هو تاريخ ميلاد حواء. فلا تتأثر رجاءً. حضورك هو أجمل هدية..

وهنا ابتسم آدم الشماس وقال ضاحكا:

- لا يظل بخاطرك يا رجل.. ربما هذا من حسن حظي فربما كنت ستجيء بهدية أفضل من هديتي..

فضحكوا جميعا، وهنا بدأت حواء الصايغ تكشف عن هدايا آدم الشماس فمزقت الورق الثمين عن الشيء الملفوف فيه فكشف عن تمثال مرمري مستنسخ لأفروديت العارية، والتي كان جسدها شبيها بجسد حواء الصايغ، فأطلق آدم الولهان صرخة إعجاب بينما ابتسمت حواء الصايغ ونظرت إلى آدم جورج الشماس بامتنان قائلة:

- ألف شكر آدم.. التمثال جميل جدا..

فقال لها آدم الشماس وهو يتألق من كلمات الشكر التي سمعها من حواء الصايغ:

- في الكيس عطر فرنسي أصيل غير العطور المغشوشة التي تنتشر في محلات بغداد

فتحت حواء الصايغ كيس النايلون وأخرجت قنينة العطر المغلفة، وفتحتها ثم شمتها قليلا وقالت:

- رائع جدا... هذا آخر إصدار لمجموعة شنيل من العطور..شكرا

التفت آدم الشماس إلى آدم المطرود فرأى الخيبة مرتسمة على وجهه، فقال مداريا الموقف:

- لا عليك أستاذ آدم.. امرح.. لا شيء يحدث.. لا أحد يجيء.. الكل باطل وقبض ريح.. لا تحزن إن الله معنا يا صديقي

جلسوا جميعا. لم يفهم آدم المطرود شيئا من التدفق اللغوي غير المترابط لآدم الشماس، ولم يشأ أن يدخل معه في أي نقاش فتوجه إلى حواء الصايغ بكل كيانه قائلا:

- كل عام وأنت بألف خير يا سيدتي، رغم أني أشعر بالغضب لأني لم استطع أن أقدم إليك شيئا في مثل هذا اليوم المتميز..

- لا عليك أستاذ آدم، نحن تقصدنا أن لا نخبرك بذلك فأهم شيء أن نلتقي ونحتفل، ويمكنك أن تعوض عن هديتك بحديثك

وبحضورك المتميز، وكما قال زوجي آدم فإن حضورك هو أجمل هدية.

قالت ذلك وهي تضع الهدية على طاولة جانبية، وتدعو الجميع إلى صالة الطعام التي كانت تتوسطها طاولة الطعام المنظمة بشكل دقيق.

حينما فتح آدم الولهان قنينة الشمبانيا أطلقت صوتا احتفاليا يبعث البهجة في النفس، فسكب في الأقداح المخصصة لذلك. رفع الجميع كؤوسهم، وشربوا بصحة السيدة حواء الصايغ، ثم دعتهم إلى تناول أنواع الطعام والمقبلات المختلفة، وحينما خيرهم زوجها بين الجن أو العرق أو الويسكي، رفض آدم المطرود أياً منها وسأل إن كان هناك نبيذ فرنسي أحمر ناشف، ففتح آدم الولهان له زجاجة، بينما طلب آدم الشماس كأسا من العرق اللبناني وصب آدم الولهان لنفسه كأسا من الويسكي، أما حواء الصايغ فظلت ممسكة بكأس الشمبانيا الذي مسته مساً بشفاهها مجاملة لهم ولم تشرب منه شيئا.

التفت آدم الشماس إلى آدم المطرود وسأل:

- سمعت أنك تجيد التركية إلى جانب الانكليزية
- نعم.. لقد درست في تركيا لذلك أجيد تلك اللغة

فسألته حواء الصايغ:

- هل هي لغة جميلة
- لا أدري.. أعتقد كل لغة يعرفها الإنسان تكون بالنسبة له جميلة، فما دام يستطيع أن يعبر عن نفسه ومشاعره من خلالها فأنها ستكون بالنسبة إليه لغة جميلة..

علق آدم الولهان:

- هذا صحيح..
- هل تقرأ الأدب بهذه اللغة. سألته حواء الصايغ
- معظم آداب العالم مترجمة إلى التركية، ربما أكثر بكثير مما ترجم إلى العربية، إلى جانب أنها لغة شعرية جميلة. من يستمع

إلى قصائد ناظم حكمت بلغتها الأصلية سيعرف جمال هذه اللغة.

– ناظم حكمت شيوعي. علق آدم الشماس

– لا يعنيني تفكيره السياسي. فشعره رائع. صحيح أن معظم شعره سياسي، لكن لديه قصائد كتبها إلى زوجته منور أو قصائد كتبها عن لسان زوجته هي في ذرى الجمال والبساطة والرقة الإنسانية..

– يبدو أنك متحمس له..

– أنا متحمس للجمال. متحمس للشعر وليس للشاعر

نظرت حواء الصايغ إليه نظرة لم يفهمها سواه، نظرة فيها من التحذير والتذكير الكثير، وقالت له:

– لتكن هديتك لي هي أن تقرأ قصيدة بالتركية وتترجمها لنا بالعربية.. لكن المهم أن تسمع كيف هو وقعها على آذاننا..

– إنه مقترح رائع... قال آدم الولهان مؤيدا زوجته

– أوه. عليّ أن استحضر أية قصيدة من جرار ذاكرتي. صحيح أني درست الهندسة بيد أني كنت مولعا بقراءة الشعر بالتركية، وحفظت الكثير منه، لكني الآن وبعد مرور كل هذه السنين نسيت الكثير..

– لا تتهرب من إسماعنا شعرا بالتركية ولشاعرك المفضل ناظم حكمت.. علق آدم الشماس

صمت آدم المطرود لحظات ثم رفع كأسه وقال:

– في صحة السيدة حواء الصايغ. سأقرأ قصيدة كتبها ناظم حكمت عن لسان زوجته، وهي بعنوان: رسالة من اسطنبول، حيث أرسلت له زوجته رسالة حينما كان في السجن فصاغها هو شعرا.

كانت جميع العيون متعلقة بوجهه، لكن النظرات كانت تخبئ مشاعر مختلفة، وبعد لحظات صمت انطلق آدم المطرود يقرأ بالتركية قصيدة ترجمها في ما بعد لهم كالتالي:

عزيزي،
أكتب إليك من حيث أستلقي،
لأني تعبة.
رأيت اليوم وجهي في المرآة.. انه ممتقع،
فالهواء بارد، والصيف لن يأتي،
وأنا أحتاج حطباً بثلاثين ليرة في الشهر،
ومن أين لي بذلك؟
لهذا لففت نفسي ببطانية،
فيما أنا جالسة اشتغل.
الزجاج متكسر، وإطارات النوافذ محطمة،
والسكن، هنا، غير ممكن،
لذا عليّ الرحيل،
فالبيت سينهار، والإيجار مرتفع جداً.
لماذا أقول كل هذه الأشياء؟
أنا أعرف انك ستغتم،
ولكن لمن أشكو همومي؟
لا تؤاخذني،
فإذا كانت النهارات باردة، باردة جداً،
فكيف هي الليالي؟
لقد ضقت ذرعا، مللت البرد،
بينما أرى أفريقيا في الحلم،
وفي الحلم سافرتُ إلى الجزائر، كان الجو حارا،
وأصبت برصاصة قي جبيني، فسال دمي،
لكني لم أمت.
صرت أحس بالشيخوخة كثيرا،
مع أنك تعلم أني دون الأربعين.

أقول هذا، فيغضبون، ويلومونني،
وعلى كل حال، لنغلق هذا الحديث.

لقد أطلت الرسالة جداً،
أعتن بنفسك، وأكتب الجواب حالا،
لا تنسني،
اكتب الجواب حالا، ولا تخدعك نفسك،
فتتوهم أن (منور) حكيمة، وتدبر كل شيء
فأنا من دونك مقصوصة الجناح.
لا تنسني،
اعتن بنفسك،
أقبلك من عينيك يا روحي،
جاوبني بسرعة،
لا تحمل همومي،
انسها،
ولكن لا تنسني.

\كان آدم المطرود يقرأ القصيدة بنبرة حزينة مستحضرا حالة منور زوجة الشاعرناظم حكمت، فتأثر الجميع بالإلقاء وبإيقاع اللغة التركية، ثم قرأ ترجمتها بنفس الحرارة والتجسيد، فترقرقت الدموع في عينيّ حواء الصايغ فأخذت منديلا من على الطاولة لتمسح زوايا عينيها من دموع على وشك الانهمار. ران صمت بليغ للحظات على الجميع، قطعه صوت آدم الشماس قائلا:

– أشهد أنها لغة جميلة رغم أني لا أحبذها حينما اسمع الأتراك يتحدثون فيها في باريس أو حينما أكون في برلين.

– إنها قصيدة رائعة.. بسيطة ومعبرة جدا..لكنها ليست طويلة كما

تقول زوجة الشاعر في القصيدة، علق آدم الولهان
فقال آدم المطرود منتبها لدقة ملاحظة آدم الولهان:

- إنـك دقيـق جدا أسـتاذ آدم..نعم القصيدة فـي الأصل طويلة جدا، ولقـد حذفـت منهـا أثناء القراءة ما يعادل ضعفيها، لأني لم أتذكر تلك المقاطع جيدا..

وفعلا فأن آدم المطرود حذف أثناء القراءة مقاطع طويلة من القصيدة ليس بسبب النسيان، وإنما لأن تلك المقاطع ذات نبرة سياسية، ولم يشأ أن يؤكد ما قاله آدم الشماس عن شيوعية ناظم حكمت. أما حواء الصايغ فقد تلبسها حزن شديد فقامت معتذرة أن ستعود، حينها خيم وجوم على الجالسين. فجأة قال آدم الولهان محاولا أن يضفي شيئا من المرح على الجلسة فقال:

- النساء خلقن هكذا.. إنهن عاطفيات جدا.. يتأثرن بقصيدة بحيث تنقلب أحوالهن
- أنا آسف جدا.. لم أكن أعرف أنها سوف تتأثر إلى هذه الدرجة، قال آدم المطرود معتذرا ومقدما تبريراته.
- لا عليك أسـتاذ آدم لم يكن قصدك أن تحزنها، والذنب هو ذنبي أنا الذي فتحت موضوع اللغة التركية. علق آدم الشماس.

بعد قليل عادت حواء الصايغ إليهم بنفس مرحها السـابق وكأنما لم يحصل أي شيء، فقالت بما يشبه الاعتذار:

- أنا آسفة جداً.. لم يكن الأمر بيدي.. لقد أثرت القصيدة فيّ جداً، على أية حال الشكر موصول للشاعر ولقارئ القصيدة ومترجمها على هذه الهدية الجميلة.
- والحزينة.. علق آدم الشماس

انتبـه آدم المطـرود إلـى صـوت المحقق آدم التكريتي وهو يصرخ في وجهه شاتما:

– أيها الحقير أنا أتحدث معك..
– نعم..
– ما هي علاقتك بالمجرم الخائن آدم الحلي..
– ليست لدي أية علاقة معه

لم يشعر آدم المطرود إلا وبلكمة قوية جدا تأتيه من آدم الضبع على أسفل فكه تحت شحمة الأذن مباشرة، فانقلب مع كرسيه على الأرض وهو يرفس برجليه مثل الذبيحة لا يستطيع تحريك فكه ووجهه بل ولا يستطيع حتى الصراخ، إذ أحس بالشلل والاختناق وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، ثم غرق في الظلام.

لا يدري كم مر عليه من الوقت وهو ملقى على الأرض لكنه انتبه لنفسه وهو مبتل بالماء البارد، فقد دلق عليه آدم الضبع دلوا من الماء البارد فأفاق، ثم بحركة رياضية أعاد الكرسي وهو مشدود عليه إلى وضعه الطبيعي.

حاول أن يفتح عينيه بصعوبة فوجد المحقق آدم التكريتي ما زال جالسا يدخن سيجارته مادا رجليه إلى الأمام واضعا إياهما على المنضدة بمواجهته. نظر المحقق آدم التكريتي إليه ثم علق بسخرية:

– ها.. ماذا تقول الآن عن علاقتك بالخائن آدم الحلي..

لم يستطع آدم المطرود أن يفتح فمه من شدة الألم، أراد أن يجيب لكن فكه كان كالمشلول من أثر اللكمة فلم يستطع سوى أن يحرك شفتيه بدون أن يخرج أي صوت من فمه. فجأة مد المحقق يده وسحب رأسه من شعره وضربها بالطاولة ثم ضغط عليها بكفه على الطاولة التي بينهما، وهو يزمجر:

– حقير، جبان، منيوك، عرفنا كل شيء عنك، حقير، تريد أن تصبح بطلا ولا تتكلم. لقد أخبرتنا سكرتيرتك التي زرناها أمس في المكتب عن كل شيء، سأترك آدم الضبع ينيكك هنا وفي هذه الغرفة، حتى تعرف أننا نعرف كل شيء. بالمناسبة، سكرتيرتك

اعترفت بكل شيء، وقالت لنا إنك في الفترة الأخيرة كنت تبقى بعد الدوام بحجة أن لديك أعمالاً وإنك تكتب رواية جديدة.. عن ماذا تكتب؟ عن كس أمك؟ كما أخبرتنا سكرتيرتك عن علاقتك بعائلة آدم الولهان، وعن زياراتك لهم؟ هل لسكرتيرتك علاقة بخيانتكم للحزب والثورة؟ هل تريد أن تورط زوجها من خلال علاقتك الجنسية معها؟ لقد ذهبنا أنا والضبع أمس إلى مكتبك ونكناها معا أنا وهو، وصورنا ذلك، هل تريد أن نريك كيف نكناها، وكيف كانت ترتجف من اللذة؟ هل تريد؟

كان آدم المطرود يسمع كل شيء، يستوعب كل كلمة قالها المحقق آدم التكريتي، ويتصور الذي جرى في مكتبه مع سكرتيرته حواء اللهيبي، فسالت الدموع من عينيه شفقة على نفسه وعلى السكرتيرة التي أحس في هذه اللحظات أنه يحبها حبا كبيرا. وعلى الرغم من أنه في تلك الحالية المرعبة إلا أنه استغرب اكتشاف حبه لحواء اللهيبي. صوت المحقق آدم التكريتي أخرجه من خواطره الغريبة. سمع المحقق يصرخ عليه:

– هل تعترف لنا بأنك والخائن آدم الحلي وسكرتيرتك وزوجها معادون للحزب والثورة والرئيس القائد حفظه الله؟

هز آدم المطرود رأسه نافيا، فما كان من المحقق آدم التكريتي إلا أن صرخ في وجه آدم الضبع الذي يقف بالقرب من الكرسي والذي شد آدم المطرود إليه:

– يا ضبع.. هذا الكلب لا يريد أن يعترف.. أريدك أن تنيكه مثلما نكتها أنت أمس، كي يعرف أننا لا نلعب مع من يعادي الحزب والثورة والرئيس القائد حفظه الله.. حضر الكاميرا أيضا.

استعد آدم الضبع بحرك عسكرية وقال:

– حاضر سيدي، الكاميرا جاهزة أيضا.. هل أقوم بالواجب الآن سيدي؟

– نعم.. الآن.. وأمامي.. أريدك أن تشقه شقا فأنت وأيرك الذي

يشبه أير الحمار متخصص لهذه المهمة.. أنجز عملك بسرعة.. وأمامي..

وبحركة سريعة جذب الشرطي آدم الضبع المهندس آدم المطرود ليحل وثاقه عن الكرسي وليلقيه على المنضدة، على وجهه بحيث يبقى ظهره ومؤخرته مكشوفة له. أخذ الحبل ليشد يديه الممتدتين والمتدليتين من طرف الطاولة من جهة المحقق بأطراف المنضدة، ثم نزع بنطاله وسرواله دفعة واحدة، وذهب للحظات وجاء وفي كفه مرهم مسد به فتحة شرج المهندس، ومسد عضوه الكبير بالمرهم أيضا، ثم اقترب من آدم المطرود الذي كان ملقى على الطاولة كالذبيحة.

لم يمر آدم المطرود بتجربة مؤلمة في حياته مثلما مر خلال هذين الأيام الأربعة، حينما اقترب آدم الضبع منه، أحس أن العالم كله يدخل فيه، أحس بالاختناق والتمزق، جحظت عيناه وأرادتا أن تقفزا من محجريهما لو كان ذلك ممكنا. أحس بالإذلال والانحطاط، وفجأة شعر برغبة بالتبرز، ولا إراديا تدفق برازه ملوثا الضبع وجسده والأرض.

ابتعد آدم الضبع عنه وهو يسب ويشتمه، بينما تعالى ضحك المحقق آدم التكريتي عاليا، بل اختنق من شدة الضحك، فتركهما خارجا من الغرفة، وغرق آدم المطرود في الظلام.

لم يكن آدم المطرود يعرف ما جرى خلال الأيام الأربعة الماضية، منذ لحظة دخوله إلى مبنى جهاز التحقيقات. ففي نفس اليوم الذي تم استدعاؤه فيه، تم إلقاء القبض على المقاول آدم الحلي نتيجة إخبارية كيدية رفعها إلى جهاز المخابرات والمنظمة الحزبية أحد المسؤولين الحزبيين الذين كان يتعامل مع المقاول آدم الحلي، وكانا قد تناقشا عن تدهور الوضع السياسي أيام الانتفاضة الشعبي المجهضة قبل ثلاث سنوات، وانتقد كلاهما النظام، لكن بعد سيطرة النظام على الوضع وقمع المنتفضين ظل كلاهما يخاف أحدهما الآخر، وحينما وقع المسؤول الحزبي في إشكالية مالية وشخصية لمنحه بعض المقاولات التي أرادها

المسؤولون الأعلى لأنفسهم، وضعوا له شركا سياسيا لكنه كان يظن أن آدم الحلي هو الذي قام بذلك فرفع فيه تقريرا يكشف عداءه للحزب والثورة ويسرب بعض المعلومات عن علاقاته، فألقي القبض عليه وفي التعذيب اضطر إلى الاعتراف بأنه مع أشخاص آخرين يلتقون ويبدون امتعاضهم من الحزب والثورة، ومن بين هؤلاء المهندس آدم المطرود، الذي كان بين أيدي السلطة في قضية أخرى هي اتهامه بجريمة قتل حواء الصايغ.

لم يقتصر أمر الاتهام بخيانة الحزب والثورة والرئيس القائد على المهندس آدم المطرود بل شمل سكرتيرته حواء اللهيبي وزوجها الذي لا يعرفه ولم يقابله قط، وصديقه المهندس آدم الصاحب أيضا.

تم اعتقال الجميع، بعد أن كبسوا مكتب المهندس آدم المطرود في اليوم الثالث صباحا، حيث أقتحم المحقق آدم التكريتي والضبع وعدد آخر وقفوا عند باب المكتب وفي أسفل البناية التي يقع المكتب فيها.

فوجئت السكرتيرة حواء اللهيبي وخافت، لكنها اطمأنت أول الأمر عند رؤية المحقق آدم التكريتي، فقد كان قد مر على المكتب لمقابلة المهندس آدم المطرود، وتحدث حينها معها، وكانت قد أعجبته بجمالها وأنوثتها.

ما أن دخل المحقق آدم التكريتي وخلفه آدم الضبع حتى مضى إلى حيث تقف حواء اللهيبي التي وقفت مندهشة، خائفة، مترقبة.

نظر المحقق آدم التكريتي إليها وبدون أن ينطق بأي كلمة صفعها بشدة على وجهها فانقلبت متدحرجة على الأرض دافعة كرسيها لعدم قدرتها على حفظ توازنها. لم تستطع السكرتيرة حواء اللهيبي، التي فوجئت بالصفعة القوية أن تقول شيئا، وحينما أرادت تجميع نفسها وفكرها، سمعت المحقق آدم التكريتي يوجه الشخص الذي معه بأن يذهب ويأتي بالكاميرا، وعليه الانتظار عند الباب إلى أن يناديه.

وبدون رحمة مضى المحقق إلى خلف الطاولة وسحب السكرتيرة

التي ما زالت ملقاة على الأرض. لاحظ أن ثوبها قد انحسر عن فخذيها، فسحبها من يدها، وسحلها سحلا إلى غرفة مكتب المهندس آدم المطرود. وبينما هو يسحلها حاولت هي المقاومة وهي تصرخ:

– لماذا تضربني؟ ما الذي فعلته؟ هذا اعتداء؟

وحينما وصل غرفة المكتب، ومن دون أن ينطق بشيء رفعها لتقف ثم صفعها على خديها مرات عدة ثم ألقاها على الأريكة بين نظرات الرعب التي كانت تطل من عينيها.

أخذت تستوعب ما يجري بأنه يريد أن يضاجعها، فحاولت أن تلملم نفسها، لكن المحقق آدم التكريتي لم يترك لها الفرصة، فقد فتح فخذيها رافعا ثوبها إلى الأعلى وبيده الأخرى فك حزامه ونزع سرواله. لم تستطع السكرتيرة أن تقاومه كثيرا، فقد صرخت صرخة قوية: لا. لا. ماذا تفعل أستاذ آدم؟

لكن المحقق آدم التكريتي لم يشغل نفسه بصراخها ومقاومتها الضعيفة، فقد كان يمسك بساعديها في كفه، وبكفه الأخرى حاول أن يدفع سروالها الرقيق جانبا بحيث لا يعيقه ثم أولجه فيها.

استغرب المحقق آدم التكريتي أنها كانت حليقة، رطبة، ومبتلة، ومتهيجة، فدخل فيها بقوة وضغط نفسه بكامل جسده، ثم أطبق فخذيها إلى الأعلى مما سمح له أن يولجه فيها بسهولة وأن يسيطر عليها بالكامل، ويتحرك فيها كالمجنون.

خلال هذه اللحظات القليلة مرت آلاف الاحتمالات والتصورات في ذهن حواء اللهيبي: ما الذي جرى مع المهندس آدم المطرود الذي اختفى منذ ثلاثة أيام؟ وما هو السبب الخطير الذي دفعهم لضربها واغتصابها؟ ما الذي يجري؟ كانت ثمة رعب ممزوج بتهيج ولذة خارجة عن إرادتها.

كان المحقق آدم التكريتي قد قذف بكل حقده فيها، وانسحب منها فانهارت هي عاجزة عن أن تقول شيئا، وأخذت تلملم جسدها، وأرادت

أن تنهض لتذهب إلى الحمام كي تغتسل، إذ أن مني المحقق التكريتي بدأ يخرج منها ملوثا سروالها وفخذيها وثوبها، وما أن أرادت النهوض حتى جاءتها صفعة من المحقق، صارخا فيها:

- إلى أين أيتها العاهرة؟ إلى أين؟ نحن هنا لتخبرينا كل شيء عن مؤامرتكم ضد الحزب والثورة والرئيس القائد حفظه الله؟

صعقت السكرترة حواء اللهيبي عند سماعها تلك الكلمات، فانهارت بالكامل دون أن تقول شيئا. وخلال هذه اللحظات أقفل المحقق آدم التكريتي حزام سرواله وخرج مناديا آدم الضبع أن يدخل مع الكاميرا، ثم رجع بعد لحظات إلى غرفة المكتب فشاهد أن السكرتيرة قد انكمشت على نفسها مذعورة، مرعوبة، ومنهارة، تحدق إلى الفراغ.

دخل الضبع وبيده الكاميرا. نظر المحقق آدم التكريتي إليه غامزا بعينيه أن يغتصبها ثم أخذ الكاميرا من يده ليصور المشهد. بحركة آلية، تقدم الضبع منها، إلا أن المحقق طلب منه أن ينزع ملابسه بالكامل، فنزع عنه قميصه وسرواله وتقدم منها.

كانت هي لائذة بالأريكة فسحبها بخفة ملقيا إياها على الأريكة نازعا عنها سروالها وثوبها، وفاتحا فخذيها إلى أقصى ما يمكن وجلس بين فخذيها. كانت هي ترتجف، صامتة، تائهة النظرات، ثم فجأة مسكت بيديه وهي ترتعش من اللذة، ولم يسمع منها سوى كلمة: لا، التي دوى المكتب مرددا صداها.

كان المحقق آدم التكريتي يصور عملية اغتصاب الضبع للسكرتيرة حواء اللهيبي بالكاميرا، وحينما انتهى منها تركها تلملم نفسها، تطبق ساقيها على نفسها، وتنكمش لائذة بجانب الأريكة وهي تبكي بكاءً صامتا.

أراد آدم الضبع أن يلبس سرواله إلا أن المحقق آدم التكريتي المنشغل بالتصوير أشار إليه بأن لا يلبس شيئا، ثم أخذ بالتحقيق معها، سائلاً عن كل تفاصيل حياة المهندس آدم المطرود، وعلاقاته، وأصدقائه، وعلاقته

معهـا، مهـدداً بأنـه سـيدع جميـع الرجـال الذين معه وهم أكثر من عشـرة أشـخاص ينيكونهـا إذا لـم تتكلـم بصراحـة شـديدة معهـم، لاسـيما وأن المهندس آدم المطرود قد أعترف بكل شيء.

لـم تفهـم السـكرتيرة حـواء اللهيبي ماذا يعنـي المحقق؟، فلقد كانت في حالة انهيار نفسـي كامل، وتشـتت فكري هائل، لذلك أخذت تجيبه على جميع أسئلته، ولم يكن أمامها إلا أن تروي له كل شيء، كل شيء.

بعد ذلك طلب منها المعلومات عن حياتها العائلية وزوجها ومكان عملـه، وهددهـا بأنـه سـيذهب بهذا الفيلـم المصور إلـى زوجها وأهلها، فانهارت بالكامل.

بعد أن سجل المحقق آدم التكريتي مشاهد الاغتصاب، وكل الأسئلة وأجوبتهـا عليهـا، أخـذ يفتش في المكتـب فوجد خرائط لها علاقة بعمل المهندس آدم المطرود، ومخطوطات ودفتر لنصوص شعرية، فطلب من آدم الضبـع أن يأخذهـا معـه، ثـم طلب من حـواء اللهيبي أن تلبس ثوبها، وخرج من غرفة المكتب، تاركا الضبع معها طالبا منه أن يأخذوها معهم للتحقيق.

كل هذه التفاصيل لم يعرفها آدم المطرود، لكن عرف أنهم كانوا في المكتب، وأنهم اغتصبوا حواء اللهيبي بل وصوروا عملية الاغتصاب.

حينمـا وصلـت إلـى الصفحات التي توصف عملية تعذيب المهندس آدم المطرود أحسـت بالرعب، وأحسـت بانقباضات في بطنها وضيق في تنفسها، ولما واصلت القراءة وقرأت ما جرى مع السكرتيرة حواء اللهيبي لم تتمكن من البقاء في الغرفة، إذ أحست بضرورة الذهاب إلى الحمام، إذ شعرت بالإسهال.

الرعب الذي سيطر عليها سبب لها إسهالا حقيقيا، لقد كانت حواء المؤمن مرعوبة وشبه منهارة، قضت وقتا طويلا في الحمام. كان إسهالها قويا، نزلت من جوفها فضلات كالماء الأخضر.

لكن هل يتحدث زوجها الدكتور آدم التائه عن بلدها الذي هو العراق أم عن بلد آخر؟ هل كل هذا يجري في العراق؟

ما الذي سيحصل مع هؤلاء يا تُرى؟ مع المهندس آدم المطرود وحواء اللهيبي التي أخذها الشرطة معهم؟ ومن قتل حواء الصايغ؟ لماذا لم يكمل زوجها قصة العلاقة بين المهندس آدم المطرود والسيدة حواء الصايغ؟

كانت في شوق لمواصلة القراءة لكنها كانت خائفة أيضا. لذا حينما خرجت من الحمام، ذهبت مباشرة وأغلقت باب الشقة بالمفتاح وعادت إلى غرفة الاستقبال لمواصلة بقية القصة التي بقيت منها بعض الصفحات.

أحس آدم البغدادي بعنف هذا الفصل لاسيما تفاصيل التعذيب والاغتصاب. لكن لماذا حطم الدكتور آدم التائه بطله المهندس آدم المطرود بهذه الطريقة المرعبة والمقززة، خاصة في مشهد اغتصابه من قبل آدم الضبع، وتبرزه أثر عملية الاغتصاب؟؟.

من أين أتى الدكتور آدم التائه بهذه التفاصيل المرعبة؟ هل هي مما قرأه أو سمعه من المعذبين العراقيين الذين يعدون بمئات الألوف أم أنها مجرد تهويمات وتخيلات روائية؟

ولماذا ركز على تفاصيل اغتصاب السكرتيرة حواء اللهيبي إلى هذا الحد بحيث يوصف المني الذي أخذ يسيل من فرجها أثر اغتصاب المحقق لها، أو مسحه من قبل رجل الأمن آدم الضبع بسروالها وتفاصيل اغتصابها المدمر؟ ما الذي يريده من وراء ذلك؟

ربما استطاع الدكتور آدم التائه أن يوصل أجواء الرعب الحقيقي التي يعيشها الناس في العراق في تلك الفترة، وربما أستطاع لنا أن يجسد من خلال هذه الأحداث الرعب الذي كان هو يعيشه؟

أم يا تُرى أن التركيز على الجنس والتفاصيل الجنسية ليست إلا محاولة لا واعية منهما كلاهما: آدم البغدادي والدكتور آدم التائه، على الجانب الحيواني في الإنسان،على انحطاطه وانتمائه الأبدي لمملكة الحيوان التي ليس لديها من هم سوى الأكل والجنس.

وأن أية محاولة للسمو عن عالم الحيوان في مجتمع منفلت الغرائز، مثل محاولة الحب بين المهندس آدم المطرود والسيدة حواء المجهول، ستبقى محاولة يائسة تذبح وتقتل بطريقة مجهولة.

(13)

كان آدم المطـرود عاريـا بالكامـل، وملقـى على أرضية الغرفة الباردة ملوثا بالغائط والبول الذي يحيطه. شعر بألم وهو يفتح عينيه المتورمتين والمليئتيـن بالـدم مـن أثـر الضرب، وأحس أن فمـه ثقيل جدا، وكأن ثمة حجـراً ثقيـلاً وضـع علـى فمـه، وحينمـا أراد أن يفتحـه أحس بأن شـفتيه متورمتـان ومطبقتـان معـا حيـث تخثـر الدم، وأحس ألما شـديدا في فكه وثمة فراغا في فكه الأمامي، فحاول تحريك لسـانه، فانتبه إلى أن بعض أسنانه الأمامية قد سقطت نتيجة اللكمات التي وجهت لفمه أثناء التحقيق، وأحـس بأنـه مشـقوق إلـى نصفين من الأسـفل، وأن نـارا ملتهبة تفور في شرجه.

فكر للحظات بأنه ربما ميت، ثم بدأ شـيء من الصحو يقشـع ظلام ذهنـه شـيئا فشـيئا. انتبـه لحالـه وللمـكان الـذي هو فيه، ولمـا جرى معه بصعوبة، وحاول أن يستعيد الأحداث التي مرت وأن يجد لها من علاقة مستخدما ذاكرته الإبداعية الروائية، فلم يجد.

هـل قُتلـت حـواء الصايـغ حقـا أم أنهـا لعبة مـن ألاعيبهـم مثل لعبة المقاول آدم الحلي؟ ومن أين يعرفون تفاصيل علاقته معها؟ لا، إنهم لا يعرفون تفاصيل علاقته بل يعرفون أنه زارهم، وعدد مرات الزيارة وهذا يمكن أن يعرفوه من خلال حارس البناية الأمني، فربما إذاً لا يعرفون شيئا عن علاقته بحواء الصايغ، وربما مسألة مقتلها ليس أكثر من تمثيلية. لكن لماذا كل هذا اللف والدوران وهو الشخص المسالم الذي ليس لديه أي نشاط سياسي لا مع ولا ضد، بل إنه واحد من ملايين الأشخاص الذين دخلوا الحزب حفاظا على حياتهم ومصالحهم الشـخصية، وهم يعرفون

ذلك، فلماذا كل هذا الذي جرى معه؟

لماذا عملية اغتصابه؟ أحس بالخجل من عملية تبرزه أثناء الاغتصاب، وسمع قهقهات المحقق آدم التكريتي تتردد في ذاكرته. استغرب من نفسه لخجله من التبرز اثناء الاغتصاب أكثر من خجله من الاغتصاب نفسه؟

فجأة انبثقت حواء اللهيبي في ذاكرته، كيف هي الآن؟ وهل صحيح كل ما جرى معها، أو أنه من باب التهديد والترهيب، لكن لماذا يهددونه ويرهبونه؟

فكر للحظة بأن المحقق آدم التكريتي قد زار المكتب ذلك اليوم ولم يكن هو موجودا، ربما أعجبته حواء اللهيبي وأراد الحصول عليها فخلق كل هذه القصة؟ وربما رأى حواء اللهيبي قبل ذلك؟ وأنه قد عرفها قبل المجيء إلى المكتب بحجة التحقيق معه؟

ربما هي تعمل معهم أصلا وقد أرسلوها إليه خصيصا؟ لقد رآها وهي تفتش في مكتبه وأنها ارتبكت حينما رأته، فماذا كان تفتش يا تُرى؟ هل هي التي زودتهم بمعلومات عن طبيعة علاقته بحواء الصايغ؟ لماذا تفعل ذلك؟ هل هي الغيرة؟ هل هي تحبه إلى درجة تؤذيه؟

تذكر أن أحد المفكرين الروس، الذين تحدث عن حب المرأة، أكد بأنه يستغرق وجودها كله، ومن ثم فهي على استعداد لأن تضيع في الحب، وأن يستحوذ الحب عليها. ومن الممكن أن يكون حبها ساما وخطرا ومميتا، أن يكون حب مليء بقوة طاغية، شريرة، لا تعرف الرحمة أو الشفقة. هذا الحب الذي يتحول إلى غيرة طاغية عمياء، فهناك نساء أبالسة، بل إن إبليس أكثر رحمة منهن حينما تتملكهن الغيرة.

حاول أن يبتسم مع نفسه، فلم يستطع لتورم فكه وشفتيه وجرحهما، فابتسم بذهنه، ساخرا من نفسه، تُرى في أية حال هو حتى يفكر بتحليل مشاعر الحب والغيرة ويستذكر أقوال مفكر روسي؟

هل سيخرج من هذا الكابوس؟ عليه أن يستذكر كل التفاصيل كي يستطيع أن يدونها في روايته الجديدة؟ فجأة أحس بنفسه يتبول دون

إرادته، وأحس ببوله يتسرب تحته دافئا، فشعر بالتقزز والراحة أيضا.

في هذه اللحظات بالذات دخل الغرفة شرطيان. اتجه الشرطيان إلى الكرسي الذي كان منقلبا على الأرض، فرفعه أحدهما لينصبه على قوائمه الأربع، ثم اتجها إلى آدم المطرود الذي كان مسجى على الأرض، فأخذاه من أبطيه وأجلساه على الكرسي بعريه. ذهب أحدهما إلى جانب الغرفة وعاد حاملا دلوا مليئا بالماء البارد وسكبه على آدم المطرود.

فز آدم المطرود وانتعشت أعصابه نتيجة الماء البارد الذي سُكب عليه، وانتبه لمكانه وللشرطيين اللذين يقفان أمامه، وخلال هذه اللحظات دخل المحقق آدم التكريتي إلى الغرفة أيضا. لم يستطع آدم المطرود أن يرفع رأسه، إلا أنه انتبه إلى أن المحقق آدم التكريتي يقف أمامه، ثم سمعه يقول له بنبرة فيها تهديد وشماتة:

– هل ما زلت مصرا على عدم الاعتراف؟

وبالكاد حاول آدم المطرود أن يفتح فمه بكلمتين:

– بماذا؟

– بالمؤامرة ضد الحزب والثورة أيها الحقير؟

– أي مؤامرة..

ولم يكمل جملته إلا وشعر بصفعة قوية تركت طنينا في أذنيه وألما كبيرا في رأسه، وتوجه المحقق بكلامه إلى الشرطيين قائلا:

– يبدو أنه يريد أن يلعب معنا دور البطل الصامد، ولا يدري بأن جميع من معه قد اعترف.

ثم توجه بكلامه إلى آدم المطرود وهو يصرخ فيه:

– يا كلب، هل تريد أن نأتي بمن كان معك واعترف عليك؟

– أنا لا أعرف أحدا..

وما أن انتهى من جملته حتى جاءته لكمة قوية دحرجته هو والكرسي على الأرض، فقام الشرطيان برفعهما معا، وسمع صوت المحقق يقول لهما:

– جيئوني بالمتهمين الذين اعترفوا ضده..

كان وجه آدم المطرود ينزف دما، ولم يكن محددا من أين ينزف الدم، من فمه أم أنفه لأن وسط وجهه كان متورما ومدمى بالكامل، وفي لحظات دخل الشرطيان وهما يسحلان شخصا قد تم تعذيبه أيضا وقرباه منه بحيث صار وجهه في دائرة الضوء، ومسك المحقق آدم التكريتي برأسه ورفعه إلى الأعلى كي يتعرف آدم المطرود عليه، وهو يزمجر بحقد:

– هل تعرفه.. هذا أحد الشركاء في المؤامرة، وقد اعترف ضدك.. أتعرفه؟

حاول آدم المطرود أن يتبين الوجه المعذب الذي يعود لرجل في الخمسين من العمر، أصلع الرأس، متورم الشفتين والجفنين، فلم يستطع أن يتعرف عليه برغم كل الألم الذي يحسه، فهز رأسه نافيا، فصرخ المحقق بعصبية:

– يا كلب وابن الكلب تريد أن تستغفلني.. تقول لا تعرفه.. أتعرف من هذا.. أنه زوج القحبه العاهرة الساقطة سكرتيرتك.. هذا هو القواد زوجها.. إنه شريكك وقد اعترف عليك..

على الرغم من الألم الذي فيه أحس بالدمع يترقرق في عينيه وارتجاف في قلبه من الألم والشفقة على هذا الرجل المسكين.

لم يكن آدم المطرود يسمع صرخات المحقق آدم التكريتي، وانما كان يراه، من خلال عينيه اللتين بالكاد يفتحهما، يفتح شدقيه بوجهه الذي يكاد ينفجر من الغضب والحقد، وفجأة زال الطنين فسمعه يصرخ مزمجرا:

– هناك شخص آخر لا يمكنك أن تهز رأسك بأنك لا تعرفه، وقد اعترف بمشاركتك في المؤامرة أيضا.

وأشار للشرطيين بأن يذهبا بالرجل الملقى أمام الكرسي، وأن يأتيا بالآخر، وبعد لحظات جاءا بشخص آخر وهما يسحلانه، وحينما ألقياه

أمام الكرسي، إرتعب آدم المطرود، لكنه كان في شك مما يفكر فيه، لكنه تأكد من ذلك حينما مسك المحقق بخصلة من شعر رأس الرجل المسجى، وهو يصرخ بنبرة المنتصر:

– وهذا، هل تقول إنك لا تعرفه.. إنه صديقك المهندس آدم الصاحب..

كان وجه المهندس آدم الصاحب مشوها بالكامل وكان مغمى عليه، فتعرف المهندس آدم المطرود على صديقه من خلال قامته وتسريحة شعره، برغم تشوه وجهه من أثر التعذيب.

انكمش وجه آدم المطرود حزنا لكنه لم يستطع البكاء. حدق في وجه المحقق آدم التكريتي الذي كان قد قرب وجهه منه ونظر إليه نظرة جامدة. ظن المحقق أنه يريد أن يقول له شيئا، لكن وجه آدم المطرود ظل جامدا. أراد آدم المطرود في أعماقه أن يبصق على المحقق لكنه كان عاجزا عن فعل ذلك وخائفا. نظر المحقق إليه لحظات ثم انفجر غضبه فجأة وهو يصرخ بغضب منفلت وكأنه كان يقرأ أفكاره:

– أيها الحقير.. التافه.. الجبان.. تريد أن تسخر مني، تريد أن تثبت أنك أقوى مني..

وأخذ يلكم آدم المطرود على وجهه ورأسه وصدره وأينما وقعت كفاه، ولما تعب بدأ يركله ودفعه بركلة فسقط هو الكرسي، فأخذ يضربه بقدمه على رأسه وصدره وبطنه، وكان آدم المطرود تحت قدميه كالجثة، لا يستطيع حراكا لكن الجسد كان يعبر عن الألم عن كل ضربة يتلقاها، والتوى الجسد بالكامل حينما ركله المحقق بقوة على خصيتيه ثم غاب عن الوعي.

كان المحقق آدم التكريتي قد فقد السيطرة على نفسه، وتعب من الضرب والركل، فتوقف ليسترد أنفاسه، وبعد لحظات، طلب من الشرطيين أن يسحبا المهندس آدم الصاحب خارجا، واستعد هو للخروج وهو يقول لهما:

- صباحا خذوا أوراقهم جميعا، أربعتهم، إلى المكان المتفق عليه واطلبوا منهم إلا يتأخروا في إنجازها كي نتخلص من هذه المشكلة بسرعة.. مفهوم
- مفهوم سيدي
- وتلك السكرتيرة القحبة أبقوها عندي لبعض الوقت ثم ننقلها إلى سجن النساء..
- صار سيدي

خرج المحقق آدم التكريتي يتبعه الشرطيان وهما يسحلان جسد المهندس آدم الصاحب، وعند باب الغرفة أطفأ أحدهم المصباح وأغلق الباب فغرقت الغرفة في ظلام دامس.

كان الظلام دامسا، وكانت أرض الغرفة تدور في رأس آدم المطرود بسرعة جنونية هائلة ثم تهوي في قاع مظلم جدا مصحوبة بألم وهبوط في القلب وكأنما القلب هو الذي يهوي من بين الضلوع إلى قاع بلا قرار.

وهناك في قاع الظلام إنبثق وجه حواء الصائغ الباسم الحزين. تذكر أنها بعد عيد ميلادها بيومين اتصلت بالمكتب في حدود الساعة الرابعة، وكان هو وحده في المكتب. لم يصدق حينها أنه يحدثها من خلال التليفون، جاءه صوتها رقيقا،حزينا، هادئا، ومتوجسا:

- مرحبا..
- مرحبا
- هل عرفتني
- وكيف لا أعرفك.. من لديه هذا الصوت الملائكي أولا.. ومن يا تُرى يعرف أني في المكتب ثانيا، وثالثا وهذا الأهم هو أنني لا انتظر أي اتصال من أية امرأة..
- أوه.. قدمت مجموعة من الحجج الدامغة. كنت مترددة في الاتصال، فكرت ربما لا تكون في المكتب خلال هذا الوقت، ثم قررت أن أجرب، ولحسن الحظ أنك موجود..

– أنا أنتظر اتصالك على أحر من الجمر كما يقال

– غريبة هذه اللغة العربية. فبرغم أن جملة أحر من الجمر لا علاقة لها بواقعنا فنحن في عصر التكنولوجيا، إلا أننا نستخدمها كاستعارة منذ مئات السنين.. الآن، مثلا، أفران الحديد والصلب هي أكثر حرارة من حرارة الجمر بآلاف المرات ورغم ذلك لا زال رمز الحرارة هو الجمر.

– هذا صحيح.. ومن أجلك يا سيدتي كنت على درجة ألف فهرنهايتي.. مقبول

سمع ضحكتها على الطرف الآخر من الخط وهي المرة الأولى التي يسمعها تضحك، فقال لها برقة:

– هل تعرفين أنني أسمع ضحكتك لأول مرة.. إنك عميقة وحزينة حتى في ضحكتك..

– صحيح.. لا أعرف.. اسمع، ماذا تفعل الآن؟..

– لا شيء، كنت بانتظار اتصالك..

– اليوم قرأت نصا بالاسبانية للشاعر لوركا.. وودت أن تسمعه

– كلي آذان صاغية...

– مرة أخرى الاستعارات العربية الغريبة.. كلي آذان صاغية.. هل تدري لو أردنا تجسيد هذه الصورة بصريا لوجدناها صورة سريالية غريبة، أن يتحول الإنسان إلى أذن كبيرة هائلة، أو يتحول جسده إلى كتلة من الآذان الصغيرة.

– مرة أخرى تقتنصين هفوات اللغة العربية..

– لا.. ليس للأمر علاقة باللغة العربية.. وإنما باستخدامها.. المهم.. دعني أقرأ النص الأسباني أولا.. ثم أترجم النص إلى العربية:

وبدأ صوتها يأتي ناعما وحزينا وواثقا بالأسبانية التي كانت درستها إلى جانب الألمانية في الجامعة، وما أن انتهت من النص الأسباني حتى بدأت تترجمها:

قرطبة
وحيدة وبعيدة..
مهرة صغيرة سوداء، قمر كبير
وبعض الزيتون في خرجي.
ورغم معرفتي بالدروب
فلن أصل إلى قرطبة أبدا.
عبر السهل، في الريح، ثمة مهرة سوداء صغيرة، وقمر أحمر
ينظر إلى الموت
من أبراج قرطبة.
آي.. آي.. طريقي بلا نهاية
أي، يا مهرتي الصغيرة الشجاعة،
آي، أنا أعرف إن الموت ينتظرني،
قبل أن أصل إلى قرطبة.
قرطبة
وحيدة.. وبعيدة.

– رائع جدا.. هل تجيدين الأسبانية إلى هذه الدرجة التي تنعكس في ترجمتك

– نعم أجيدها.. لقد درستها إلى جانب اللغة الأصلية التي هي الألمانية، لكني عشت فترة ليست بالقصيرة في مدريد، وهذا ما ساعدني على تقوية لغتي.

– أنا أشفق على لوركا.. راح ضحية المتناقضات السياسية..مع أني أحب شعراء أسبان آخرين مثل متشادو.. وألبرتي..

– أي متشادو منهم لأنهما أخوان وكلاهما شاعر

– أقصد انتونيو متشادوا.. الأخ الصغير الذي مات مسلولا في السجن

– نعم إنه شاعر رقيق جدا.. لكن يبدو أن علاقتك بالأدب الأسباني

جيدة

– تقريبا.. سرفانتس قرب اللغة الأسبانية والثقافة الأسبانية إلى العالم وإلى الأبد من خلال دون كيخوته..ثم أنا عرفت الأدب الأسباني من خلال نيرودا، وماركيز، لكن دعينا من كل هذا.. لماذا لا تزورينني في المكتب فنتحدث براحتنا بعيدا عن عيون المرأة المساعدة والجاسوسة..

– لا.. هذا صعب..

– هل تخافين أن تكوني وحدك معي

صمتت لحظات، ثم جاءه صوتها:

– نعم..

– أتخافين مني أم من نفسك..

– لا أدري.. ربما منك أكثر مما أخاف من نفسي

– مني..

– نعم.. منك.. أحس أنك تريدني.. تريد أن تمتلكني جسديا..

تردد لحظات في الجواب، لكنه وعلى طريقته في التعامل مع المرأة، قال:

– ربما.. أحس أن المحب يصل غايته بالذوبان في المحبوب

– الذوبان في المحبوب ليس بالضرورة يكون في جسد المحبوب يا سيد آدم، ولأكن صريحة معك.. أنا لا أخفيك ربما لدي رغبة خفية في أعمق أعماقي نحو هذا الشيء، لكني أعتقد أن الجنس هو التعبير الأمثل عن عدم كمال الإنسان..

– عدم كمال الإنسان؟ أليس الالتحام والاتحاد الجسدي هو غاية الكمال

– لا.. صحيح أن الجنس يعني في الظاهر بلوغ الكمال عن طريق الاتحاد، إلا أنه يعني الخروج من الذات للاتحاد بالآخر.. ثم بعد الإشباع يتم الانفصال ليعود الإنسان إلى ذاته، وتستمر دوامة

الاتحاد والانفصال إلى ما لا نهاية، بينما الحب الحقيقي يتغلب على الانفصال، فالجنس أكبر شاهد على طبيعة الانسان الناقصة وعدم اكتماله، بينما يبقى الإنسان في اتحاد متواصل مع الآخر من خلال الارتقاء بالدافع الجنسي، من خلال الاكتمال والطهارة..

– هذه فلسفة غريبة

– لا إنهـا ليسـت غريبـة.. دافـع عنها الكثير من الفلاسـفة والشـعراء أيضا.. هل خاب ظنك فيّ.

– ارتبك آدم المطرود، فقال دون أن يستطيع أن يخفي نبرة الإحباط في صوته:

– لا أبدا.. لكني أختلف معك في هذه النظرة.. أنا أعتقد أن الجسد الإنساني قارة للمتعة واللذة التي في حضورها يرتقي الإنسان إلى ملكوت السماء، ولم توجد أو تخلق هذه المناطق الجغرافية في الجسـد البشـري عبثا، لأنه حسـب رأيك مهمة الجسـد للتناسـل فقط، أو لإشباع الغريزة فقط، أي أن العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة لا تحتاج إلى أية مشاعر وحب بينهما، لأنها غريزية فقط، بينما الحب شيء مختلف في رأيك..

– لا.. لا اقصـد هـذا.. أنـا معـك في أن تكون العلاقة الجسـدية بين الرجـل والمـرأة قائمـة علـى الحـب، وإلا فهي حـركات حيوانية مقيتة.

– هل لي أن أسألك سؤالا قد يبدو محرجا؟

– اسأل.. فما دام الجواب عبر التليفون فلا إحراج.. ربما وجها لوجه سيكون ثمة إحراج.. اسأل..

– هل علاقتك بزوجك. أقصد علاقتك الجسـدية قائمة على الحب والمشاعر، أو أنها لإشباع الغريزة فقط؟ ولا أضيف التناسل هنا لأنكما بدون أبناء.. عذرا لجرأتي..

صمتـت حـواء الصايـغ لحظـات، حتى ظن أنها لا تريد الإجابة وأنها

استاءت من السؤال، لكن جاءه صوتها حزينا:

– مـن الصعـب الإجابـة علـى هذا السـؤال، فأنا لـم أفكر فيه طويلا. ربما علاقتي معه أخلاقية، أقصد أنني ألتزم بأخلاقيتي التي تؤكد على منح الزوج حقه في الاستمتاع الجسدي ما دامت هي جزء مـن مقومـات الـزواج.. لكـن، وربما أقول ذلك بخجل، يتم ذلك دون أية مشاعر مني، أنا جسد للمتعة، لمتعة زوجي، وأنا راضية بذلك، لكني لا أحس بأن هذه العملية ممتعة أساسا.

– ربما لأن زوجك لم يستطع أن يفجر فيك ينابيع اللذة

– لا أعرف، وربما أنا باردة جنسياً.

– مـن هنـا أجـد أنـك تفصلين بيـن الحب الجسـدي والحب بمعناه العـام.. أو الحـب الحقيقـي كما تقولين، علما أن الحب الحقيقي هو حينما يتوحد جسد الرجل بجسد المرأة ملفوفا بخيوط حفية من مشاعر الحب، أي العودة إلى حالة الكمال حينما كانت جزءا من جسـد آدم.. أي أن التحامهما هو الكمال الحقيقي، ثم لماذا هذه الطهرانية السـاذجة.. التي ربما تكشـف عن جوهرها بالعجز عن اكتشاف منابع اللذة في الجسد البشري..

فقاطعته بمرح قائلة:

– مـا هـذا يـا سـيد آدم.. هـل تريد غوايتي.. مـن خلال الحديث عن منابع اللذة التي أجهلها؟

– ربما

– وتقول ربما..

– نعـم.. أنـت فياضـة باللـذة والحنيـن.. بينمـا أراك حزينة..تألقـي واحترقي بنار الحب

– ولا يكون ذلك إلا من خلال الجنس

– نعم..

– الحديـث معـك ممتـع.. وخطيـر أيضـا.. سـنتواصل أكثـر.. ربمـا

ستقنعني.. وربما سأقنعك..

– سأقنعك

– أنـت واثـق مـن نفسـك كثيرا.. هل ثقتـك متأتية من كثرة علاقاتك بالنساء أم من ماذا؟

– لا. من خلال فهمي للنفس البشرية والجسد البشري..

– سنتواصل أكثر..

– أنـت تعرفيـن أن مثـل هـذا النقـاش لا يمكننـا أن نمضـي فيه أمام السـيد زوجك أو تحت مسـامع مسـاعدتك في البيت. يمكنك أن تزوريـني فـي مكتبـي.. ويمكننا الحديث.. وأعدك أن أكون عادلا في جدل الأفكار بيننا.. أما أن أقنعك أو تقنعيني..

– سنرى. علي الآن أن انهي الاتصال..

– متى ستتصلين.. غدا..

– ربما..

في تلك الظلمة الحالكة كانت كلمة (ربما) هي التي بقيت تطن في إذن آدم المطرود وهو يسترجع آخر محادثة له مع حواء الصايغ لأنه بعد ذلك لم يحدثها أو يلتقي معها.

صحيح أنه بعد ذلك الاتصال التليفوني اليتيم ذهب إلى شقتهم لكنه ضغط على الجرس فلم يفتح أحد له الباب، فاستغرب الأمر، لأنه حتى لو كانت قد خرجت فأن المرأة المسـاعدة في الخدمة يفترض أن تكون موجـودة. ضغـط علـى زر جـرس البـاب مرات عديدة ووقـف لأكثر من خمس دقائق هناك، لكن بدون جدوى فخرج خائبا.

في تلك الظلمة الحالكة التي تهيمن على غرفة التعذيب حيث روائح العفونة المتأتية من الجو الخانق وبخار البول ورائحة الغائط المتأتية منه ومـن الغائـط المتيبـس مـن معتقليـن آخرين كانوا هنا فـي زنزانة التعذيب هذه، في تلك الظلمة الحالكة أخذ المعتقل والمتهم والمجرم والخائن،

العاشـق الأديب، المترجم والكاتب والصحفي، المهندس الإنسـان، آدم المطرود يبكي بحرقة، ووحشـة، مفكرا بأمه التي رحلت عن هذا العالم منذ سـنوات، وبأبيه الذي رحل بعدها بسـنة، وبأختيه اللتين تزوجتا منذ سنين بعيدة حيث تعيش إحداهن مع زوجها خارج البلاد، والأخرى أرملة سـقط زوجها في جبهة القتال أثناء الحرب ضد إيران. كان آدم المطرود يبكي ويندب حظه العاثر، ومصيره الغامض.

لا يدري كم مر من الوقت وهو يبكي وينتحب، إذ أحس بتعب شديد ودوار وعطش شديد. أحس بما يشبه اللهب يشتعل في بطنه، وتقلصات وحموضة في معدته، حموضة حارقة أخذت تصعد إلى بلعومه. ثم أخذ يسعل. لم يكن هناك من أحد سوى الظلام الحالك. كور نفسه على بلاط الأرضية الأسمنتي، وهوى في بئر مظلمة غاب فيها عن الوعي.

عند ساعات الفجر الأولى حيث الظلمة ما زالت تغطي المدينة، فُتح باب الغرفة - الزنزانة فدخل شـرطيان. ضغط أحدهما على زر الكهرباء عن جانب الباب، فأضاء المصباح الشـاحب وسـط الغرفة الزنزانة. اتجه الشرطيان إلى حيث يتمدد آدم المطرود، لكزه أحدهم بقدمه قائلا:

- قم.. انهض.. هيا.. وراءنا عمل كثير..

حرك آدم المطرود نفسه بصعوبة، إذ كان يرتجف لا إراديا. سحبه أحد الشـرطيين من يده سـاحلا إياه باتجاه الباب، ثم سـاعده الآخر ساحبا آدم المطرود من اليد الأخرى، وقرب الباب، مسكاه من كتفيه، كل من جهة، وأخرجـاه مـن الغرفـة دافعيـن إياه في الجزء الخلفي من سـيارة عسـكرية كبيرة، فسقط على جسدين ممدودين هناك أيضا.

لم يتبين هو من هما، وسـمع صوت المحقق آدم التكريتي يحدثهما بمـا يشـبه الهمـس لكنـه صـوت مسـموع سـائلا إياهمـا هل جـاءوا بكل الأوراق، وسـمع صـوت أحدهـم فعـرف فيـه صـوت آدم الضبـع يجيبـه بالإيجاب.

تحركت السيارة بهم في تلك الساعة من الفجر، حيث كانت بغداد، مدينته الحبيبة نائمة بحزن، منطوية على آلامها. كانت الشوارع فارغة، وقد شعر بذلك من خلال سرعة السيارة العسكرية وعدم توقفها في أي منعطف أو ساحة.

كان الجسدان اللذان تحته عاجزين عن الحركة، وربما كانا في غيبوبة أو نائمين، لأنهما لم يتحركا ولم يطلقا أي صوت يدل على أنهما يحسان بشيء مما يحصل.

كانت السيارة قد خرجت من مدينة بغداد وضواحيها، متجهة إلى براري بعيدة عن الطريق العام الذي يربط بغداد بمدن البلاد الأخرى. وبدأت السيارة تنحني وتتمايل عندما خرجت عن الطريق الإسفلتي العام وأخذت السير في البراري.

بدأت السماء تكشف عن ظلامها، على الرغم من أن الشمس لم تشرق بعد، وبعد فترة ليست بالطويلة توقفت السيارة، ونزل عنها الشرطيان اللذان كانا قد رمياه في السيارة، وكان كل منهما مدججا برشاش مزود بمخزن للرصاص. واستدارا ثم فتحا باب السيارة الخلفي، وصرخا بهم:

– هيا.. أيها الخنازير الخائنة انزلوا..

لم يستطع أي من الأجساد الثلاثة المرمية أن يتحرك وحده، وكان المهندس آدم المطرود هو الأكثر علاقة بالحياة من الاثنين الباقيين، فسحب الشرطي الضبع المهندس آدم المطرود أولا، وأجلسه على الأرض بعريه، فأحس بقشعريرة برد هزت جسده، ثم سحب الشخصين الآخرين من أيديهما وألقاهما على الأرض دونما أي اهتمام بهما. وشيئا فشيئا انتبه آدم المطرود إلى الآخرين حيث تعرف على صديقه المهندس آدم الصاحب والرجل الآخر الذي قيل له بأنه زوج سكرتيرته حواء اللهيبي.

التف آدم المطرود إلى المكان فاكتشف أنها أرض عراء، وبالقرب

منهـم حفـرة فارغـة يبـدو فمهـا المظلـم واضحا فـي هذا الفجـر العراقي المريب. سـحب الشـرطيان الجسـدين، أرادا أن يوقفاهما بانتصاب لكن ذلـك كان مسـتحيلا حيـث أن هذيـن الجسـدين لـم يقويا علـى الوقوف، فسحباهما إلى حافة الحفرة، وبطريقة بدائية وهمجية أطلقا عليهما وابلا من الرصاص.

لـم يكـن آدم الصاحـب والشـخص الآخـر زوج سـكرتيرته يعيـان ما يجـري، ولـم يبديـا أي مقاومة، فقط حينما انهمر الرصاص عليهما. ندت عنهمـا صرختـان خافتتـان مـع حركة اندفاع جسـدي كـرد فعل على وابل الرصاص المنهمر عليهما، وماتا فورا، فتقدم الشـرطي آدم الضبع إليهما وبقدمه دفع الجثتين إلى فوهة الحفرة. وبدأ بتنظيف سلاحه والتأكد من سلامته.

انهار آدم المطرود عندما رأى إعدام صديقه المهندس آدم الصاحب، لماذا كل هذا؟ لم يكونا،لا هو ولا صديقه من المعاديين للدولة ولم يكن لديهما أي نشاط سياسي ولا أي اهتمام خاص فيها، وكانا يحضران إلى أي نشاط يدعوان إليه، فما الذي جرى، لماذا يجري إعدامهما؟ من وراء كل هذا؟

لمـاذا بـدأت الأمـور بقصـة مقتل حواء الصايـغ وانتهت بمؤامرة ضد الحـزب والثـورة؟ إنهمـا بريئان وبرغم ذلك تـم تعذيبهما وأعدما صديقه وهو بلا شـك سـيعدم أيضا؟ ثم من هو هذا الشـخص الثالث؟ يقال إنه زوج حـواء اللهيبـي؟ هـل هـو حقا زوجها؟ ومـاذا عنها؟ وماذا عن حواء الصايغ؟ هل هي قد قتلت حقا؟

فجأة أحس بدفق من الرغبة العارمة بالحياة يسري في عروقه، أحس بجذوة الحياة فيه تنبثق فجأة، وفكر للحظة في الهرب، ومع تدفق الحيوية في أوصاله أحس بالرعب يشله، يشل أطرافه ويده، ويطل من عينيه. انتبه الشرطي آدم الضبع إليه، ولرعبه، فصرخ فيه:

– قم.. وأركض..

لـم يفهـم آدم المطـرود مـا الـذي كان يقصـده الشـرطي، بينمـا فهـم الشـرطي بأن آدم المطرود لم يسـتوعب ما قاله له، فأشـار له بيده أن قم وأرض. اسـتجمع آدم المطرود كل ما في جسـده من طاقة وقوة، فنهض بحركـة بطيئـة، لكنـه ظـل منحني الظهـر، فالتفت إلى الشـرطيين، فصرخ الضبع فيه:

– أركض.. هيا أركض..

وقـف آدم المطـرود مرعوبـا ومذهـولا في الوقت نفسـه، فأشـار آدم الضبع إليه أن يركض للأمام، فبدأ آدم المطرود المشي الذي يشبه الهرولة، لكنه كان يترنح، ولم يكن يخطو بضع أمتار حتى رشـقه الشـرطي الضبع بوابل من الرصاص على ظهره ومؤخرته فهوى على الأرض يتلوى.

في تلك اللحظة بالذات من ذلك الفجر البغدادي الضبابي الكثيف. في تلك اللحظة بالذات رأى المهندس آدم المطرود وجه السـيدة حواء الصايـغ. كان وجههـا كبيـرا، كبيـرا جدا، بحجم السـماء، وهـي تنظر إليه مـن الأعالـي والدمـوع تنـزل من عينيها، نادبة مصيره المأسـاوي الغامض والغريب.

وفي تلك اللحظة اقترب الشرطي آدم الضبع منه فوجده يبتسم ابتسامة عذبـة. كان آدم المطـرود يبتسـم للسـيدة حـواء الصايـغ، بينمـا اسـتغرب الشرطي الضبع هذه الابتسامة على وجه الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، فاعتبر ذلك سخرية منه ومن جبروت السلطة، فأطلق وابلا من الرصاص على جبين آدم المطرود مهشما جمجمته ومشوها وجهه الباسم البريء.

فـارق المهنـدس آدم المطـرود الحيـاة وهو يبتسـم لحواء الصايغ. لم يكن أمام الشرطي آدم الضبع سوى أن يسحب جثة آدم المطرود ليلقيها في الحفرة المظلمة.

بعـد لحظـات مـن الإعدام الجماعي نزل السـائق وهو يحمل معولاً، وأقتـرب مـن القبـر الجماعـي وأخذ يدفع بكومة التراب عند حافة الحفرة على الجثث في تلك الحفرة المظلمة. بينما وقف الضبع مصوبا رشاشه

نحـو سـرب مـن عصافير الصباح مر فـوق القبر الصباحي المظلم، مطلقا سيلا من الرصاص الأعمى.

كانـت بغـداد بعيـدة، وكان الضـوء الـذي بـدأ ينير السـماء والأشـياء يكشف عن حفر فارغة الأفواه على امتداد البصر، حفرة تنتظر من تلتهمه فـي أعماقهـا، وكانـت هنـاك بقع، يبدو من لون التراب المبتل قليلا بندى الصبـاح أنهـا ابتلعـت أناسـا أبريـاء ربما تم إعدامهم فـي مثل هذا الفجر. وكان الناظـر إلـى هـذا المـكان يحـس وكأنه في مقبرة هائلة، في متاهة لا مخرج أو مفر منها. متاهة بني آدم

النهاية

لا تدري كيف وجدت حواء المؤمن نفسها تبكي بحرقة على مصير المهندس آدم المطرود وصديقه المهندس آدم الصاحب وعلى هذا الرجل المسكين زوج السكرتيرة حواء اللهيبي الذي هو مجهول الاسم حتى، وعلى السكرتيرة نفسها.

لكن من أين أتى زوجها الدكتور آدم التائه بكل هذه التفاصيل، ألا يخاف أن تعلم السلطة بما يكتبه ضدها.

أحست أنها لم تكن تنتبه لقيمة زوجها ولم تعطه حقه، إذ أثبت انه شجاع وشريف حينما كشف وجه الحكومة وكل هؤلاء الأنذال وفضحهم.

وبدون إرادة منها قرأت الفاتحة على أرواح الشهداء الثلاثة، ثم أعقبتها بقراءة الفاتحة على روح أم الدكتور آدم التائه، وقررت أن تقيم العزاء لثلاثة أيام على أرواحهم وأن تلبس السواد حزنا عليهم.

لكن كيف ستفاتح زوجها بأنها قرأت قصته التي كتبها؟ لا ضير ستجد طريقة ما، ستقول إنها كانت ضجرة، فلم تجد من طريقة سوى أن تقرأ قصته. لكنها تريد أن تسأله عن مصير السيدة حواء الصايغ، هل ماتت هي حقا أم كان ذلك لعبة من قبل المحقق شاهين كما كان يتصور ذلك المهندس آدم المطرود؟

وهل هناك مؤامرة أصلا كما ادعى المحقق آدم التكريتي؟ لا بد أن تسأله.

أحس آدم البغدادي بالحزن على مصائر أبطال الدكتور آدم التائه، وأعجب لتوقفه عند كل هذا الكم من التفاصيل في ما يخص الاعتقال وما جرى خلاله، إلى جانب تفاصيل فجر الإعدام وتفاصيل الإعدام. لكنه يتذكر أن مثل بعض هذه التفاصيل جرت عند إعدام الشاعر الأسباني فدريكو غارثيا لوركا.

صحيح أن الدكتور آدم المطرود كتب بأنه اعتمد على تفاصيل التعذيب والسجن من خلال شهادة كتبها شاعر عراقي اعتقل في نهاية السبعينات، لكنه يتذكر أن هذا الشاعر كتب فيما بعد سيناريو لفيلم تجريبي بعنوان (مقتل القمر) عن إعدام الشاعر الاسباني غارثيا لوركا وتفاصيل الإعدام المشابهة لإعدام المهندس آدم المطرود ورفاقه، وربما هو نسيّ ذلك.

مع انتهاء حواء المؤمن قراءة قصة (متاهة آدم) أو (المرأة المجهولة) حتى أحس بأن مهمة الكاتب آدم البغدادي الحقيقية قد بدأت، فعليه أن ينتبه لمصير الدكتور آدم التائه ومصير حواء المؤمن، وآفاق علاقتهما في هذا المجتمع الجديد، وعليه أن ينتبه إلى تأثير رواية (متاهة آدم) التي كتبها آدم التائه على سير رواية (متاهة آدم) التي يكتبها هو آدم البغدادي.

الفصل التاسع

تحولات حواء المؤمن

بعد أن انتهت حواء المؤمن من قراءة قصة (متاهة آدم) أو(المرأة المجهولة) نهضت حزينة دامعة العينين وذهبت إلى المطبخ، وبدأت بتحضير الشاي لنفسها، ثم فكرت أن اليوم هو يوم الخميس والليلة هي ليلة الجمعة وهي ليلة مباركة تقدم فيها الأطعمة ثوابا على أرواح الموتى بعد قراءة الفاتحة على الطعام قبل أكله.

فتحت الثلاجة وأخرجت دجاجة مجمدة وضعتها في حوض الماء المصنوع من الألمنيوم والفارغ، وأخرجت قدرا كبيرا ملأته بالماء الساخن ووضعت الدجاجة المتجمدة فيه، ثم فتحت الدولاب الخشبي حيث أخرجت عددا من حبات البطاطا، وبعض رؤوس البصل اليابس، وأخرجت كيس الرز البسمتي، ووضعت في صحن كبيرة كمية منه ثم فتحت حنفية الماء حتى امتلأ الصحن ووضعته جانبا وجاءت بقدر كبير ملأته سكبت فيه الماء من الحنفية حتى منتصفه، وحملته إلى الطباخ الغازي ثم أوقدته.

بعد ذلك دخلت غرفة النوم وجاءت ببعض أعواد البخور وأشعلتها من نار الطباخ الزرقاء، ومضت إلى غرفة الاستقبال لتضع بعضها في زوايا الغرفة المختلفة ووضعت واحدة في المطبخ ودخلت غرفة النوم ووضعت أعواد البخور في بعض الزوايا، ثم أخرجت من الدولاب ثوبا أسود ودخلت الحمام فنزعت عنها ثوبها وتعرت داخلة تحت دش الماء مغتسلة. حينما انتهت لبست الثوب الأسود الذي زادها جمالا وإثارة،

لكنها أرادت أن تقيم الحداد على أبطال القصة الأبرياء الذين أعدموا ظلما وأن تقيم العشاء والفاتحة على أرواحهم.

بعد ساعة من الوقت كان لدى حواء المؤمن كل شيء قد تم إعداده، فوضعت قدر الرزعلى النار الواطئة كي ينضج بهدوء لحين عودة الدكتور آدم التائه. كانت قد أعدت لنفسها الشاي وشربت كوبا وصبت لنفسها الكوب الثاني، وها هي تجلس في غرفة الاستقبال وحدها، مفكرة بمصائر هؤلاء الناس الذين كتب زوجها عنهم.

لم تكن حواء المؤمن تهتم يوما بالسياسة، ومع أنها لم تواصل دراستها بعد حصولها على شهادة الاعدادية، إلا أنها لم تترك القراءة، حيث قرأت للشاعر نزار قباني كتابين هما: قصائد متوحشة وقالت لي السمراء، وللكاتب إحسان عبد القدوس كتابين أيضا هما: شفتاه، وفي بيتنا رجل، وللكاتب عبد الحليم عبد الله كذلك كتابين: لقيطة وشجرة اللبلاب، ولجبران خليل جبران: رمل وزبد، والأجنحة المتكسرة والنبي والأرواح المتمردة، وللرافعي: أوراق الورد، وللمنفلوطي: في سبيل التاج والنظرات، كما قرأت البؤساء للكاتب الفرنسي فكتور هيجو الذي كان أضخم كتاب تقرأه في حياتها، وكانت تفتخر بأنها قرأت مثل هذا الكتاب الضخم الذي أعجبها جدا. إلا أن الأفلام العربية الرومانسية والأفلام الهندية من جهة، وطقوس عاشوراء وما يرافقها من عروض مسرحية دينية وجلسات وزيارات للأضرحة المقدسة من جهة ثانية، هي التي لعبت دورا في تكوين عالمها النفسي، لكنها تحس أنها تبقى جاهلة مقارنة مع زوجها الدكتور آدم التائه، الأستاذ الجامعي والكاتب المعروف.

وبرغم أنها كانت تسمع بأن هناك من يعمل ضد الحكومة لكنها تخاف حتى التفكير في مثل هذه الأمور، غير أن قراءة قصة (متاهة آدم) أو (المرأة المجهولة) زلزلت كيانها. لقد أحست وكأنها كانت في غيبوبة.

لا تدري حواء المؤمن ما الذي يجري في أعماقها، فقد بدأت تفكر في علاقتها بزوجها، أنه ليس سيئا وجافا وقاسيا كما يبدو عليه،

فقد أحست من خلال القصة التي كتبها أنه حساس جدا، وربما هي لم تفهمه ولم تقدر ما يعانيه وما يفكر فيه. يجب أن تخدمه وتوفر له الراحة، فربما هو يقضي معظم وقته خارج البيت لأنه غير مرتاح معها، لكنه أيضا غريب الأطوار، فأحيانا يقترب منها وأحياناً يعاملها وكأنها غير موجودة.

أحيانا تحس أنه يقترب منها فقط من أجل متعته، وأحيانا تحس بأنه يحبها ويهتم بها. لا تعرف أي من هذه الوجوه هو وجهه الحقيقي، ربما أنه لا يشعر معها بالراحة لأنها ليست في مستواه الثقافي فلا يستطيع أن يناقشها ولا أن يتحاور معها، لكنه أيضا سألها عن مصير المهندس آدم المطرود وكيف يتم الحكم عليه وهو البريء.

لكن بما أن الشيء المتأكدة منه جدا أن جسدها هو الذي يعجبه، فعليها أن توفر له المتعة التي يحتاجها وعليها أن تهتم بنفسها وبجمالها.

في هذه اللحظة طُرق باب الشقة. استغربت لأن زوجها لديه مفتاح الشقة، وهذا يعني أن ثمة أحداً عند الباب، فنهضت ووقف عند الباب وسألت بالعربية:

– مَن؟

– أنا جاركم اللبناني

فتحت حواء المؤمن الباب فواجهها جارهم الأعزب الشاب اللبناني الذي تكاد بابه تلتصق ببابهم عند الخروج، وإذا ما صادف خروجهما معا فأنهما يكاد يصطدمان..

سألته مرحبة:

– أهل بالجار.. أتحتاج شيئاً ما؟

– لا تؤاخذيني، هل يوجد لديكم بعض معجون الطماطم، فقد طبخت ولكن الآن انتبهت انه لا يوجد عندي معجون، ولا استطيع أن أخرج من البيت لأني أنتظر ضيوفا في هذا الوقت بالذات.

– تكرم.. لحظة

دخلت حواء المؤمن إلى المطبخ وعادت بعلبة متوسطة من معجون الطماطـم. أخذهـا مـن يدها فمسـت أصابعه أصابـع كفها، فاحمر وجهها مباشرة. نظر في أعماق عينيها وشكرها، ومد يده في جيبه ليخرج ثمنها، فلاحظت ذلك وفهمت ما ينوي فقالت له مباشرة:

– ماذا تفعل يا جار.. نحن جيران وأهل..

فأخرج يده فارغة وشكرها قائلا:

– شكرا جزيلا.. أن شاء الله تزورونني.. فنحن جيران.. وحق الجار على الجار.. هل تحبين القهوة أم الشاي.. أم النسكافيه..

– أحب الشاي.. بس أحيانا أشرب القهوة

– إن شـاء اللـه تتفضلـون يومـا ما عندي على الفطـور اللبناني، فول وزيتون وجبنه ومناقيش..

– شكرا جزيلا.. لا تشغل نفسك

– على كل حال شكرا جزيلا على علبة المعجون.

وأغلقت حواء المؤمن الباب وعادت إلى غرفة الاسـتقبال. تذكرت فجأة الطعام على الطباخ، فذهبت إلى المطبخ وفتحت غطاء قدور الطعام وحينمـا تأكـدت مـن نضج الطعام أطفـأت الطباخ، ومن هناك مضت إلى غرفة النوم وألقت بنفسـها على السـرير، لكنها اسـتغربت من نفسـها لأنها بدأت تفكر في جارهم، لماذا يعيش وحيدا، وهل ضيوفه من الرجال أو النساء، هل هم لبنانيون أو عرب؟.

انتبهـت حـواء المؤمـن إلـى أن جارهم يشـبه حبيبهـا الأول بل وأكثر وسامة منه، وأثناء استحضارها لصورتيهما في ذهنها سمعت حركة على السلم فخمنت أنهم ضيوف جارهم، فنهضت بسرعة وفتحت الباب فتحة ضيقة جدا تسمح لها بمشاهدة من يصعد السلم فلمحت رجلين يصعدان.

أغلقت الباب بسرعة، لكنها شعرت بالراحة لأنهما كانا رجلين، ولم يكن ضيوفه من النسـاء. لكنها سـألت نفسـها: ما لها ولأصدقائه؟ لماذا أحسـت بالراحـة لأنهـم مـن الرجـال؟ هـل كانـت تغار لو لـم يكن هناك

ضيوف بل صديقة له مثلا؟ أحست بمشاعر مختلطة، وبرغبات متداخلة ولم تفهم نفسها وماذا تريد حقا.

عادت حواء المؤمن إلى غرفة الاستقبال. جلست على الأريكة، ثم أخذت مشغل التلفزيون عن بعد وضغطت عليه فظهر على الشاشة وجه جميل جدا لفتاة محجبة، وانتبهت من خلال اللغة والمكان الذي تجري فيه الأحداث إلى أن القناة الألمانية تبث فيلما إيرانيا بترجمة مكتوبة على الشاشة. ظلت تتابع الفيلم الذي أعجبها أناقة البطلة وجمالها في الحجاب.

فجأة راودت حواء المؤمن فكرة غريبة جدا لم تفكر فيها طوال حياتها ألا وهي فكرة الحجاب. سألت نفسها: لماذا لا تلبس الحجاب؟ هل يروق لها أو أنه سيشوهها؟ ماذا سيقول زوجها الدكتور آدم التائه، هل سيوافق أو سيرفض؟ ولماذا يرفض، معظم الرجال يتمنون أن تتحجب زوجاتهم لأنهم بذلك يحسون بملكيتهم الشخصية لها ولجمالها ولجسدها؟ ماذا سيقول الجيران؟ وما فائدة الحجاب بدون صوم وصلاة؟ صحيح أنها لا تؤدي فريضة الصلاة لكنها مؤمنة ولا تؤذي أحدا ولا تكذب أو تغتاب أو تتآمر أو تسرق؟ وماذا سيقول جارهم اللبناني؟ لقد انتبهت أكثر من مرة بأنها تعجبه وذلك من خلال نظراته؟ لكن ما لها وله؟

فجأة قامت من مكانها وذهبت إلى غرفة النوم وسحبت من فوق الدولاب حقيبة جلدية كبيرة كانت قد حفظت فيها العباءة والحجاب والفوطة التي أهدتها لها المرأة المحجبة في عمان، أما المصحف فقد أخرجته ووضعته على القسم من الدولاب في غرفة النوم.

لم تشأ أن تلبس الحجاب الذي قدمته لها المرأة الأردنية لأنه حجاب خليجي غير متعارف عليه لا في العراق ولا هنا في ألمانيا، فالعربيات المحجبات من عراقيات ولبنانيات وحتى الإيرانيات والتركيات يضعن فوطة على الرأس وأحيانا يلبسن معطفا طويلا.

أخذت الفوطة الملونة بإحدى الألوان الصينية ما بين البنفسجي

والوردي والتي تحمل رسومات صغيرة لأشكال فنية مختلفة من الحقيبة الجلدية وتوجهت إلى مقعد صغير أمام الطاولة التي تنتصب عليها مرآة كبيرة وبعض مواد التجميل والعطور.

شدت الفوطة على رأسها وأخذت قلم الكحل ومررته حول جفنيها فبدت أكثر جمالا ووقارا وإثارة مما هي بدونه.

من المؤكد أن زوجها سيصطدم من كثرة المفاجآت اليوم، فقد قرأت الرواية، وهي تريد إقامة الحداد عليهم وقراءة الفاتحة عند العشاء على أرواحهم، ولبست الأسود حزنا عليهم وها هي تلبس الحجاب.

شعرت حواء المؤمن بالضيق أول الأمر من مسألة الحجاب، لكنها حينما عادت إلى غرفة الاستقبال وانتبهت إلى أن الفيلم الإيراني لم ينته بعد جلست لمتابعته، وبمرور الوقت شعرت بالراحة والقرب من بطلة الفيلم على الرغم من أنها لم تفهم الحوار، لكنها فهمت من سير المشاهد بأن هذه المرأة تريد أخذ طفلها بمساعدة صديقة لها وأن هناك من يلاحقها، زوجها أو من أهل زوجها، وهي تهرب من مكان إلى مكان. تعاطفت مع هذه المرأة كثيرا، وأعجبها هذا الجمال الشرقي الذي لا ترى مثله في الأفلام الغربية.

حينما انتهى الفيلم انتقلت إلى محطة تلفزيونية ثانية كانت تبث حفلا موسيقيا، وأخذت تتنقل بين المحطات الألمانية المختلفة، وأخيرا انتقلت إلى المحطات العربية التي كانت تبث فيلما مصريا قديما. لم تكن سابقا تعرف بوجود هذه القناة، فكان الأمر بالنسبة لها اكتشافا سيفرح زوجها بلا شك.

جلست تتابع الفيلم بعد أن كانت قد نوت الذهاب للاستلقاء على سريرها. كان الفيلم مسليا جدا، بل الأهم من ذلك هو من تمثيل هند رستم وسعاد حسني وعمر الشريف والممثل الكبير السن الذي يضع طاقية فوق رأسه وقد نسيت اسمه، لا تذكرته أنه يوسف وهبي وكذلك الممثل عبد المنعم إبراهيم. هذا الفيلم الذي شاهدته مرات من شاشة

التلفزيـون العراقـي عصـر أيـام الجمعـة حيـث كان موعد الفيلـم العربي، لكنها لا تمله فهي تشاهده بمتعة شديدة برغم معرفتها بكل أحداثه، وأنها تضحك كل مرة، من كل قلبها، لبعض المواقف المضحكة فيه. تمددت على الصوفا ساندة رأسها إلى كفها مستغرقة في أحداث الفيلم المسلية.

عند الأصيل، كان الفيلم قد انتهى وبدأت المحطة تبث لقاءً مع فنان مصري معروف متوقفة عن حياته الفنية وأفلامه ومسلسلاته. سمعت وقع خطـوات علـى السـلم الخشـبي، فنهضت بنشـاط، ومضـت فاتحة الباب فتحـة ضيقـة لتـرى من القادم فرأت ضيـوف جارهم اللبناني وهم ينزلون السلم، بينما كان هو واقفا عند الباب يودعهم، وحينما اختفوا في منعطف السلم فتحت الباب فتحة أكبر وكأنها كانت تنتظر أحدا لكنها في أعماقها أرادت أن يراها جارهم اللبناني بشكلها الجديد، وفعلا ارتسمت علامات الدهشـة والإعجاب الشـديد على وجه الجار اللبناني حينما رآها، ابتسـم لهـا وابتسـمت لـه، لكنهـا لم تسـتطع تبرير فتحها البـاب كي لا يفهم أنها تتلصص عليه، فقالت باستحياء:

– ظننت زوجي قادم، نحن أيضا ننتظر ضيوفا
– إن شاء الله خير.. هل حصل شيء.. أراك بالأسود
– نعم.. استشهد لنا بعض الأقارب في العراق.
– إلى رحمة الله.. لكن هل يجب وضع الحجاب؟
– لا.. أريد أن ارتدي الحجاب..
– رائع.. أنك رائعة فيه.. سبحان الله..
– شكرا..

لـم تسـتطع أن تتواصـل معـه، فظلت للحظـات تنتظر منه أن يتواصل معهـا لكنـه كان ينتظـر منهـا أيضـا أن تقول شـيئا لأنه أحـس أنها منجذبة للحديـث معـه. أخـذ يتأملهـا بجـرأة ورغبـة واضحة، شـعرت برجفة من نظراته فأغلقت الباب بشكل مفاجئ.

خلف الباب وقفت حواء المؤمن وهي تحس بسعادة خفية من كلامه الـذي كان يتضمـن إعجابـا صريحـا بجمالها وأيضا من نظراته التي كانت تشعر وكأنها تحرقها. لا تدري لماذا شعرت برغبة عارمة في أن تراه ثانية ففتحت الباب، بالرغم من أنها كانت تشعر بأنه غير موجود، لكنها فوجئت بأنه كان واقفا في مكانه، فارتعبت، لكنه قال لها بجرأة:

– تعالي تفضلي اشربي القهوة، إلى أن يأتي ضيوفكم

ارتعبت وبدت الدهشة على وجهها الجميل وقالت:

– لا.. ماذا تقول.. إذا يراني زوجي سيقتلني.. ماذا سيقول؟

– ومـن أيـن يعرف؟ اشـربي القهوة.. وسـنترك البـاب مفتوحا.. فإذا سمعنا صوت أقدام صاعدة عندها ستخرجين..

صمتت للحظات، ثم قالت:

– لا.. لا.. أخاف.. لا يجوز ذلك

أغلقت الباب. ووقفت خلف الباب مرعوبة من هذا الحوار المكشوف والدعوة الصريحة للتواصل الشخصي، لكنها برغم كل هذا أحست بنشوة تجتاحهـا. بـدأت تتعجـب من تحولات مواقفها ومن نفسـها وتناقضاتها، فقبـل قليـل كانـت تجتاحهـا حمـى دينية حيث لبسـت السـواد حزنا على شـهداء قصة (متاهة آدم)، وغطت رأسـها بالحجاب تحت تأثير شـطحة فنية وروحانية، وشعرت بالود والقرب من زوجها وها هي تسعى لإقامة علاقة مع جارهم. هل هي سهلة إلى هذه الدرجة، وضعيفة بهذا الشكل أمام شهوتها؟

فكرت حواء المؤمن سائلة نفسها بصراحة: ماذا تريدين يا حواء؟ ولم تجد أية إجابة شافية ووافية لأنها نفسها لا تدري فعلا ماذا تريد بالضبط؟

آدم البغدادي: هل يا تُرى أن حواء المؤمن بهذا المستوى من الوعي الذاتي لنفسها بحيث تطرح على نفسها هذه الأسئلة؟

لم لا، أذكر أن جارتنا زهرة كانت متزوجة أيضا من شخص

محترم لكنها كانت لا تستطيع أن تقاوم نفسها ورغباتها، حيث كانت تقيم علاقة مع الشبان في محلتنا، وكانت على علاقة معي أيضا، لكني كنت على علاقة طيبة مع زوجها، وأكن له الاحترام، وذات مرة سألتها لماذا تفعل ذلك وتسيء لزوجها؟ ألا تحترمه؟ ألا يرويها جسديا؟ والغريب أن إجابتها كانت تؤكد بأنه شخص محترم ويحسن معاملتها وهو قوي وجيد معها في الفراش، لكنها لا تستطيع أن تقاوم نفسها في أن تقيم علاقات مع آخرين؟ لا تدري لماذا؟ هل هو تأكيد للذات على أنها مرغوبة من الآخرين؟ هل هي غيرة من بقية الفتيات الشابات اللائي يتابعهن الشباب في المحلة؟ هل هي محاولة للتشبه ببعض النساء اللائي اشتهرن في الوسط النسائي في المحلة بأنهن يبدلن الرجال مثل تبديلهن جواربهن؟ هي لا تدري لماذا، بل هي تؤنب نفسها على ذلك، وكما روت لي فأنها كانت تلوذ إلى الصلاة بعد أي ذنب أو لقاء لها مع شاب، ولو أنها في حياتها اليومية لا تقيم فريضة الصلاة، وكثيرا ما كانت تبكي حين تكون وحدها على سوء تصرفاتها وإساءتها لزوجها، بل وكانت تتذلل إليه بعد أي ذنب تقترفه.

فهل استمد هو طبيعة حواء المؤمن من مدخرات ذاكرته ليشكلها دون وعي منه من خلال شخصية زهرة التي عرفها في فترة مراهقته.

ثم أن تساؤلات حواء المؤمن عن نفسها وضعفها وسهولتها إلى هذا الحد بحيث يدعوها جارهم اللبناني مباشرة إلى بيته وحدها متعمدا أن يكون ذلك سرا بينهما فقط، هو تشخيص لنمط من النساء. أذكر نموذجا روائيا عند (هنري ميلر) في كتابه (ربيع أسود) حيث يصادف أن يعجب بطل الرواية بامرأة اسمها (كورا)، وهي امرأة متزوجة من رجل اسمه (بول)، وكانت

هذه المرأة المثيرة الشهية الحزينة الملامح تبدو عاشقة مخلصة لزوجها، لذا كان بطل الرواية يهاب الاقتراب منها لأنها امرأة عاشقة وفاضلة، وصادف أن غرق زوجها في بحيرة أثناء السباحة، وحينما قرر زيارتها لتقديم التعازي، فوجدها في ثوبها الأسود المفتوح الصدر والقصير، وحينما جلس يواسيها مرددا الجمل عن حسنات زوجها، وبينما كانت هي تبكي قام هو فرفع ثوبها وأولجه فيها، وكانت هي تصرخ وتلهث من اللذة وتقول له، لم أكن أتصور أنك ستفعل هذا. في ما بعد ذلك أخذت رأسه إلى الأسفل وطلبت منه أن يقبله، وتقول له وهي تتوسل: هل تعدني أن تبقى على حبي. ويردد بطل الرواية أنه لم يكن يعرف أنها سهلة لهذا الحد برغم مظاهر الفضيلة التي تبدو عليها.

لكن ليس بالضرورة أنني قد تأثرت بهذه الرواية، أو أنها برزت من لا شعوري، علما أني وضعت أشارة على تلك الصفحات التي تتضمن هذا المشهد، وإذا ما صارت الرواية أمامي فأني لا أتردد من فتحها على تلك الصفحات.

ويبقى السؤال أثناء سير النص والأحداث أن أتتبع الينابيع الإبداعية، وأن أتعرف على طبيعة تشكل العمل الإبداعي.

الفصل العاشر

تحولات الدكتور آدم التائه

رجع الدكتور آدم التائه من مدينة (أيسن) القريبة عند الغروب. كان تعبا وساهما ومهموم الملامح، وما أن فتح باب الشقة حتى وصلت أنفه روائح الطعام الطيبة، رائحة الرز البسمتي الزكية، وروائح البهارات المنبعثة من تشريب الدجاج الذي أعدته زوجته، وكذلك روائح البخور الزكية المنبعثة من غرفة الاستقبال، لكنه ذهل حينما دخل إلى غرفة الاستقبال مباشرة ورأى زوجته حواء المؤمن في ثوبها الأسود وقد غطت رأسها بفوطة جميلة زاد وجهها جمالاً وإثارة.

هبت هي واقفة منتظرة أن يقول شيئا، لكنه ظل للحظات يتأملها، ثم استدار وخرج من الغرفة متجها إلى المطبخ، وسمعت أصوات القدور والأطباق، فأصيبت بخيبة كبيرة وإحباط، وأحست بغضب خفي يجتاحها، ولا تعرف لماذا برق للحظة في ذاكرتها البصرية وجه جارهم اللبناني ثم اختفى.

فكرت حواء المؤمن مع نفسها للحظة: أمن المعقول أنه لم ينتبه إلى ثوبها الأسود وحجابها؟ لقد تأملها جيدا لكنه لم يعلق، لماذا؟ يبدُ على وجهه أنه ضد ذلك، لا ولا أنه مع؟ هل أنه جوعان إلى الحد الذي لم يدعه أن يبدي رأيه؟

مضت خلفه إلى المطبخ. وجدته قد صب لنفسه شيئا من الرز في طبق، فأسرعت هي وصبت له مرقا في طبق آخر ووضعت له أفخاذ الدجاج لأنها تعرف أنه يحب أفخاذ الدجاج، وأخذت الأطباق ووضعتهما

في صينية. كان هو منهمكاً بغسل الفجل، التفت إليه وقالت:

- هل أنت جائع إلى هذه الدرجة؟ يبدو التعب على وجهك، ألم تأكل شيئا كل هذه الفترة، أين كنت؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة وقال بهدوء:

- على أي من هذه الأسئلة أجيب أولا؟ نعم أنا جائع وأموت من الجوع، وأنا تعبان جدا، ولم آكل شيئا لحد الآن، أما أين كنت، فسأجيب عليه بعد الأكل لأني جائع جدا جدا، وبالمناسبة أراك قد طبخت كل هذا وبخرت البيت ولبست الأسود ووضعت حجاباً على رأسك، فما سر كل هذا الانقلاب؟

انتبهت حواء المؤمن إلى أنه قد لاحظ كل شيء لكنه لم يعلق في حينها لأنه وكما يبدو جائعاً بالفعل. حملت الصينية وذهبت إلى غرفة الاستقبال، فقد كان كثيرا ما يأكل هناك على الطاولة الموضوعة في وسط الغرفة بعد أن يقربها إلى الصوفا. تبعها حاملا بعض فصوص الفجل الأحمر الذي غسله.

جلست ناظرة إليه وهو يلتهم الطعام التهاما، لم تشاهده جائعا بهذه الطريقة، كما لاحظت أنه لم يعترض على بقائها في الغرفة وهي تنظر إليه، فهو كثيرا ما كان ينزعج حينما تظل تتأمله وهو يأكل طعامه.

كان الدكتور آدم التائه يأكل وهو غارق في تأملاته، فلم ينظر إليها قط، كان ينظر في الصينية، يأكل بهمة ونهم وكأن عليه انجاز مهمة سريعة، لكنها أحست أن فكره في مكان آخر، هذا واضح من نظراته الشاردة ووجهه المتعب، وعدم انتباهه لها، لكن يا ترُى أين كان؟

لم تنتظر إلى أن ينهي طعامه إذ قامت إلى المطبخ لتعد الشاي، فوضعت الماء في الدورق الخاص بغلي ماء الشاي وأشعلت الطباخ، ثم صبت لنفسها صحنا من الرز وعليه شيء من المرق وقطعة من الخبز ووضعتهما في صينية صغيرة وجاءت ثانية إلى غرفة الاستقبال، وجلست قبالته وبدأت تأكل أيضا.

كانـت تـأكل وتنظـر إليـه، لـم ينتبه لها إلا حينما أوشـك على الانتهاء من الطعام. كانت هي أيضا على وشك الانتهاء، وكانت ملامح الارتياح قد بدأت تأخذ مكانها على وجهه، ابتسـم لها بطيبة وكأنه انتبه لوجودها فأراد بابتسامته أن يعتذر، فاستغلت هذا الوضع وقالت له:

– أرجو أن تقرأ الفاتحة

نظر إليها متعجبا وقال:

– الفاتحة.. على روح من؟

– على روح أمك أولا، فمن الواجب أن نقيم وليمة كل ليلة جمعة ونقـرأ الفاتحـة علـى أرواح الموتى، ثـم.. ليس فقط على روحها وإنما على أرواح آخرين أيضا..

– مـا الـذي يجـري يا حواء؟ ما هذه الروحانية التي أصابتك؟ وعلى أرواح من أيضا نقرأ الفاتحة؟

صمتت لحظة، كانت مترددة، لكنها حسمت أمرها وقالت له:

– علـى روح المهنـدس آدم المطـرود، والمهنـدس آدم الصاحـب، والشخص الآخر زوج حواء اللهيبي

ارتسمت دهشة كبيرة على وجه الدكتور آدم التائه، حدق في وجهها للحظـات، نظـر فجـأة إلـى ملـف الرواية على الطاولة، التفـت إليها ثانية، وارتسمت ابتسامة على وجهه، وقال لها بهدوء:

– هل قرأت الرواية؟

ترددت قليلاً ثم أجابت وشعور مزدوج من الخجل والذنب يجتاحها:

– نعم.. قرأتها اليوم.. وبكيت على هؤلاء الأبرياء... لذا قررت مع نفسـي أن أقيـم العـزاء علـى أرواحهم لمـدة ثلاثة أيام، وأن ألبس السـواد حزنا عليهم، وأن أطبخ هذه الوليمة لقراءة الفاتحة على أرواحهم البريئة..

أحس الدكتور آدم التائه بمشـاعر مختلطة وهو يسـتمع إليها. مشـاعر هي خليط من الطيبة والشـفقة، والفرح، والخجل أيضا، فقد قرأت تلك

المشاهد الجنسية والتفاصيل الأخرى، وربما فهمت شيئا آخر، فقال لها بعد لحظات من الصمت الثقيل عليها:

- تعرفيـن أننـي أكـره من يتلصص علـيّ، ويفتش في أوراقي وكتبي، ويقرأ شيئا لا أريد أن يقرأه أحد حاليا...

صمتَ للحظات، بينما هي أحسـت بالخوف، وشـعرت أنها ارتكبت شيئا لا يحبه ويثير غضبه كما يقول، فنكست رأسها اعترافا منها بالذنب، لكنه استمر قائلا:

- لكني برغم ذلك اشـعر بالسـعادة من تأثير الرواية عليك إلى هذا الحد، وأنك أحسسـت بالشـخصيات في روايتي إلى هذا الحد، هذا يعني أني قد نجحت في خلق شخصيات تنبض بالحياة، إلى درجة أنك بكيت ولبست السواد حزنا عليهم وأنك تريدين إقامة العزاء لثلاثة أيام على أرواحهم...رائع جدا

أثـار كلامـه اسـتغرابها، فكل ما يعنيـه نجاحه في الكتابة، لكنها برغم ذلك سألته:

- - ألا تريد أن تقرأ الفاتحة على أرواحهم؟

نظر إليها للحظات باستغراب ثم قال:

- بلـى.. نقـرأ الفاتحـة علـى أرواحهم جميعا.. على روح أمي أيضا، لكن هناك مشكلة

- ما هي؟ قالت مستغربة

- يجب ذكر اسم الشخص واسم أمه، وأنا لا أعرف أسماء أمهاتهم، بل أن رجل السكرتيرة حواء اللهيبي لا أعرف أسمه أصلا...

- هل هذا يعني أنه من غير الممكن قراءة الفاتحة على أرواحهم؟

- بلـى، لكننـا سـنقول الفاتحة على أرواح شـهداء روايـة متاهة آدم: المهنـدس آدم المطـرود بـن حـواء، والمهنـدس آدم الصاحب بن حواء، والموظف المجهول الاسم زوج السكرتيرة حواء اللهيبي بـن حـواء.. هـل يعجبـك هذا؟ والآن قومي واحملي إلي الشـاي

قبل أن أغير رأيي ولا أقرأ الفاتحة..

- لا.. خطية.. أقرأ الفاتحة على أرواحهم.. الآن أجيب الشاي

وقامت مسرعة إلى المطبخ حيث أعدت الشاي بعد أن كان الماء قد غلى في الدورق وكاد يتبخر منه، وأثناء ذلك أحضرت صينية الشاي ووضعت استكانات الشاي فيه، فعادة حينما يريد الراحة والسهر في البيت فأنه يشرب الشاي بالاستكان المتعارف عليه في العراق، وإذا ما كان على عجلة من أمره، أو جاء ضيوف من الجالية العربية فأنه يفضل الأكواب، واليوم لاحظت أن مزاجه ليس سيئا على الرغم من التعب الذي كان فيه. فحملت دورق الشاي في الصينية أيضا ومضت إلى حيث زوجها.

حينما دخلت غرفة الاستقبال وجدته متمددا على الصوفا وهو يشاهد التلفزيون من غير انتباه أو تركيز، فجلست على الصوفة الجلدية القريبة منه، ووضعت صينية الشاي على الطاولة التي تتوسط الغرفة وأخذت صينية طعامه وصينيتها وحملتهما إلى المطبخ ثم عادت فرأته قد جلس استعدادا لشرب الشاي. نظرت إليه بتساؤل، فانتبه لها وفهم ما وراء نظراتها، فقال لها:

- لقد قرأت الفاتحة على روح أمي أولا ثم على أرواح شهداء رواية (متاهة آدم) لكاتبها آدم التائه، وسميت الشهداء كلهم، بما فيهم حواء الصايغ وحواء الغريب ببنات حواء.

بينما كان يتحدث كان هي تشعر بالارتياح وبسعادة خفية، لكنها استغربت حينما وصل اسم حواء الصايغ، فقالت بتعجب:

- لكن حواء الصايغ لم تمت؟
- لا أعرف، ربما قتلت هي أيضا؟
- كيف لا تعرف وأنت كاتب القصة؟ المهم، هل قرأت على أرواحهم الفاتحة؟
- نعم.. وعلى أرواحنا أيضا
- على أرواحنا؟؟ الحمد لله لم نمت بعد

– نحن موتى في الحياة..
– لا أفهم..
– أحسن.. لأن الفهم كثيرا ما يسبب وجع الرأس
– تمزح معي..أليس كذلك؟
– الفهم والمعرفة تجلب الهم والشقاء والنكد يا حواء
– ربما أنت محق في هذا..

كانت أثناء ذلك قد صبت له ولنفسها الشاي وبدآ يشربانه، لكنه توقف فجأة ونظرا إلى وجهها محدقا في غطاء الرأس وسأل:

– ما قصة غطاء الرأس هذا؟ هل تريدين التحجب أو أنها نزوة وتغير شكل؟ أم ماذا؟
– يعني..
– يعني..؟ يعني ماذا؟
– اليوم شاهدت فيلما إيرانيا بالتلفزيون وكانت البطلة محجبة فتذكرت أن المرأة المحجبة في الأردن أعطتني حجابا، فقمت وأخرجته من الحقيبة واستخدمت الفوطة غطاءً للرأس..
– وهل ستستمرين بغطاء الرأس هذا دائما أو فقط أيام العزاء التي تريدين أقامتها على أرواح شهداء المتاهة؟
– إذا لا تمانع أبقى مرتدية الحجاب
– ولماذا أمانع؟ هذه حريتك الشخصية، وبالمناسبة إنه يليق بك كثيرا؟ صرت أكثر جمالا وإثارة؟

غمرها فرح خفي، لكنها وخلال ثوان استحضرت وجه جارهم اللبناني، وكلماته نفسها تقريبا من أن الحجاب أضاف إليها جمالا وإثارة؟ ابتسمت لزوجها وقالت بخجل ممزوج بشيء من الغنج:

– يعني يعجبك الحجاب؟
– يعجبني... صرت أجمل.. لكن هل تكتفين بالحجاب أم تريدين أيضا القيام ببقية الطقوس والفرائض؟

- أنا أعرف الصلاة وقد صليت لمدة ستة أشهر وتركتها، والحقيقة أنا لم أفكر في ذلك، لكن يمكن أبدأ بالصلاة أيضا. لم أكن أعتقد أنك متدين أو أنك لا تمانع بارتدائي الحجاب واقامة الصلاة؟

نظر الدكتور آدم التائه إليها وكأنما يقرأ أفكارها ثم ابتسم مع نفسه وقال لها:

- لماذا أمانع؟ أنت حرة، وشخصيا أنا غير متدين لكني أحترم الدين، أنا مؤمن لكني أنظر إلى جميع الأديان بشكل متساو..

لم يكن في ذهن حواء المؤمن حينما ارتدت الحجاب أن تصلي أيضا، لكنها وجدت نفسها قد ألزمت نفسها أمام زوجها بالصلاة، وأحست بشيء من الحرج بهذا الإلزام، وأرادت أن تغير مسار الحديث، فقالت:

- اليوم، صدفة، وأنا أتنقل بين القنوات وجدت قناة عربية مصرية جديدة.

- رائع. قال الدكتور آدم التائه معلقا

أحست حواء المؤمن أنها صارت أكثر قربا من زوجها هذا المساء، واستعدت لسهرة ممتعة، حيث سيشاهدان فيلما عربيا على القناة المصرية وسوف يبقى الليلة ولا يخرج كعادته مع أصدقائه، فقامت إلى المطبخ حاملة صينية الشاي، وهناك في المطبخ فتحت دولابا علويا وأخرجت أكياس الفستق واللوز وشرائح الجبس وبعض قطع الحلوى، ووضعت من كل صنف شيئا منها في طبق صغير ووضعتها في الصينية وحملتها إلى غرفة الاستقبال، فوجدته جالسا باسترخاء على الصوفا متكئا على جانبها وهو يقلب القنوات التلفزيونية، فوضعت الصينية أمامه وجلست على مقربة منه، فقال لها:

- تعالي أجلسي قربي.. أريد أن أعرف منك بعض الأشياء

جلست قربه على الصوفا من الطرف الآخر. صمتت لحظة بانتظار أن يسألها، إلا أنه كان منشغلا بالتنقل بين القنوات إلى أن استقر على

قناة عربية تبث من لندن، ثم وضع جهاز الريموت كونترول جانبا والتفت إليها سائلا:

– قولي لي يا حواء.. هل قرأت الرواية بكاملها؟

– نعم

– وهل أعجبتك؟

– نعم

– ما الذي أعجبك فيها؟

– لا أعرف بالضبط.. أعجبتني وكفى..

– ما الذي أعجبك فيها أكثر؟

– لا أدري.. ربما لأنها تتحدث عن الحب؟

– لكنها لا تتحدث عن الحب فقط؟

– صحيح.. لكن الحب بين المهندس آدم المطرود وحواء الصايغ جميل جدا

– وأي الشخصيات أحببتها أكثر؟

– أحببت كل الشخصيات.. كل شخصية لديها مشاكلها..

– أي الشخصيات وجدتها أكثر قربا منك؟

– لا أدري.. ربما حواء الصايغ.. أو حواء التركية.. أو حتى حواء اللهيبي

– والرجال؟

– مساكين الرجال... لقد أشفقت على هؤلاء الأبرياء الذين عذبوا وقتلوا ظلما. لكن لدي سؤال

– اسألي..

– هل ما جرى مع هؤلاء قد جرى فعلا؟ وهل يحدث هذا في العراق؟

– ما جرى معهم جرى بالضبط مع الآلاف من الناس الأبرياء يا حواء، وكان وما زال هذا يجري في بلادنا.. ولم نكن نحن نعرف

عنه شيئا، لأننا كنا نعيش في عزلة.. أتدرين أين كنتُ أنا اليوم؟

– لا.. من أين أدري؟

– كنتُ مع بعض العراقيين المعارضين في مظاهرة ضد النظام الحاكم في العراق..

ارتسمت ملامح الرعب والخوف على وجهها، وقالت متسائلة:

– ماذا تقول؟ ألا تخاف منهم؟ ولماذا تفعل هكذا يا دكتور؟

حدق للحظات في وجهها الجميل وأحس أنها قريبة منه وأنها برغم بساطة ثقافتها هي ما تبقى له من أهله ووطنه في هذه الغربة، فقال لها شارحا:

– في البداية قال لي المحامي المكلف بالدفاع عن لجوئي بأنني يجب أن أثبت للمحكمة الخاصة باللاجئين بأني معارض للنظام وأنني ملاحق من قبله وأني لا أستطيع العودة إلى العراق وإلا ستكون حياتي في خطر، وقال لي إن أسهل طريق لذلك هو المشاركة في مظاهرات معادية للنظام تقيمها المعارضة العراقية وأن ألتقط صورا لذلك كي يقدمها هو إلى المحكمة من أجل ضمان الاعتراف باللجوء السياسي، واليوم حضرت مظاهرة قد تم الإعلان عنها قبل فترة وعرفت ذلك من بعض الأصدقاء، لكنني هناك تعرفت على الكثير من العراقيين، من مختلف الجهات، هل تتصورين، كان هناك الكثيرين من المعارضين الإسلاميين ومن الشيوعيين ومن الأكراد. هؤلاء الذين كنا في العراق نخاف أن نذكر اسمهم، اليوم كنت معهم في مظاهرة واحدة ورفعنا الشعارات ضد النظام. هل تدرين يا حواء أن ما ذكرته في الرواية لا يشكل إلا قطرة من بحر قياسا للذي سمعته وشاهدت بعض صوره في المظاهرة. أين كنا نحن.. هل كنا نياما؟

– ماذا تقول يا دكتور؟ كلامك يخوفني؟ هل في ذلك خطر عليك؟

– أنت تعرفين لا أحد لي في العراق، لكن معظم الذين كانوا

يتظاهرون يعرفون أن أهلهم في العراق، وربما سيتعرضون للأذى لكنهم لم يخافوا ذلك وخرجوا ينددون بالنظام..

– أنا أخاف عليك أنت، لا أحد عندي غيرك

– لا تخافي.. إن الله معنا.. لكن هل تعرفين لقد شعرت بالخجل من نفسي

– أنت؟ ولماذا لا سمح الله تشعر بالخجل؟ ماذا فعلت حتى تشعر بذلك؟

– لم أفعل شيئا، ولأني لم أفعل شيئا شعرت بالخجل.

– لم أفهم؟

– تصوري أنا أستاذ جامعي، وأديب وكاتب روائي كنت أعيش في برجي العاجي ومنغمسا في خصوصيتي، بينما في نفس تلك الأوقات كان الناس يعذبون ويقتلون ويموتون بلا رحمة، وبرغم أني كنت أتابع بعض ما ينشر هنا وهناك لاسيما في الأردن، إلا أنني لم أفعل شيئا، بينما وجدتُ اليوم بين المتظاهرين بعض النساء، فتيات شيوعيات وأخريات محجبات كن ضمن المتظاهرين..

حاولت هي أن تواسيه فقالت:

– لا تنس يا دكتور هؤلاء الذين يتظاهرون هنا في ألمانيا لم يتجرأ أحد منهم أن يفتح فمه في العراق، وربما كانوا في الحزب، وربما الآن يحتاجون إلى صور يثبتوا فيها أنهم ضد النظام كي يضمنوا بقائهم في ألمانيا..

أحس هو بالإحراج من كلامها إذ يمسه هو أيضا لكنه كان يدرك أنها تريد أن تخفف عنه انتقاده لنفسه، فابتسم قائلا:

– لم أكن أتصور أنك محللة سياسية، ففي كلامك شيئا من الصحة، بعضهم حالهم مثل حالي، لكن هذا لا يغير من الموضوع شيئا.. نحن في بلد خارج التاريخ والحضارة...

– المهم أتمنى أن لا يشكل ذلك خطرا عليك

ابتسم لها وسأل:

– لماذا؟ هل تخافين عليّ؟

خجلت من سؤاله فهو لأول مرة منذ زواجهما يسألها هذا السؤال، وبهذه الرقة، فابتسمت، وشعرت بسعادة وسلام حقيقي يغمر روحها. وقالت:

– كيف لا أخاف عليك، ألست زوجي؟

– هل تخافين عليّ لأني زوجك فقط؟ تُرى هل تحبينني؟

– وهل يحتاج هذا إلى سؤال؟

– طبعا

– كيف لا أحبك، أنت زوجي؟

صمت الدكتور آدم التائه لحظة، وشرد ذهنه، ثم التفت إليها وسألها وهو يحق في وجهها:

– هل كنت تخافين على زوجك السابق، وتحبينه أيضا؟

أربكها سؤاله وأحست أن كل ما بنته من أفكار عن تطور علاقتها معه وتقربها منه ليس إلا مجرد أوهام، فما زال زواجها السابق يمتد كهوة سوداء بينهما، فهو يغار من زوجها السابق، ولا يستطيع أن ينسى بأن ثمة رجلاً آخر نام معها، ولو على سنة الله ورسوله، فالمشكلة لديه أنه كان في رأيه أول رجل في حياتها، ومن المؤكد أن يتخيلها معه، لذا فهو يطرح سؤاله من باب الغيرة، لكن كيف لها أن تجيبه، أنها ليست مثله تعرف كيف تتكلم وتطرح الأسئلة وتجيب عليها، وإلا فأن جوابها الساذج على سؤاله هو الذي استفزه ودفعه لطرح سؤاله. لذا استجمعت كل قدرتها وأجابت:

– ذاك كان قاسيا معي، ويضربني، وكان يسيء إليّ، وكانت حياتي هناك عذاب في عذاب، كانت جحيما، بينما أنت إنسان مختلف. إن حياتي بدأت منذ اليوم الأول الذي دخلتُ فيه بيتكم، المرحومة

الوالـدة أحبتنـي مثـل ابنتها، وأنت كنت دائما طيبا معي، لذلك لا توجد مقارنة بين حياتي السابقة قبل أن أدخل بيتكم وبين حياتي معك.

ابتسم مع نفسه ابتسامة خفيفة وهو يستمع لجوابها الدبلوماسي، انتبه إلى أنها لم تذكره زوجها السابق إلا بذكره (ذاك) وزواجها السابق إلا ب (حياتي السـابقة). فكر في نفسـه أنها ذكية، وذكية جدا، ثم فجأة انهالت عليه ذكرياته السابقة، تذكر أمه وعلاقتها بزوجته، فرق قليلا، لكنه استذكر أباه أيضا، لذلك التفت إليها وسألها:

– وأبي؟ كيف كانت علاقتك معه؟

– أبـوك؟ كانـت علاقتـي بعمي طيبة، عادية، ربما لأني الوحيدة التي كنت اتحدث معه في البيت، فقد كان لا يتكلم تقريبا مع الوالدة رحمهـا اللـه، وأنـت كنت لا تود التحدث معه، وكنت أنا محتارة بينكـم. كان مـن خـلال حديثـه معـي يعـرف أخبـارا عـن الوالدة وأخبارك.

– وهل كان فعلا يفكر في حفيد له؟

انتبهت إلى أنه يشير إلى المشهد الذي رآه عندما وجده جالسا جنبها على سريرها في غرفة النوم، فقالت بحذر شديد:

– نعم..

نظر إليها وكل ملامحة تعبر عن لا تصديقه لجوابها، وقال:

– لا أعتقـد ذلـك. أنـه لـم يفكـر بهذا أبداً، أنه يكرهنـي ولا يعتبرني ابنه، بل إنه عذب أمي ودمر حياتها واستولى على أموالها، أهانها وأذلهـا وضربهـا واحتقرهـا، كنـت أشـاهد ذلك بعينـي وأنا طفل صغير، لذا ما تقولينه ليس صحيحا. كانت لديه دوافع أخرى.

أحست بالرعب، وتوجست لتدافع عن نفسها، فها هو يتهمها بشكل غير مباشر، فقالت:

– ماذا تقصد؟

صمت للحظات ثم نظر إليها وكأنه يقول لها، إني اعرف كل شيء، لكنه أجاب:

– لا أقصد شيئا؟

ونهض من مكانه متجها إلى مكتبه وجلس على كرسيه، ومن هناك سألها متقصدا معرفة رأيها:

– ما رأيك بالمهندسة حواء كوناي ياحواء؟

– لقد أحببتها، وتعاطفت معها، لكني أستغرب لماذا لم تكمل قصتها بعد أن خرجت من الغرفة؟

– لماذا أحببتها؟

– لأني أعتقد أنها مظلومة، وجدت نفسها في ظروف صعبة، وأنها كانت تخطئ وتتعذب لخطئها الذي تقترفه..

– هل وجدتها قريبة منك؟

– ماذا تقصد؟

– لا أقصد شيئا..

– لكن لدي سؤال؟

– اسألي

– لماذا توصف العلاقة بين الرجل والمرأة بهذا الشكل المفضوح؟ ربما سيتهمك الآخرون بأنك لا تعترف بآداب المجتمع والتقاليد؟ وليس كل الناس لديهم هذا الاستعداد لقراءة مثل هذه الأشياء المكشوفة.

إبتسم لها معجبا لذكائها الذي لم يكن يقدره جيدا، فهي تعرف كيف تلتف على الأسئلة وتتهرب من المواضيع المحرجة، بل لديها رؤية نقدية على بساطتها لكنها منطقية، فقال لها:

– لم أكن أعرف أنك ناقدة أدبية جيدة. صحيح ما تقولين. ربما سيتهمني البعض بالإبتذال، والفحش، وربما سيفسر البعض بأن هذه محاولة رخيصة للشهرة والانتشار من خلال أعمال فضائحية،

لكني أسألك شخصيا عن رأيك، ألا تجري مثل هذه الأمور بين الرجل والمرأة؟

– نعم تجري، عند البعض، لا أدري أن كان الجميع هكذا؟

– إذن، أنا اتحدث عنها بصراحة بينما يستحي الآخرون الأقتراب منها.

– لكن هل هناك داع لذلك، أحيانا أستحي وأنا أقرأ هذه التفاصيل؟

– ماذا تعتقدين أنت؟

– أنا لست كاتبة ولا أعرف الجواب

فجأة وجه الدكتور آدم التائه نظره إلى باب الشقة حينما سمع طرقاً على الباب، قامت هي تريد التوجه إلى الباب فقال لها:

– لا، أنا سأفتح الباب

وقام متجها نحو الباب، فاتحا إياه، فقابله وجه جارهم اللبناني الذي كانت عيناه لحظتها منخفضتين وابتسامة رقيقية ترتسم على وجهه، لكنه فوجىء حينما رفع رأسه ورأى وجه الدكتور آدم التائه المتسائل أمامه. انتبه الدكتور آدم التائه لتحول ملامح الجار اللبناني. ارتبك الجار اللبناني وابتسم ثانية وقال مرتبكا وهو يشير إلى شقته المجاورة:

– أنا جاركم اللبناني، إسمي آدم.

ومد يده مصافحا فخرج الدكتور من الباب ومد يده مصافحا وهو يقول:

– أهلا وسهلا أخ آدم، أنا الدكتور آدم التائه، أهلا وسهلا، كيف يمكن أن نخدمك يا جار؟

– عفوا.. أنا كنت حجزت أشياء من (كارشتات) وتأخرت فاتصلت بهم فقالوا أنهم سلموها الطرد للجيران، فأردت أن أسأل إن كنتم قد أستلمتم الطرد؟

من مكانه نادى الدكتور آدم التائه على زوجته:

– حواء.. هل استلمت طردا من (كار شتات) يعود لجارنا؟

إقتربـت حـواء المؤمـن مـن البـاب فنظر الدكتـور آدم التائه إلى وجه الجـار آدم اللبنانـي وهـو ينظـر إلى وجه زوجتـه فلاحظ ثمة قلقاً واضحا وأعجابا خفيا وكأنه يعرفها، وسمع زوجته تقول من خلفه:

– لا.. لم استـلم شـيئا، ربما عند جيراننا في الأسـفل فهم أقرب إلى الباب؟

إرتبك آدم اللبناني، وتراجع معتذرا وهو يقول بارتباك:

– أعتذر، ربما عند جيراننا في الأسفل، سأسألهم:

قال ذلك ونزل الدرج مسرعا وكأنه سيذهب إلى الجيران في الطابق الأرضي، بينما دخل الدكتور آدم التائه وهو ينظر نظرة مليئة بالألغاز إلى حواء المؤمن التي كانت قد أعطته ظهرها وهي تدخل إلى غرفة الاستقبال، غالقـا البـاب خلفـه، وكأنـه اكتشـف شـيئا جديدا أو جانبا لم يكتشـفه من شخصية زوجته حواء المؤمن، فثمة هاجس نشأ خلال لحظات يشير إلى ثمة معرفة أو تواصل بين جارهم آدم اللبناني وبين زوجته.

آدم البغدادي: على الرغم من أن الدكتور آدم التائه ليس وحده في هذا الفصل إلا أن الفصل يحمل إسم تحولات الدكتور آدم التائه، لكن ثمة إشارة هنا لتحولات آدم التائه الفكرية، فهنا في ألمانيا سيتعرف على القوى السياسية العراقية المعارضة للنظام، فهنا يتعرف وجها لوجه مع القوى الإسلامية العراقية التي كانت السلطة تعدم كل من يُشتبه به على أنه منهم، كما تعرف على الديموقراطيين الشيوعيين بكل أطيافهم، تعرف عليهم وعلى أفكارهم وناقشهم بحذر،وهذا ما أثر على فهمه لوظيفة الكتابة، بل غير من مصائر روايته ومساراتها الدرامية، فهو هنا في ألمانيا تعرّف على بعض الشعراء والفنانين العراقيين الذين زودوه بالكثير من أدبيات فيها الكثير عن شهادات التعذيب في العراق، كما أنه تعرّف هنا على شاعر عراقي شاب كان في

سجون السلطة وتعرض لأبشع أنواع التعذيب، وهو ما استفاد منه في كتابة تفاصيل تعذيب بطله آدم المطرود.

لكن هنا أيضا حواريته المهمة مع زوجته حواء المؤمن. إنها بعض جدل الأفكار في تأثير الميديا ووسائل الاتصالات وهيمنتها على لاوعي الانسان لاسيما من خلال ايقاظ ما دفن في أعماق اللاوعي الفردي والجمعي، وهذا ما نراه في إيقاظ الشعور الديني الكامن في أعمق أعماقها، وفي انجرارها لإقامة طقوس العزاء لشهداء في رواية، فهذا رغبة لاواعية دفينة في العودة إلى الجذور، وفي الجوهر هو عزاء لحواء المؤمن نفسها، ورصد للصراع النفسي الأخلاقي والغريزي لديها.

الفصل الثاني عشر

صلاة، وقبر.. أشباح، واغتصاب

مرت عشـرة أيام على سـؤال الجار اللبناني عن طرده، لكن هاجس الدكتور آدم التائه في وجود علاقة بين زوجته وجارهم آدم اللبناني تحول إلى شك أشبه باليقين؟.

فمنـذ دخولـه وإغـلاق البـاب خلفـه وهو غارق في أفـكاره، بل حتى نظراته إليها فيها الكثير من الكلام الخفي والاتهام، وهذا ما أكد قناعاتها السابقة في أنه يشك في علاقتها بأبيه، وأنه يتهمها في هذه العلاقة بدليل أن قصـة حـواء كونـاي فـي روايته (متاهـة آدم) أو (المرأة المجهولة) هي انعكاس لقناعاته تلك، وأنه لاحظ شيئا من خلال نظراته إلى جارهم آدم اللبنانـي، لكنهـا مجـرد أوهـام فليـس هناك من علاقة بينهمـا، فلماذا هذه النظرات الاتهامية القاتلة؟؟

أخذ الدكتور آدم المطرود يكثر من خروجه ويبقى لفترة طويلة خارج البيت، وحينما يعود متعبا فأنه يأكل ويشاهد التلفزيون ويذهب إلى النوم، وأحيانـاً ينـام علـى الصوفـا الجلديـة في غرفة الاسـتقبال، وكانت علاقته بزوجتـه حـواء المؤمـن بـاردة، فقـد عاد كما كان سـابقا في أيام زواجهما الأولى، يتعامل معها بجفاف لكن دونما تجاوزات، وإنما علاقة روتينية، خالية حتى من الاتصال الجسدي.

هـذا الوضـع أربـك حـواء المؤمـن كثيـرا، إذ اتسـعت الهـوة بينهما، فلقد شـعرت للحظات وهي تقرأ روايته بأنه قريب منها، وأنها بعد ذلك أحسـت أنها اقتربت منه أكثر، لكن اللعنة حلت حينما طرق جارهم آدم

اللبناني الباب، وسألت نفسها: ما الذي جرى، أن جارهم لم يقل شيئا غير اعتيادي؟ لقد سأل مجرد سؤال عن طرده؟

أحست أن زوجها غريب الأطوار، فهي لم تفهمه جيدا، ربما لأنه حاصل على شهادة الدكتوراه ومستواه أعلى منها بكثير وبالتالي فهي لا تفهمه؟.

تلك الليلة التي طرق جارهم اللبناني الباب عليهم كانت بداية دخول حواء المؤمن في عالم الروحانيات والتدين، بل بالغت في التدين، وأخذت الكوابيس تراودها أثناء النوم.

لأول مرة في حياتها تفكر حواء المؤمن بالأرواح الهائمة والأشباح والجن والشياطين، كانت تشاهد الأفلام التلفزيونية التي تتحدث عن الأرواح والأشخاص المسكونين بها، وكانت أحيانا تشعر بالخوف من الأشباح.

لم تنتبه حواء المؤمن إلى المبنى القديم الذي تقع فيه شقتهم، فهو بيت ألماني قديم من بيوت ما قبل الحرب العالمية الثانية، يتألف من طابقين، في الطابق الأسفل تعيش عائلة لبنانية كبيرة العدد، لذا فأن دائرة المساعدات الأجتماعية أسكنتها في الشقة الكبيرة التي تقع في الطابق الأرضي، أما الطابق الأعلى منه ففيه شقتان صغيرتان، أحدهما تتألف من غرفة كبيرة وملحقاتها يسكنها آدم اللبناني، والشقة المجاورة لها هي شقتهم وتتألف من غرفة الاستقبال ومطبخ في أعماقه تقع غرفة النوم والحمام وبين الغرفتين ثمة باحة صغيرة وضيقة جدا تفصل الباب عن الغرف، وما بين هاتين الشقتين والطابق الأرضي ثمة سلم خشبي قديم يصدر أصواتا وأزيزا عند صعود أي كائن عليه.

كانت حواء المؤمن، بعد أن تنجز واجباتها البيتية كإعداد الطعام وغسل الملابس، تقضي بعض وقتها أمام التلفزيون، ثم تتجه للصلاة وقراءة القرآن. وبرغم أنها لا تفهم مفردات العديد من الآيات لكنها كانت تقرأها بإنفعال ورهبة.

كانت تخاف الجحيم وصوره الرهيبة في القرآن، لكنها كانت تخاف أكثر من القصص التي سمعتها أثناء طفولتها أو التي قرأتها في بعض الكتب والكتيبات التي كانت تشتري منها أثناء قيامها بالزيارة إلى المراقد المقدسة للأئمة، لاسيما تلك الكتب التي تتحدث عن عذاب القبر وزيارة الملائكة للميت وحسابه هناك، لكن ما كان يثير رعبها هي تلك التصورات عن عالم القبر، ليس في ما يخص الملائكة، منكر ونكير، وأنما حينما تتصور نفسها وحيدة في ظلمة القبر وتمطر السماء فيتسرب الماء والوحل إلى داخل القبر ويغطيها بينما هي عاجزة عن الحركة، أو حينما تتسلل الأفاعي إلى قبرها وتسير زاحفة على جثمانها بينما هي لا تستطيع الصراخ أو الحركة، أو حينما تصل العقارب إلى قبرها وتدب عليها وهي مشدودة بالكفن، والغريب أنها في كل هذه التخيلات عن موتها تتصور نفسها حية، أي في وعيها لكنها ملفوفة بكفنها ومتروكة وحدها هناك؟

أحيانا كانت تروادها تساؤلات غريبة، مثلا أين سيجلس الملاكان منكر ونكير، فلا مكان في القبر، إنه ليس غرفة وإنما حفرة يدفن فيها الجثمان ويهال عليه التراب، فياترى كيف سيدخل منكر ونكير؟؟ ثم ماذا عن الذين يموتون غرقا أين سيكون منكر ونكير؟ هل سيسبحان تحت الماء؟

وماذاعن تلك الجثث التي تأكلها الأسماك المختلفة؟ كيف سيحاسبها منكر ونكير؟؟ وماذا عن الذين تتمزق أجسادهم في الحروب ولا يبقى منهم سوى أوصال متقطعة من أجسادهم؟ أو عن الهنود الذين يحرقون جثامين الموتى وينثرون رمادها في الريح أو في النهر المقدس، كيف سيحاسبهم منكر ونكير؟؟؟ بعد ذلك تستغفر الله على هذه الأفكار، بل تخاف منكر ونكير أكثر من رب العالمين، فالله نور السماوات والأرض، وهو الرحمن الرحيم، الغفور العطوف الرؤوف. لقد كتب الله على نفسه الرحمة والغفران.

وصارت حينما تستغرق في الصلاة وقراءة القرآن تفز من أي حركة أو نأمة تسمعها في شقتهم الفارغة، وكثيرا ما كانت تتصور بأن ثمة شبحاً أو روحاً تدخل عليها الغرفة أو تقف خلفها وهي مستغرقة في القراءة، فتتوقف حينها عن القراءة للحظات ثم تلتفت مباشرة إلى الخلف فلا تجد أحدا، فتبسمل وتصلي على النبي وتقوم من جلستها لتذهب إلى غرفة الاستقبال لتشغل التلفزيون وترفع صوته عاليا ليقضي على هذا الصمت والسكون والوحدة التي صارت ترعبها.

كانت حواء المؤمن تتوقع حدوث كارثة ما لكنها لا تستطيع أن تعرف ما هي، لكنها تشعر بأن زلزالا سيهز حياتها، وكان هذا الأحساس يعذبها.

في أحد الأيام احتاجت أن تذهب إلى السوبرماركت القريب من بيتهم لشراء بعض منظفات البيت والمواد لغسل الملابس، وكانت قد نسيت أن تطلب من زوجها أن يشتري هذه المواد عند عودته إلى البيت، وما أن فتحت الباب حتى واجهها جارهم آدم اللبناني في تلك اللحظة. كان باب شقته مفتوحا على آخره.

كان آدم اللبناني واقفا عند منتصف الباب ما بين الخروج والدخول. ابتسم لها وحياها قائلا:

- صباح الخير مدام حواء

جمدت هي في مكانها، فلم تستطع أن تتقدم خطوة واحدة. نظرت إليه بارتباك، ولم تجبه، وشعرت فجأة برغبة في الفرار منه وإلا فأنها لا تعرف كيف سينتهي لقاؤها معه، فأرادت الرجوع للدخول إلى البيت لكنه كان أسرع منها، فقبض على كفها وسألها:

- ما بك حواء؟ ما الذي فعلته حتى تهربي مني؟

لم تجبه وإنما أرادت أن تسحب كفها من كفه، لكنه كان أقوى منها فسحبها بقوة جاذبا إياها إلى شقته. لم يترك آدم اللبناني الفرصة، فأغلق الباب وأوصده بالمفتاح، شلتها المفاجأة وأخرستها فلم تنطق بشيء،

وبـدون أي تحـرج، وبجـرأة كبيـرة حصرهـا على الجدار وضغط جسـده عليها حتى كادت أنفاسـها تتقطع لكنها أحسـت بالخدر، ووجدت وجهه قريبا منها وهو يقول لها:

– ما بكِ؟ أنت تهربين مني أم من نفسك؟

تمتمت بتوسل:

– أرجوك اتركني

– كيـف اتـركك وأنـا منـذ أيام لا أعرف النوم ولا أسـتطيع الخروج، أجلـس قـرب الباب مسـتمعا لكل حركـة، مترقبا خروج زوجك، منتظرا رؤيتك، والآن تقولين اتركني..

كان يتحدث بينما يده أخذت ترفع ثوبها إلى الأعلى مداعبا فخذها، انتبهت إليه فأرادت أن تدفع يده عن موضعها تحت الثوب فتحركت مائلة قليلة مما أتاح له أن يطبق بشـفتيه على شـفتيها، فرفعت رأسـها فصارت شـفاهه علـى رقبتهـا ونـزل بهمـا إلى صدرها. في هـذ اللحظات تذكرت روايـة (متاهـة آدم) التـي كتبهـا زوجها، أحسـت بالتهيج، لكنها أرادت أن تقاوم، فهي الآن متحجبة وتقيم الفرائض، لكن آدم اللبناني كان منهمكا فـي التوغـل إلـى مناطقها الحساسـة، وبدون أن تتوقع رفعها من وسـطها وذهب بها إلى السرير، وألقاها عليه.

حاولـت حـواء المؤمـن أن تصـرخ لكنهـا كانت عاجـزة فلا صوت يخرج من حنجرتها، وأحست بالشلل الكامل. أرادت الهرب من السرير، لكنه كان أقوى منها، فرفع ثوبها إلى وسطها وكشف عن أسفل جسدها. لم تعرف متى وكيف فتح آدم اللبناني حزامه وبنطاله، كان شبه عار أيضا، ودون أن يعريها، فتح فخذيها وأزاح سـروالها جانبا بحيث يسـتطيع أن يولجه فيها. كان فرجها نظيفا جدا، ومبتلا قليلا، فأولجه فيها بسهولة.

كانت هي في حجابها ملقاة على سرير آدم اللبناني، وكان هو داخل فيها بقوة وانتصاب عجيب، وكانت هي وكأنها ليسـت هي، بل تسـترجع مشـهد اغتصـاب السـكرتيرة فـي الرواية. فجأة أحسـت بالخـدر وتيارات

كهربائية تنتابها، تيارات من المتعة، وكان وجهه قريبا منها، فلم تجد نفسها إلا وهـي تضمـه وتقبلـه بشـراهة وعنف، وأحسـت به وهـو يملأها بمائه، أحست بدفقاته فيها، أحست بأنها تغرق، وتهوي معه في هوة بلا قرار.

بعد لحظات انتبهت لما اقترفت فصاحت بأعلى صوتها:

– استغفر الله... عليك اللعنة..

وهربـت مـن الغرفـة. فتحت الباب ودخل شـقتها التـي بابها لما يزل مفتوحا.

أغلقـت البـاب ووقفـت خلـف البـاب متكئـة عليه وهـي ترتعش من الغضب الممزوج بارتعاشات اللذة التي تسري كتيار في مسامات جسدها. أحست بسائله المنوي يخرج منها فاسرعت إلى الحمام نازعة عن نفسها وهي في الطريق حجابها وبلوزتها الخفيفة وثوبها الطويل، ووقفت تحت دش الماء نازعة عنها ما تبقى عليها من قطع قماش.

أخذت تفرك جسـدها بالماء والصابون بسـرعة وقوة وكأنها تريد أن تتخلص من رجس لوث جسدها، بل أخذت خرطوم الماء وأدخلته حتى فتحة رحمها محاولة تطهير رحمها من مني جارهم الذي اغتصبها.

أرجعـت خرطـوم المـاء إلـى موضعـه وقرفصـت تحت شـلال الماء المنهمر، وهي تسأل نفسها لماذا لم تصرخ؟ ولماذا لم تقاومه؟ بل لماذا ضمته وقبلته بشـهوة وحرارة وهي تلهث من الشـهوة والمتعة؟ هل هي سافلة ومنحطة وفاسقة إلى هذا الحد، بحيث تقوم الليل بالصلاة وقراءة القرآن بينما في أول خطوة لها خارج الباب تنهار وتزني؟

فجـأة تذكـرت زوجهـا وألقـت اللـوم عليه، فهو لم يقتـرب منها منذ عشـرة أيام، بينما عودها منذ سـنوات بأن يضاجعها بشـكل شـبه يومي، فهي تعودت على المضاجعة وأدمنتها ولا تستطيع أن تبقى هكذا، لكنها لعنت نفسها. تعرف أنها تبحث عن تبرير لفعلتها. أخذت تبكي وهي في جلستها تلك، بينما ظل شلال الماء ينهمر عليها غاسلا دموعها ورجسها الذي هز كيانها.

آدم البغدادي: كان موقف الدكتور آدم التائه من زوجته كثيراًعليها، فلم تستطع أن تتحمله، لا جسديا ولا نفسيا، فهو يعرف أن ابتعاده عنها بهذه الطريقة هو عقوبة جسدية كبيرة لها، لكنه أيضا عقوبة نفسية أشد، فهي حبيسة الجدران الأربعة ولا تخرج من الشقة تقريبا، لكنه لم يقدر الأمور حق تقديرها، ولا هي كانت تتوقع أن يتجرأ جارهم آدم اللبناني على اغتصابها، لكنها أيضا كانت لديها رغبة دفينة في أن يقوم بذلك، ولولا أنه قرأ ذلك في وجهها وأعماق عينيها لما تجرأ على أن يأخذها بهذه الطريقة السهلة. ربما هذه هي بداية نهاية حواء المؤمن، فهي قد دخلت مرحلة جديدة أختلط عليها الوهم بالواقع.

الفصل الثالث عشر

الجني الأزرق

حين عاد الدكتور آدم التائه متأخرا على غير عادته في ذلك اليوم بعد أن شـارك في تظاهرة سياسـية عراقية ضد النظام في مدينة (كولن) كانت زوجته في سريرها تبكي.

لـم ينتبـه لهـا أول الأمـر، لكنـه حينمـا دخل المطبخ وبـدأ يفتش عن الطعـام قامـت هـي من سـريرها وجاءته لتعد لـه الطعام فلاحظ أنها على غير عادتها، وانتبه لعينيها المغروقتين بالدمع وأنفها المنتفخ قليلا فعرف أنها بكت بحرقة. سألها دونما اهتمام واضح وبحيادية:

– ما بك؟

أجابت بحزن ممزوج بالخوف:

– لا شيء

خرج آدم التائه من المطبخ متجها إلى غرفة الاستقبال دون أن يبدي اهتماما أكثر بوضعها، فقد كان متعبا واعتقد أنها متأثرة من تعامله الجاف معها، وقرر مع نفسه أنه سوف يرضيها الليلة.

أعـدت لـه العشـاء، بيضـا مخفوقا بالدهن، شـايا عراقيـا وجبنا لبنانيا وزيتونا يونانيا وخبزا تركيا. وضعت الصينية أمامه وجلسـت بالقرب منه بينما كان هو يتابع قناة عربية تبث من لندن.

لم تطق حواء المؤمن الاستمرا بالجلوس، بدت وكأنها في عالم آخر فنهضت خارجة من غرفة الاستقبال متجهة إلى غرفة النوم.

حينمـا فتحـت حـواء المؤمـن بـاب غرفـة النوم لم تسـتطع أن تبصر

أي شـيء. كانـت الغرفـة بـاردة ومليئة بالضباب البارد المخضر ويتوسـط الضبـاب ضـوء فضـي باهـر مائـل للإخضـرار وكأنـه ينسـكب مـن مكان مجهول في السماء.

توجهت كالمأخوذة إلى سريرها، إذ لم يراودها قط أن تهرب أو أن لا تدخل الغرفة أو تنادي زوجها. ألقت بنفسها على السرير واخذت تحدق في المجهول، نحو جهة الضوء الفضي المخضر الباهر والضباب الكثيف.

أحسـت أن ثمة شـيئاً يقترب من خلال الضباب، شـيئا فشـيئا بدا ثمة مخلوق يشبه تلك التي رأت مثلها في بعض الأفلام الغرائبية،، هيئتة هيئة رجـل بـلا ملامـح، أصلـع الرأس، لا يرتدي شـيئا وبرغم ذلك كان وكأنه يلبس بدلة فضية مائلة للإخضرار تغطي جسـده. كان وجهه بلا ملامح، وكان بلا عينين، فليس في محجر العينين أي شـيء. كان يذكرها بتمثال الأوسكار الذي تراه أحيانا في الأفلام والمجلات الفنية.

إنكمشـت مرعوبة في سـريرها حين وقف عند حافة السـرير من جهة القدميـن. أحسـت بريـح بـاردة، وعلـى الرغـم من أن هـذا المخلوق كان بلا ملامح إلا أنها لاحظت ما يشـبه الابتسـامة قد ارتسـمت على وجهه المطاطي الفضي. أحست بخوف طفولي بريء وأخذت تبسمل مع نفسها عسـى أن يختفي هذا المخلوق فكثيرا ما سـمعت عن تأثير البسـملة على كل شيء أثناء الخطر لكن هذا المخلوق لم يختف.

مد المخلوق الفضي المائل للإخضرار وجهه لها فامتد لأكثر من متر حتى صار وجهه قريبا منها على بعد سـنتميترات قليلة. لم يكن يتنفس، وبرغم وجود أنف يتوسط وجهه الخالي من الملامح إلا أن أنفه كان بلا منخريـن. أغمضـت عينيهـا خوفـا، لكن بعد ثـوان قيلة فتحتهما فرأت في موضع عينيه ما يشبه المجرات والكواكب والسحب الكونية، ثم سمعت صوتا وكأنه صوت ميكانيكي وغير بشري يأتي من آلة تسجيل، سمعت:

– من أنت؟

إرتبكت حواء المؤمن وقالت متمتة برعب:

– أنا حواء المؤمن زوجة الدكتور آدم التائه

حدق المخلوق الفضي إليها قليلا فرأت تحولات وصوراً في محجر عينيه وكأن فيلما مصورا مر في لحظات، ثم سمعت صوته قائلا:

– هـذا بيتـي. لقـد حكـم علـيّ بالنفـي كعقوبة فألقي بـي إلى كوكب الأرض. سُـجنت فـي أعمـاق البحـار. هـذه الأرض كانـت بحرا قبل ملايين السنين، ثم انحسر البحر فصارت أرضا، ثم غابة، ثم سـكنتها الدببة، ثم آدم، وما أن عمرت ببني آدم حتى تم إطلاق سـراحي، لكنـي صـرت أعـود إلـى هنـا كل ألفي عـام. في المرة السـابقة كانـت هنـا خيمـة لحكيم الهمج. ورغم أنـي أنهيت فترة عقوبتـي وعـدت إلـى موطنـي في مجرة السـديم الأزرق، إلا أني أزور هـذا المـكان مـرة كل ألفـي عـام كما قلـت. هذه المرة أنت هنـا، لا تخافـي، لا أريـد أن ألحـق الأذى بـك، لكـن لا تخبـري أحـدا بوجـودي، أنـت فقط سـتريني، سـأكون هنا معك، في هذا البيت وفي أي مكان ستذهبين، هل فهمت؟

تمتمت حواء المؤمن مرعوبة:

– فهمت... فهمت..

مـد المخلـوق رقبتـه التي تطـول إلى أي مدى يريد، وأخذ يتأملها ثم سمعت صوتا صادرا منه:

– أنت آدمية جميلة.. أريدك لي

فتمتمت مرعوبة:

– أنا متزوجة

– أعرف أنك متزوجة من هذا الذي أسمه الدكتور آدم التائه، لكنني أحببتك، أنا المخلوق من النارالزرقاء والدخان، أنت لي أنا.

كانت حواء المؤمن تفكر مع نفسها بأن ما يجري مجرد تخيلات، لذا شعرت بشيء من الجرأة في الحوار والمغامرة، فقالت بصوت خافت:

– أنا إنسانة وأنت مخلوق غريب لا أعرف كيف أسمّيك فماذا تريد

مني؟

– أنتم بنو آدم تسموننا الجن أو الأشباح أو الشياطين، تطلقون علينا أسـماء مختلفـة، لكـن الجوهـر واحـد هو أننا لسـنا من لحم ودم ولسـنا مقيديـن بقوانينكـم البايولوجيـة والفيزياويـة، وبرغم ذلك تعتقدون أنكم أفضل وأشِرف وأعظم المخلوقات في هذا الكون الرحيب، بينما نحن ننظر إلى بني آدم من السماء وهم يتخبطون فـي الحضيـض، فـي الشـقاء الأرضي، نراكم تلهثـون وراء المال والسـلطة، وراء الذهـب والنفـوذ، تهربـون من أنفسـكم، تذهبون طائعين إلى عبودية المال والسلطة. أنتم منافقون، كلكم تتحدثون عن الخلاص لكنكم لستم صادقين لأنكم تستفيدون من كلامكم لتبنـوا سـلطانا وجاهـا ولتكنـزوا الأموال، وبذلـك تصيرون عبيدا لدعوى الخلاص، بل دعوة الخلاص تصير مهنة لكم.

صمت المخلوق الفضي لأقل من دقيقة، ثم واصل وكأنه يترافع في محكمة:

– ليـس بنـو آدم أفضـل المخلوقـات، فنحـن أفضـل وأذكـى وأقوى منكم. نحن نرى ونسـمع ونتحرك ونطير بسـرعة الضوء ونتحول كما نشـاء بينما أنتم لا تسـتيطعون ذلك، ونحن أشـرف فنحن من نـار زرقـاء بينمـا أنتـم مـن لحم ودم. أنتم جيفـة، داخل كل منكم جيفة، غائط وبراز وسوائل كريهة، وعند الموت تتحللون وتكون جيفتكـم قاتلـة، لا يمحوهـا سـوى التراب، بينمـا نحن نار زرقاء، موتنا إنطفاء، ومقبرتنا السـماء. لسـتم أشـرف منا وأكرم. أنظروا إلى أنفسكم حينما تتغوطون، سواء كان الشخص ملكا إمبراطورا أو ملكـة جمـال فأنهمـا حينما يتغوطان ويتدفـق الغائط والروائح الكريهة منهما فأنهما يكونان أسفل سافلين، فحتى خراء بني آدم أكثـر جيفـة مـن بـراز بقيـة الحيوانات على الأرض فأين الشـرف والكرامة؟

فقالت متمتة:

– أنا لا أفهم هذا الكلام الكبير، ماذا تريد مني؟

تقدم بجذعه الأعلى متمططا ومقتربا:

– أريدك... أريدك لي

– أنت جني وأنا إنسانة

– ثم ماذا...

– أنا أخاف منك..

– لا تخافي مني، على العكس أنا سأحميك، سترتاحين معي.

صُدمت حواء المؤمن من سماع ذلك، فقالت بشكل ميكانيكي وكأن شخصا آخر كان يجيب:

– استغفر الله..

فقال بنبرة حادة:

– هل تريدين أن أخطفك وأذهب بك إلى كهوف بعيدة؟

فقالت مرعوبة:

– لا..

– لا تخافي.. ستستمتعين معي. أعرف أنك تحبين الأير طويلا ومتينا، وسأريحك أنا من هذا الجانب، وسأوفر لك كل شيء من مال وثياب ومجوهرات

أحست حواء المؤمن بالخجل والخوف من كلامه، لأنه يعرف عن مشاعرها الدفينة ورغباتها التي لم تفصح بها لأي كان.

– سأكون معك في كل مكان، وسأنتظرك وحدك هنا في هذه الغرفة.

بدأ المخلوق الغريب ينسحب ويدخل وسط الضباب ثانية، وفجأة، وكأن ريحا تدور، إلتف الضباب واختفى كل شيء. أحست حواء المؤمن أن كل ما جرى وكأنه مشهد من فيلم سينمائي أميركي عن مخلوقات الفضاء، وبرغم أنها كانت تستشعر وجود شيء ما في هذه الغرفة، لكنها لم تفكر لحظة بأن يكون الجني بهذه الهيئة، فقد تصورته طويلا، ضخما،

أصلعَ أو بظفيرة، لديه مخالب طويلة، أخضر، كما تم تجسيده في بعض الأفلام العربية والأجنبية المأخوذة عن قصص ألف ليلة وليلة.

كانت حواء المؤمن في فراشها في حالة ذهول وخوف. فكرت لماذا ظهر لها هذا المخلوق الغريب؟ ولماذا أختارها لتكون له؟ ماذا يقصد بذلك؟ هل هي رخيصة إلى هذا الحد بحيث حتى الجني يطمع بها؟ أو لأنها جميلة فعلا بحيث يرغب فيها الرجال فور رؤيتهم لها؟ ولكن كيف عرف أنها تحب عضو الرجل طويلا ومتينا؟ ومرقت في أعماقها رغبة غريبة في تجرب ذلك، لكنها تذكرت أنه بلا ملامح وأعضاء بشرية سوى القامة.

تاهت حواء المؤمن في براري تفكيرها. سألت نفسها، هل يجب أن تخبر زوجها بما رأت؟ لكن ذلك المخلوق طلب منها أن لا تخبر أحدا بما جرى، ثم كيف سيكون رد فعله إذا ما أخبرته بكل تفاصيل الحديث الذي جرى بينهما؟

صحيح أنها لا تذكر كل ذلك الحديث عن بني آدم والمقارنة بينهم وبين الجن بالضبط، ولم تفهم أبعاده، إلا أنها تذكر جيدا إشارته بأنه سيمتعها لأنها تحبه طويلا وضخما، وأنه يريدها له، وأنه سيكون معها، وبإمكانه اختطافها.

أحست حواء المؤمن بأن ثمة تغييرات تجري في أعماقها، وبأنها بدأت تفقد شيئا من ذاكرتها، وأنها صارت ليست هي نفسها. أحست أنها بدأت تخرج من شخصيتها مثلما تخرج الأفعى عن جلدها القديم. خافت قليلا، لكنها أحست بالراحة لهذا التغيير الذي يجري فيها ومعها، إذ أحست أنها صارت لامبالية قليلا، لايهمها كيف ستنتهي هذه المغامرة، ثم أن الجني وعدها بأن يحميها، لذا قررت أن لا تخبره بشيء.

قامت من مكانها واتجهت إلى غرفة الاستقبال حيث زوجها. حينما دخلت عليه وجدته منشغلا بقراءة كتاب رسمي وصل إليهم من دائرة الأجانب، لكنه لم يفهمه بالكامل، إذ وجدت القاموس الألماني العربي

بالقرب منه، بينما جميع الصحون في الصينية فارغة.

جلست على مقعد مقابل زوجها. لم يعرها اهتماما، إذ كان منشغلا بالكتاب الرسمي في يده، ثم أخذ القاموس ففتحه مفتشا عن معنى إحدى المفردات في الكتاب، لم يجدها، فألقى بالقاموس جانبا، ثم طوى الكتاب ووضعه على الطاولة القريبة منه. رفع رأسه إليها قائلا:

- هذه رسالة من محكمة اللاجئين في تسيلندورف فيها تحديد موعد للمقابلة في قضية اللجوء، ومعها كتاب من دائرة الأجانب يدعونا إلى أن نقدم طلبا وأشياء أخرى لم أفهمها. غدا أتحدث مع المترجم مصطفى بوزونيتو الجزائري الذي يعمل هناك ليترجمها لي.

شعرت وكأن الأمر لا يعنيها فانتبه هو لذلك. تأملها، وجدها مرتبكة ونظراتها شاردة، فقال لها:

- ما بك؟ حينما جئت اليوم وجدت عينيك محمرتين ومنتفختين من البكاء، والآن أراك وكأنك تائهة، حتى أن خبر تحديد موعد لمقابلتنا في محكمة اللاجئين لا يثيرك، بينما كنا ننتظر ذلك شهورا، ما بك؟

- لا شيء..

- لا شيء، كل هذا ولا شيء؟

فجأة أحست وكأنها صحت من غيبوبة، أو وكأنها عادت من رحلة طويلة، ارتبكت وأحست بشيء من الخجل، متذكرة اغتصاب جارهم لها، فقالت:

- لا شيء أنا تعبانة قليلا

راود الدكتور آدم التائه شعور بالتعاطف معها، وأحس بالذنب في أنه يتركها طوال النهار وحدها، لكنه يعرف أن متعتها الحقيقية هي الجنس لذا أراد الاقتراب منها، انتبهت هي لذلك، وقبل أن ينهض قامت هي قائلة:

- سأذهب لأستحم، هل تحتاج شيئا؟

– لا..

قامت خارجة بينما ظل هو جالسا في مكانه يفكر كيف سيرضيها بعد الحمام. بعد دقائق قليلة قام واتجه إلى الطاولة وجلس على الكرسي. نظر إلى مخطوطة روايته (متاهة آدم) أو (المرأة المجهولة)، أخذها وتصفحها. فكر في أن يكتب فصلا أو أكثر يكمل فيه حكاية (حواء كوناي) يروي فيه مصيرها وكيف صارت مهندسة وكيف واجهت الحياة بعد موت زوجها وعمها، لكنه فكر أيضا ربما سيكون شيقا أن تبقى المصائر مفتوحة على أقدارها.

لا يدري كم مر من الوقت وهو على كرسيه مستغرقا في تفكيره بمصائر أبطال الرواية، لكنه انتبه إلى أن التلفزيون الألماني كان يبث موجزا للأخبار عند منتصف الليل، وهذا يعني أنه أمضى مع روايته أكثر من ساعتين.

قام واتجه إلى غرفة النوم بعد أن أطفأ جهاز التلفزيون والضوء في غرفة الاستقبال، وحينما فتح الباب كانت الغرفة مظلمة وزوجته نائمة في سريرها، فأغلق الباب ثانية وعاد إلى غرفة الاستقبال. ضغط على زر التيار الكهربائي فأضاء الغرفة ثم اتجه إلى طاولته وجلس على كرسيه مسترخيا غارقا في تأملاته.

آدم البغدادي: لا أدري كيف سأمضي بهذه الشخصيات نحو مصيرها الروائي، فأمامي نهايات متعددة للدكتور آدم وزوجته حواء المؤمن. إن مصير كل منهما هو إحتمال من بين مئات الإحتمالات التي يمكن أن تحدث أو حدثت فعلا.

لا أدري لماذا غيرتُ صورة الجني الأزرق وقدمته بهذه الصورة، فقد روى الدكتور آدم التائه، وأقصد صديقي الدكتور الحقيقي، بأنه تعرف على أديبة خليجية معروفة روت له بعد حديث عن الأرواح والجن بأن جنيا يعشقها، وعلى الرغم

من أنها كانت متزوجة وأم لعدة أبناء، إلا أن هذا الجني كان يضاجعها بشراهة والغريب أنه أحياناً كان يضعها في كفه، كما روت له، وأنه كان بالهيئة التي قدمتها الأفلام العربية، ضخما، أخضر اللون، أصلع الرأس، نتن الرائحة، وكان يعرف عنها كل شيء.

وكما روى لي الدكتور الذي جسدته فيما بعد من خلال شخصية الدكتور آدم التائه، بأن هذه الأديبة كانت مثقفة جدا وتعرف كل النظريات حول الكبت واللاوعي، وأنها تؤكد بأن ما يجري معها حقيقة وليس أزوداجية في شخصيتها، ولا تعبيرا عن رغبات جنسية دفينة.

الفصل الرابع عشر

باب الضياع

لم تخرج حواء المؤمن من الشقة منذ عشرة أيام حتى ولو لشراء أشياء تخص المطبخ والغسيل. انتبه زوجها ذلك ففسره بالتحولات النفسية المزاجية للمرأة، لاسيما وأنها توجهت في الفترة الأخيرة نحو التدين فتحجبت وبدأت بالصلاة في مواعيدها.

كان هو يخرج مبكرا أحيانا ويعود متأخرا فيجدها نائمة أو يجدها متعبة، لكنه استغرب من إبتعادها عنه وتهربها من أي تلاحم جسدي معها. انتبه إلى أنها تقضي معظم وقتها في غرفة النوم، وظن أنها منشغلة بالصلاة والعبادة. وبرغم إستيائه من إبتعادها عنه إلا أنه ضغط على نفسه وألزمها بالصبر لبضعة أيام أخرى.

أما حواء المؤمن فأنها صارت كالمأخوذة، فهي تؤدي واجباتها البيتية من طبخ وغسل ملابس بسرعة شديدة لتدخل غرفة النوم وتستلقي على السرير منتظرة حضور الجني الأزرق.

في اليوم التالي من رؤية الجني الأزرق كانت خائفة من دخول الغرفة، فبعد أن خرج زوجها من البيت بقيت وحدها. حاولت أن تجد لنفسها أي حجة للخروج من الشقة، ولا تعرف كيف حضر جارهم آدم اللبناني في ذهنها، وتمنت لو أنه في شقته، أخذت تفتعل الضوضاء عند الباب الخارجي للشقة لينتبه لوجودها. لم تخرج من الشقة وكأن ثمة قوة خفية تشل إرادتها، فبرغم خوفها من البقاء وحيدة إلا أنها لا تستطيع الخروج بل ولا تريده.

ظلـت حـواء المؤمـن ذلك النهارتتنقل بين المطبخ وغرفة الاسـتقبال وتتجنـب الدخـول إلـى غرفة النوم، وأخيرا حزمـت أمرها فتوجهت إليها بهدوء وتردد وفتحت بابها وبسملت ثم دخلت.

كانت الغرفة خالية من أي أثر غريب، لا ضباب ولا برودة، ولا ضوء فضياً مائلاً للإخضرار، كان السكون يعم الغرفة.

جلست على السرير للحظة ثم استلقت على ظهرها منتظرة أن يحدث شيء، لكن لم يحدث أي شيء، ولا في اليوم الذي بعده، ولا في اليوم الثالث، بل صارت مهووسة بالبقاء في الغرفة متمنية أن يظهر لها الجني، بل اجتاحتها أمواج الرغبة.

وهكـذا سـكنت الغرفـة معظـم وقتها خـلال تلك الأيـام الفائتة، ولم تغادرها إلا عندما يأتي زوجها بعد المغيب فتقدم له العشاء ثم تعود إليها ثانية، وحينما تشعر بدخول زوجها تغمض عينيها وتبدي وكأنها تغط في النوم، فيتمدد إلى جانبها، وأحياناً يحاول أن يشعرها بوجوده لكنها، وهذا ما أثار إسـتغرابها من نفسـها، لم تحس بأية رغبة في التواصل معه، فهي في شوق ولهفة للقاء الجني الأزرق والتأكد من وعوده لها.

يئسـت حـواء المؤمـن مـن ظهور الجنـي الأزرق ثانية، فأخذت تعود شيئا فشيئا إلى طبيعتها وحياتها الاعتيادية، حتى أنها أخذت تشك بأن كل ما جرى معها لم يكن أكثر من رؤيا وأوهام اختلقها عقلها، كما شعرت بالذنب إزاء زوجها الدكتور آدم التائه، فهي لأول مرة منذ زواجهما تنقطع عـن التواصـل الجسـدي معه لفتـرة طويلة دون أن يبدي تذمرا أو يجبرها على فعله، وهذا ما قدرته في شخصيته.

حينمـا اسـتيقظت صبـاح هـذا اليوم على ضوضـاء قادمة من المطبخ عرفت حينها أن زوجها قد اسـتيقظ قبلها، وربما هو الآن يسـعى لإعداد القهـوة، فأحيانـاً حينمـا يريـد أن يكتـب فجـرا أو فـي وقـت متأخـر مـن سـاعات ما بعد منتصف الليل يقوم هو بإعداد ما يحتاجه، شـايا أو قهوة أو النسكافيه المحلاة بالسكر ومسحوق الحليب.

لا تـدري مـا بهـا. لـم تشـأ أن تواجهـه في المطبـخ وانتظرت إلى أن يذهب إلى غرفة الإستقبال، إذ أحست أن ثمة فراغاً نشأ بينهما، وأن ثمة فتـورا يتغلغـل فـي أعماق روحها. سـابقا كانـت تتمنى أن ينظر إليها نظرة رضى ومودة. كانت تهاب شخصيته، وتهاب سمعته الأكاديمية والأدبية. كانت مليئة أعجابا به وبرجولته وخبرته في ايقاظ حواسها ورغبتها الشبقة، لكنها الآن فاترة الأحاسيس والمشاعر نحوه، بينما كانت في الأيام السابقة مشتعلة بل ومهووسة بالجني الأزرق، لكنها استغربت أنها فكرت في آدم اللبنانـي أكثـر مـن مرة، وأحسـت برغبة في رؤيتـه والإلتقاء به، برغـم أنها عانت ما عانت من عملية إغتصابه لها، بل تتعجب الآن من نفسها، ومن رغبة في أعمق أعماقها في أن يغتصبها ثانية.

حينما أحست بأن زوجها صار في غرفة الإستقبال نهضت عن السرير بتثاقل. دخلت إلى غرفة الحمام. أقفلت الباب وتعرت ثم دخلت الحاجز الزجاجي تحت رشاش الماء. فتحت الصنبور على الماء الحار والبارد معاً، فانهمر الماء البارد أولا ثم صار دافئا شيئا فشيئا إلى أن صار ساخنا تقريبا.

ظلـت حـواء المؤمـن تحت الماء المنهمر عليها بقوة شـاردة الذهن. كانـت تفكـر فـي أشـياء كثيـرة مرت علـى ذهنها المتعب، لكن ما سـيطر عليهـا هـو عمليـة اغتصابهـا، إذ أخـذت تفكر بـكل تفاصيلها. فجأة ندت عنها صرخة خافتة حينما سمعت طرقا على باب الحمام وسمعت صوت زوجها يسألها:

– حواء هل هناك شيء؟ هل أنت على ما يرام؟

فقالت مرتبكة وهي تغلق صنبور الماء الساخن:

– لا شيء.. أنا على ما يرام.. سأخرج حالا

أحسـت بتدفق الماء البارد على جسـدها فشـعرت بقشـعريرة، ومدت يدها فأغلقت الصنبور وخرجت من الحاجز الزجاجي وأخذت المنشـفة فغطت جسـدها الفتي ونشـفته من البلل، ثم ارتدت ثوبها ولفت المنشـفة على رأسها وخرجت.

كان الدكتور آدم التائه يتصفح القاموس الألماني العربي حينما دخلت عليه وألقت عليه تحية الصباح بطريقة ميكانيكية:

– صباح الخير

تأملها للحظات ثم قال لها:

– صباح النور

صمتت للحظات وهو ينظر إليها ثم سألها فجأة:

– حواء، ماذا بك؟ هل أنت مريضة؟ هل تحسين بشيء يقلقك؟

إستغربت سؤاله وأجابت دونما إهتمام كبير:

– لا، ابدا، لا أحس بشيء، ربما بعض التعب والتفكير

– التفكير؟ التفكير بماذا؟

– ليس هناك شيء محدد؟ عموما علي مراجعة طبيبتي الإيرانية، ربما رجعت الآن من إجازتها

– هل تحتاجين أن آتي معك؟

– علـي أن أعـرف أولا إن كانـت قـد رجعـت من الإجـازة، وبعدها يمكننـا الذهـاب، ففـي آخـر لقاء لي معها قبل ذهابها إلى الإجازة قالت من الضروري أن تذهب أنت إليها أيضا.

– لماذا؟

– لا أدري، ربما لتتحدث معك عن أسباب عدم الحمل

فوجئ الدكتور آدم التائه بهذا الموضوع واستغرب من سير الحوار إلى هذه المنطقة، لذلك فسر مع نفسه غرابة حالتها بأنها مشغولة بمسألة الحمـل، ولكونـه كان علـى موعـد للذهـاب إلـى مدينة أخـرى مع بعض العراقييـن مـن أجـل توكيـل محـام ليتولى متابعة ملـف اللجوء، فأنه ألقى القاموس الذي كان يمسكه بيده وقام خارجا وهو يقول:

– تأكدي من وجود الطبيبة وخذي منها موعدا

أوصلتـه إلـى البـاب حين خرج، ووقفـت للحظات لتودعه وهو ينزل السلم الخشبي، وبرغم أنه انعطف عن زاوية النزول إلى الطابق الأرضي

إلا أنهـا ظلـت واقفـة لا إراديـا منتظرة خروج جارهم آدم اللبناني، إلا أنه لم يخرج. حينها سمعت الباب الخارجي يغلق فعرفت أن زوجها قد صار في الشارع. أحست بالخيبة تقبض على نفسها.

دخلـت وأغلقـت البـاب، مضـت إلـى المطبخ، وفي تلـك اللحظات سـمعت حركة عند باب جارهم اللبناني فأسـرعت إلى الباب الخارجي لتفتحه، وفي طريقها إلى الباب سمعت صوت خطواته وهو يهبط السلم الخشبي، وحينما وصلت الباب وفتحته كان هو قد اختفى في زاوية السلم المتجهة نحو الطابق الأرضي، فأحست بخيبة أكبر وشعرت بالندم لأنها لم تطِل وقفوها ولو لدقيقة عند الباب.

أغلقـت البـاب ثانيـة ووقفـت خلف الباب للحظات. فجأة، شـعرت بالخجل المصحوب بالمهانة والإذلال. فكرت مع نفسها هل هي عاقلة أو مجنونة؟ لماذا تركض وراء الرجل الذي اغتصبها؟ هل هي أمرأة ساقطة؟ لمـاذا هـذا اللهـاث وراء الجنـس بحيث صـار معنى لوجودها ولا يمكنها أن تتصور الحياة بدونه؟ كيف يمكنها أن توفق بين الصلاة وبين اللهاث وراء الجنس والزنا؟ ولماذا الزنا؟ أوليست هي متزوجة من رجل وسيم وقوي ويعاملها بطيبة؟ ألا يشـبعها زوجها؟ بلى إنه يلبي رغبتها؟ فلماذا تفكر في جارهم؟ هل هذه هي القيم التي تربت عليها؟ ألم تستغفر ربها وتوجهت إلى الدين؟

إسـترجعت في لحظات شـريط حياتها السـابقة متوقفة عند محطات علاقاتهـا بالرجـال، بـدءاً مـن علاقاتهـا الأولـى، إلـى زواجهـا الأول، ثم زواجها الثاني، وأخيرا آدم اللبناني والجني الأزرق.

سـألت نفسـها، هـل أرادت أن تخـون زوجها مـع الجني؟ نعم كانت هي مستعدة لذلك؟ ما بها؟ هل هي مريضة بحيث لا يمكنها الصبر على الجنس؟ لكنها منذ عشرة أيام قبل نزول دورتها الشهرية ولحد الآن، أي ما يقارب الشهر، لم يقترب زوجها منها، بل شعرت أنه يعيش على أعصابه معها، لكنه صبور وخلوق وفي غاية التهذيب والإحترام لها.

آدم البغدادي: ليس بودي الاسترسال بقصة الجني الأزرق رغم كم التفاصيل التي سمعتها عن حكاية الأديبة الخليجية وعلاقتها بأحد الجن، وكمّ القصص التي سمعتها في هذا المجال، لماذا؟ أنا شخصيا لا أعرف سبب هذه الممانعة الداخلية للدخول في تفاصيل حكايات الجن، فربما هناك في اللاوعي خطة لتخصيص عمل خاص يتناول هذه الحكايات، وربما أجد أن الدخول بتفاصيل هذه الحكاية سيفقد العمل الروائي شيئا من صرامته الواقعية، لا أدري.

الفصل الخامس عشر

طفل الخطيئة

مـر أسـبوعان منـذ أن غـادرا مدينتهمـا الصغيرة متجهيـن إلى جنوب ألمانيـا، إلـى مدينـة تسـيلندورف، حيث تتـم مقابلة اللاجئين السياسـيين إلى ألمانيا. قبل الموعد المحدد بأيام سـافرا إلى أصدقائهم من العوائل العراقية الساكنين في المدن التي تقع في الطريق إلى المدينة – المحكمة.

عند كل عائلة يزورانها يسـمعان قصصا عجيبة وغريبة، سـواء معاناة هـذه العوائـل فـي العـراق أم في البلدان المجاورة أم معاناة وصولهم إلى ألمانيـا، كمـا التقيـا بنمـاذج مختلفـة من العراقييـن، ولأن بيوت اللاجئين ضيقة فقد كانت هي تنام مع النساء وهو مع الرجال، وفي معظم الأحيان تكـون غرفـة الاسـتقبال هـي المـكان المناسـب للرجال حيث يفترشـون الأرض بينما تكون غرفة نوم الأزواج هي مكان نوم النساء.

طوال رحلتهما أحسـت حواء المؤمن أن زوجها يشـتهيها من خلال محاولاتـه الالتصـاق بهـا كلمـا امكنـه ذلك، سـواء حينما كانـا في ضيافة الأصدقاء أو أثناء التنقل في القطارات، أو حتى حينما كانا يجلسان بانتظار دخولهما إلى التحقيق في مسألة لجوئهما السياسي إلى ألمانيا. لقد مضى حوالي أكثر من الشهر دون ان يقترب منها، فلا هي سمحت له، ولا هو أرغمها على ذلك، لاسيما وأنه انتبه لوضعها النفسي المتقلب.

طـوال هذيـن الأسـبوعين، ولدقائـق قبل دخولها علـى المحقق، كان زوجها يلقنها كيف تجيب على أسلئتهم بحيث لا تتضارب معلوماتهما، لأن التحقيق يكون منفصلا، فلربما سيسـألونهما نفس الأسـئلة أو بعض

الأسئلة المختلفة ليكتشفا تطابق أقوالهما وصدقهما من كذبهما.

لقد لقنها زوجها بأن تخبرهم عنه بأنه كان يكتب مقالات ضد السلطة، وأنهم أعتقلوه في العراق وعذبوه، وأنه هرب، وعاش مختفيا، حتى باعت هي كل شيء، ثم هربا إلى الأردن، لكنهما هناك كانا مطاردين من قبل المخابرات العراقية أيضا، والتي كانت تطارد المعارضين العراقيين هناك، وأن زوجها حتى في الأردن كان يعارض النظام ويكتب في صحف المعارضة العراقية، وأنهم فتشوا عنه في الفندق الذي كان يسكنه مما دفعه إلى مغادرة الأردن إلى ألمانيا، وأنه حتى في ألمانيا كان يشارك في المظاهرات ضد النظام الدكتاتوري في بلادها، وفعلا في التحقيق كانت الأسئلة متشابهة تقريبا، وتدور حول وضعهما في العراق ثم الأردن ثم ألمانيا.

في محطة القطار دخلت مع زوجها إلى السوبرماركت الكبير الموجود في المحطة لشراء بعض أنواع العصير والحلوى، وحينما مرت في القسم الذي يحوي على مواد التجميل ومحافظ الدورة الشهرية للمرأة، أحست وكأن وميضا أنار ذاكرتها، إذ إنتبهت إلى قضية هي بشارة وكارثة في الوقت نفسه.

إنتبهت إلى أن موعد دورتها الشهرية قد مر عليه حوالي الأسبوع دون أن تظهر عليها علائم قدومها. فجأة ولا إراديا همست مع نفسها:

– يا مصيبتي...

تذكرت أن زوجها لم يقترب منها لأكثر من عشرة أيام قبل نزول دورتها الأخيرة، ولم يمسها بعد ذلك سوى آدم اللبناني، الذي كان قويا وماؤه دافقا وغزيرا. هل هذا يعني إحتمال أن تكون حاملا من آدم اللبناني؟ همست مع نفسها:

– يا إلهي خلصني من هذه المصيبة، خلصني من هذا العار، يا ربي جد لي حلا، يا ربي دع هذا الأمر يمر على خير، لا أريد ابن زنا؟ لا أريد العار يا ربي. لماذا يكون جزاء زوجي الطيب أن

آتيه بابن حرام؟ ربي إنقذني..

شحب لون وجهها وتبلل جبينها بالعرق بينما كانت هي منهمكة مع نفسها بقراءة الأدعية والرجاء من الله أن يكون الأمر مجرد إضطراب في الدورة ليس إلا.

إنتبه الدكتور آدم التائه لحالتها، فسألها بحنان:

– حواء، ما بك؟ هل أنت متعبة؟

فأخرجها صوته من عالمها، فقالت له:

– لا أبدا، ليس بي أي شيء، مجرد تعب.

قررت مع نفسها أن تنتظر لعدة أيام بعدها تذهب إلى الطبيبة النسائية لتجري الفحوصات اللازمة وتتأكد من الأمر.

طوال الطريق كانت تشعر بخوف شديد من أن تكون حاملا، وتمنت أن لا يتحقق ذلك ويكون الأمر مجرد إضطرابات نفسية سببت تأخر الدورة الشهرية، برغم أن الحمل هو حلمها الذي يعيد التوازن لحياتها لكنها أرادته من زوجها وليس من غيره. فكرت مع نفسها كم الحياة قاسية معها.

لم يفهم الدكتور آدم التائه شيئا من هذا التدهور المفاجئ في حالتها النفسية، إذ كانت تائهة النظرات تترقرق الدموع في عينيها دونما سبب واضح، لكنه أحس بأن شيئاً ما حدث بحيث وصلت إلى هذه الحال التي هي فيها. فكر مع نفسه، ربما بسبب إبتعاده عنها وعدم التواصل معها مما دفعها إلى أن تفكر بأنه لا يريدها، لكنه برر لنفسه بأنه كان يراها غير مستعدة نفسيا أو نائمة وهو لا يريد أن يتعامل معها دون أن يستلم الإشارة الخفية منها، إشارة التقبل التي يراها في ألق العيون وطبيعة النظرة أو الحركات الخفية والإشارات الجسدية الممغنطة، وخلال الأسابيع الماضية كانت هي في عالم آخر، لكن هذا لا يعني أنه لا يرغب فيها، بل إنه يحس أنها صارت جزءا مهما من عالمه ووجوده.

كان الوقت مبكرا حين وصلا مدينتهم. وعندما دخلا بيتهما القديم التقيا جارهم اللبناني آدم وهو خارج بكامل أناقته. ألقى التحية عليهما وأختلس نظرة خاطفة إلى حواء المؤمن. وبرغم سرعة تلك النظرة إلا أن الدكتور آدم التائه لمحها، وحينما مر من أمامهما ألقى الدكتور نظرة على وجه زوجته وكأنه يريد أن يقرأ ما فيه. لمح أنها صارت أكثر هدوءا، ولم يستطع أن يشخص شيئا محددا.

لم يتأخرا كثيرا في البيت، فبعد أن تحمما وشربا الشاي وأكلا وجبة الفطور بصمت تقريبا خرجا متوجهين إلى عيادة الطبيبة. وعلى الرغم من أنه أراد أن تذهب إلى طبيب متخصص في الطب العام إلا أنها أصّرت على الذهاب إلى طبيبتها الإيرانية.

جلس الدكتور آدم التائه في صالة الانتظار في العيادة. حينها لم يكن هناك سوى امرأتين إحداهما ثلاثينية، سوداء الشعر ذات جمال هاديء، مثيرة، تلبس ثوبا ضيقا طويلا يصل إلى قدميها ويكشف عن ساقين ممتلئتين ومتناسقتين وصدر يحمل نهدين صغيرين. أما المرأة الأخرى فكانت شقراء، يبدو أنها ألمانية.

كانت المرأة الألمانية منشغلة بتصفح المجلات التي أمامها، أما المرأة الأخرى، فكانت تنتظر وهي تنتقل بنظراتها بين الفتاتين المساعدتين العاملتين في العيادة والمرأة الألمانية وبينه، ثم تخفض رأسها ناظرة إلى الأرض، لتعود ثانية للتجوال بنظراتها.

بينما كان الدكتور آدم التائه يتأمل المرأة الأخرى محاولا قراءة جسدها وتعريتها في ذهنه مكتشفا جمالها الافتراضي، مفكرا بسبب وجودها في العيادة مفترضا أيضاً سيرة شخصية لها من خلال عمرها وطبيعة جسدها وزينتها وثوبها القصير، متخيلا أوضاعا جنسية مختلفة معها سامعا صراخها الشبق وآهاتها المثيرة، أخرجت من حقيبتها كتابا، وبسرعة خاطفة عرف الدكتور آدم التائه أنه كتاب باللغة العربية من خلال عنوان الكتاب على الغلاف الأيمن، إنها رواية (التية) للكاتب

عبد الرحمن منيف.

أحس الدكتور آدم التائه بفرح يغمره وقرر مع نفسه أن يتعرف على هذه السيدة العربية، لكن هذه التخيلات تم سحقها حينما سمع مساعدة الطبيبة تنادي:

– السيدة حواء فاكهاني

طوت السيدة الكتاب ووضعته في حقيبتها وقامت متجهة نحو غرف الفحص بينما وصلت زوجته خارجة من ذات المرر الذي يضم الغرف.

ربما لأول مرة منذ وجوده في ألمانيا يحس الدكتور آدم التائه بمثل هذه الخيبة، وتنامى في داخله غضب داخلي من زوجته، فلو أنها تأخرت قليلا لأمكنه فتح حوار معها وتعرف عليها. فكر مع نفسه بأنه لا يستطيع حاليا البقاء في العيادة فلا مبرر لذلك، عليه الإسراع بتوصيل زوجته إلى البيت أو الإدعاء بأن لديه موعدا، ثم ليعود منتظرا بالقرب من العيادة خروج السيدة التي عرف اسمها من خلال نداداتها (حواء فاكهاني). سأل نفسه هل هي سورية أم لبنانية، لأن تداول هذا اللقب منتشر في هذه البلدان.

لم ينتبه الدكتور آدم التائه لزوجته حواء المؤمن حينما خرجت من غرفة الطبيبة، لأنه كان مشغول الفكر والمشاعر بحواء الجديدة (حواء فاكهاني)،إذ كانت مضطربة وخائفة ووجهها يعبر عن إنشغال وتفكير بعيد، وحينما سألها زوجها وهما خارجان:

– ماذا قالت الطبيبة.

لم تجبه مباشرة حيث صمتت للحظات ثم قالت بصوت منخفض:

– لا شيء.

– لكنك قلت إنها تريد مقابلتي

– قالت فيما بعد

إراد الدكتور آدم التائه أن يتخلص من زوجته بأي شكل وأن يرسلها إلى البيت بسرعة فقال لها:

– لدي موعد مهم، هل أوصلك إلى البيت أو تذهبين وحدك؟

لـم تجبـه. كانت شـاردة فـي أفكارها تطارد خيـالات ونهايات بعيدة جدا. كرر سؤاله بنبرة غاضبة:

– ألا أتحدث معك؟ هل تريدين أن أوصلك إلى البيت أو تستطيعين الذهاب وحدك؟

نظرت إليه بقلق شديد وقالت:

– أسـتطيع ان أذهـب وحـدي، أنـا أعرف الطريق جيـدا، إذهب أنت لموعدك.

نظـر إليهـا للحظـات وقد اسـترخت ملامـح وجهه ثم اسـتدار، بينما استمرت هي في الطريق العريض المتجه نحو البيت.

في الطريق العريض المتجه إلى البيت كانت حواء المؤمن مصدومة مـن النتيجـة التـي أخبرتهـا بهـا الطبيبة، حينما أطلقت فـي وجهها كلمتها المصيرية الحاسمة وهي تبتسم محاولة أن تجاملها باستخدام كلمة ذات أصل عربي: (مبارك) أنت حامل.

لم تعرف حواء المؤمن منذ أن سمعت تلك الكلمة ماذا تفعل؟ هل تفـرح أو تحـزن؟ مـاذا لـو عرف الدكتور آدم التائه بالحمل وشـك في أن الجنين ليس منه، وهي تعرف أنه رجل شـكاك؟ هل تكذب عليه وتقول له إن دورتها انقطعت منذ شـهرين لكنها لم تخبره وانتظرت لتتأكد؟ ثم أنهـا لا تريـد ابـن زنـا؟ ويـا تُـرى هل تريد الطفل الـذي انتظرته طويلا أو تريد زوجها؟

كانت حواء المؤمن متوترة جدا من الداخل، وكانت تمشي دون أن تدري ما يدور حولها، ولم تنتبه للإشارات المرورية حيث عبرت الطريق برغم الاشارة الحمراء، لكن ومن حسن حظها لم تكن هناك سيارات أو شرطة سوى بعض الألمان الذين نظروا إليها بغضب مكتوم.

فجـأة، وخـارج سـياق أفكارها وانفعالاتهـا، انبثقت في أعماقها رغبة عارمـة فـي أن تـرى آدم اللبنانـي. أسـرعت السـير إلـى البيـت، وصعدت السلم بسرعة وبضجة كبيرة، كي تعلمه بمجيئها، لأنها تعرف أنه يترصد خروجها ودخولها، إلا أن خيبتها كانت كبيرة حينما وجدت بابه مسدودا ولم تصدر أية أشارة عن وجوده.

وقفـت للحظـات أمـام بابـه تتنصت لأية حركـة تأتي من الداخل فلم تسـمع ما يؤكد لها عن وجوده، ففتحت باب شـقتها ودخلت ثم أغلقت الباب.

فجـأة سـمعت طرقـا خفيفـا علـى البـاب ومحاولة فتحه مـن قبضته، ومـا أن فتحـت البـاب حتـى اندفـع آدم اللبناني داخـلا بارتباك وهو يقول لها بلهفة:

– وينك؟

لـم تسـتطع أن تجيبـه فقـد أصابهـا دخوله إلى شـقتها بصدمة شـلت تفكيرهـا، وعلـى الرغـم مـن رغبتهـا العارمـة لرؤيته إلا أنهـا لا تريده في شقتها، ولا تدري كيف نطقت بتلك الجملة الحاسمة:

– ليس هنا، أرجوك، خلينا ندخل عندك.

ذهـل آدم اللبنانـي للحظـات عنـد سـماع هذه الجملة، وبسـرعة فتح الباب وسحب حواء المؤمن بقوة ودخل بها إلى شقته لكنها قالت له:

– علي إغلاق الباب بالمفتاح

فترك يدها حيث أدارت المفتاح في الباب غالقة إياه، وعادت مسرعة إلى الشـقة الأخرى المقابلة وأغلقت الباب خلفها. وعند الباب بالضبط أحتضنها آدم اللبناني فأحست بالرغبة فرفع وجهها وأخذ يقبلها بينما يده تمتد تحت ثوبها وتداعب فرجها الأملس، وبينما هو منهمك بفك حزامه مسكت يده وتمتمت وهي مثارة مثله:

– توقف، أريد أن أقول لك شيئا

لم يستمع لها بل استمر في نزع بنطاله، فمسكت يده بقوة وقالت:

– أنا حامل، حامل منك، في بطني طفلك

شلت الصدمة آدم اللبناني، جمد في مكانه للحظات. هربت الرغبة، وأندفع دون أن يشد حزامه ملقيا بنفسه على الصوفا:

– ماذا تقولين؟

تمتم مصدوما، حانقا، مندهشا، بينما أحست هي بأنها قريبة منه جدا، جدا، أقرب من زوجها آدم التائه.

جلست إلى جانبه على الصوفا وهي تبحث عن بداية مناسبة لسرد قصتها، لكنه قاطعها قائلا بهدوء وفي صوته خيبة واضحة:

– هذا ما لم أتوقعه، لقد حاولت أن أكتب قصة بطلتها أنت وزوجك، لكني لم اتوقع أن تأخذ القصة هذا المسار بان تحملي مني

نظرت إليه مندهشة وعلى وجهها ملامح خيبة وحزن وسألت:

– هل أنت كاتب أيضا؟

– نعم، أنا أديب في بداياتي. أحاول كتابة القصص والروايات، مالك تنظرين إلى الأدباء بهذه السلبية؟

– زوجي الدكتور آدم التائه كاتب أيضا

– حقا؟ لم أعرف ذلك

– هذا يعني أنت مثقف أيضا؟

– يعني... من يريد أن يصبح أديبا وكاتبا لا بد أن يكون مثقفا

– إسمعني جيدا، أريد أن تسمع قصتي قبل أن تحدثني عن قصتك التي تحاول كتابتها عني.

نظر إليها بانتباه وتأمل وكأنه يكتشفها لأول مرة، فقد كانت سابقا بالنسبة جسدا مثيرا لا يفكر إلا باختراقه واحتوائه وتقبيله من الأعلى إلى الأسفل، لكنه الآن أمام إنسانة، تدعي بأنها تحمل جنينا في رحمها ومنه بالتحديد.

آدم البغدادي: أحس أنني أتدخل أكثرمن اللازم في تقييد وتحديد حركة الشخصيات في هذا الفصل، وهذا ينتقص من الحرية الإبداعية وحرية الشخصية الروائية.

لم أتوسع في خيالات الدكتور آدم التائه في العيادة حينما رأى السيدة حواء فاكهاني، فأثناء كتابتي لذلك المشهد متقمصا شخصية الدكتور آدم التائه، راودتني، أقصد راودته أحلام يقظة مليئة بالشبق وتفاصيل تجنبت سردها وكتابتها، لخوفي من تداخل أحلامي مع أحلامه، وأيضا خوفي من إمتلاء الرواية بتفاصيل جنسية وشبقية أخرى.

أحس أنني لقصدية غير إبداعية غيرتُ مسار الأحداث عندما دخلت حواء المؤمن إلى شقة آدم اللبناني. لم أود أن أتركها تنحدر إلى عالم الغريزة أكثر، بل تقصدت في أن تجلس على الأريكة لتروي له قصتها التي ستغير من مسار الأحداث.

والحقيقة أنني أريد إنهاء هذه الرواية، فأنا أريد أن تكون بحجم متوسط لأن الناس لا تستطيع قراءة الروايات الكبيرة الحجم. شخصيا أحب الروايات المتوسطة الحجم التي أستطيع قراءتها في يوم فراغ مخصص لها، وخلال ساعات معدودة، وليس في أيام، لذا أنوي عدم التوسع في مساراتها وسأحاول الضغط على الشخصيات لكي اقترب من النهاية التي تتسرب من بين يدي كالرمل.

مثلما هو واضح أحاول إختزال الأحداث وسردها بشكل تقريري لاهثا نحو النهاية، لكن لماذا؟

هل لوضعي الشخصي، والوضع العام الذي يجري في البلاد علاقة بهذا اللهاث لإنهاء هذه الرواية وكأنها خطيئة يجب التخلص منها؟

لقد تم قبل أيام إغتيال صديقي المثقف السياسي كامل شياع

على الطريق السريع شرق بغداد، لا أدري إلى أين نتجه؟

إنني أخاف هذه الرواية، وأتردد في نشرها، فهي مليئة بالمشاهد الجنسية، وتقدم البشر في حضيضهم الأرضي حيث هم مكبلون بجاذبية الجسد لا يستطيعون الخلاص والآنفكاك عن الجاذبية إلا بالإرتماء في أتونها. إنها رواية عن حضيض آدم الأرضي، لا تهم هنا الجغرافيا ولا القومية ولا الزمان والمكان.

لست فرويديا لكني أقدر عبقرية فرويد في التوغل إلى أعمق أعماق النفس لكشف أهمية الجنس في حياة البشر.

إنني احاول هنا أن أكشف عن الوجوه رافعا عنها الأقنعة، ليس الأقنعة الإجتماعية فحسب وإنما الأقنعة اللغوية، فكل الكلام الجميل في المرحلة العاطفية والرومانسية من علاقة الرجل بالمرأة تتهاوى في الممارسة الجنسية، حيث يبرز القاموس اللغوي الخاص بالجنس.

الفصل السادس عشر

شهران من الشك

مر شهران على ما جرى من أحداث في الفصل السابق. خلال هذه الفترة جرت كثير من المياه تحت الجسـور، وانطفأت الكثير من النجوم والكواكب في هذا الكون الفسيح وولدت نجيمات طفلة جديدة.

خـلال هذيـن الشـهرين جاءت موافقـة المحكمـة الاتحادية الخاصة باللاجئين باعتبار الدكتور آدم وزوجته بمنحهما اللجوء الإنسـاني وليس السياسي، وهذا يعني منحهما جواز سفر ألماني وإقامة دائمة تتجدد كل سـنتين أو أكثـر، ويعنـي هـذا أيضا إمكانية السـفر إلى بلـدان أوروبا وإلى القـارات الأخـرى. وخـلال أيام بعد وصول الموافقة حصلا على جوازي السـفر الخـاص بهمـا. وترتـب علـى ذلـك تحول في وضعهمـا حيث تم انتقالهما من دائرةالأجانب إلى دائرة العمل وسجلا كعاطلين عن العمل، وتحسن وضعهما المعاشي قليلا.

وخلال هذين الشهرين عرف أن حواء المؤمن حامل، وبدأ الشك يمد جذوره الراسـخة في نفسـه من أن هذا الجنين ليس منه، لكن من يكون الفاعـل، ولـم يفكـر طويـلا، فقد أحس بما يشـبه اليقين بأن ثمة علاقة ما بين زوجته وجارهم اللبناني.

وخـلال هذيـن الشـهرين تعمقـت وبقـوة علاقـة حـواء المؤمـن بآدم اللبنانـي، إذ اتفقـا ان تتطلـق مـن زوجها الدكتور آدم التائه وتتزوجه لأنها لا تريـد لأبنهـا أن يكـون نغـلا. كما انها احسـت بأنها تحـب آدم اللبناني فعلا، فهو رائع في تعامله معها، بل أنها لا تهابه حيث تأخذ حريتها معه

فـي الجنـس وتتحـدث معـه بألفـاظ كانت لا تجرؤ أن تفكر في نطقها مع زوجها الدكتور آدم التائه، بل أنها أخذت تبادر في قيادة العملية الجنسية بينما لم تتجرأ أن تطلق آهاتها الشبقية بكامل حريتها مع زوجها.

خلال هذين الشـهرين أقتنع آدم اللبناني من مسـألة الزواج من حواء المؤمن، لأسـباب عديدة لكن من أهمها أن الجهات الألمانية لن ترحله إلـى لبنـان إذا مـا ارتبـط بامرأة ألمانية أو مقيمة إقامة دائمية، وبالتالي فأنه يسـتطيع البقـاء فـي ألمانيـا إذا مـا تـزوج من حواء المؤمـن التي حصلت علـى إقامـة دائمـة فـي ألمانيـا. ثم انه أخذ يحس بتعوده على وجودها في حياته فهو يلتقيها بشـكل شـبه يومي، وكثيرا ما تأتيه وتطبخ له أو تحمل له مما طبخته في بيتها، إنه صار يعرف كل زوايا جسـدها مثلما صارت تعرف جسده أيضا.

خـلال هذيـن الشـهرين حـاول الدكتـور آدم التائـه معادلـة شـهاداته الأكاديميـة فـي ألمانيـا، كمـا راسـل صديقـا يعمل في إحـدى الجامعات الخليجية.

خلال هذين الشـهرين تكشـف له بعض جوانب مشـهد المعارضين للنظام وصراعاتهم التافهة، ومبالغاتهم السياسـية وإيلاء الأهمية لأنفسـهم ودورهم، فأصيب بالإحباط السياسي والفكري.

كان الدكتور آدم التائه في وضع نفسـي متعب ومحبط، فشـكه شـبه اليقينـي بزوجتـه عذبـه كثيـرا، وكثيـرا مـا جلـس سـاعات يفكر مع نفسـه عـن السـبب الـذي دفعها إلى ذلك، فهـي متدينة، ترتدي الحجاب وتقوم بالفرائـض لكنهـا مـن جانـب آخـر غير مخلصة له، ولم يشـأ أن يقول مع نفسه بأنها زانية. هل هو المسؤول عن ذلك؟

فكر مع نفسه مسترجعا مسيرة حياته معها، فهو لم يضربها يوما ولم يشـتمها أو يعاملهـا باحتقـار يومـا، ربمـا لـم يولِها الإهتمـام الكافي، ولم يمتدحها أو يقل لها كلاما ناعما وجميلا؟ نعم، هذا صحيح، أنه لم يقم بذلك، لكنهما كانا على إنسجام في الفراش، هل كانت غير مرتاحة معه

من هذه الناحية؟ لا، لم يبد عليها أنها غير مرتاحة لذلك؟ ربما أنه كان يمارس معها أشياء تخدش الحياء مما نفرها منه، كدفعها لأخذ قضيبه في فمها لتمصه أو أنه يولجه فيها من الشرج أحيانا، أو أنه يقبل فرجها أحيانا، مما كان يشعر بحرجها من ذلك، ربما تلك الممارسات هي التي أبعدتها عنه؟ ربما.

الذي كان أشد إيلاما وعذابا بالنسبة للدكتور آدم التائه أن زوجته خانته مع هذا الشاب العاطل عن العمل والذي ربما ينتمي لمافيا المخدرات المنتشرة بين أوساط العرب في ألمانيا، ولم يكن الدكتور يعرف بأن آدم اللبناني شاب جامعي ترك الجامعه في السنة الأخيرة وأنتقل للقتال في صفوف المقاومة اللبنانية، وأنه تركهم وجاء إلى ألمانيا بحثا عن خلاصه الفردي، وأنه شاعر نشر بعض قصائده في الصحف اللبنانية ولديه محاولات قصصية نشر بعضها وأنه يحاول كتابة رواية عنه وعن زوجته حواء المؤمن وكل سكنة هذا البيت.

لم يكن مهتما بأن زوجته حامل بل تمنى أن يستطيع الطلب منها بأن تجهضه، بل إنه أخذ يتجنبها من اليوم الذي عرف فيه بذلك. ولم تكن زوجته هي التي أخبرته بذلك وإنما من خلال مساعدات الطبيبة الإيرانية فخلال هذين الشهرين رافقها لمراجعة الطبيبة، وأثناء تواجد زوجته في غرفة الطبيبة وبمحض الصدفة، حيث كانت العيادة فارغة، وكان يجلس بالقرب من الاستعلامات، وبينما كانت المساعدة تنظم المكان وتحمل المجلات القديمة وتضع مجلات جديدة والتفت له بمرح قائلة وهي تبتسم سائلة كيف استقبل خبر حمل زوجته؟ وأن عليه أن لا يزعجها فالحوامل يكن في هذه الفترة مزاجيات. حينها ابتسم كالأبله ولم يقل شيئا، لكن كلام المساعدة كان كضربة قوية على الرأس. انتابه الفضول فسأل المساعدة بلغة ألمانية ركيكة لكنها مفهومة بالنسبة لها:

– كم مضى على الحمل؟ أقصد كم عمر الجنين؟

فأجابته الممرضة المساعدة بنفس المرح:

– خمسة أسابيع تقريبا

كانت الإجابة أقوى من الخبر السابق بحملها، لأنه كان يعرف أنه في الشهر الأول السابق أي عند حدوث الحمل لم يقترب هو منها ولا خلال الأسابيع التالية أثناء سفرهم إلى تسيلندورف.

وظل الدكتور آدم التائه منتظرا أن تخبره زوجته بحالها إلا أنها لم تخبره بأنها حامل وهذا ما زاد من شكه، إذ كيف لها أن تصمت عن حدث مهم مثل هذا لولا أنها متأكدة بإقترافها خطيئة كبيرة وأن هذا الجنين جاء في فترة تباعد وعدم وصال بينهما.

الغريب لم يبد على حواء المؤمن أية عوارض حمل استثنائية، بل لم يبد على جسدها أية تغيرات واضحة للعيان. صحيح أن مزاجها متقلب، فتراها خلال الساعة الواحدة تتقلب ما بين الحزن والفرح والوجد الديني والشرود الذهني، لكن ما كان يعذبها هو أن زوجها هجرها، إذ أنه خلال ما يقارب الثلاثة أشهر لم يقترب منها سوى مرة واحدة، وكان ذلك بعد عودتهم من سفرتهم قبل شهرين، وكان قبلها بأكثر من شهر لم يقترب منها، وكانت حينها قد عرفت أنها حامل عند زيارتها الأولى للطبيبة بعد رجوعهما من سفرتهما إلى المحكمة، إذ كان ذلك في تلك الليلة التي عادت من الطبيبة ودخلت إلى شقة آدم اللبناني لتخبره بحملها منه، في تلك الليلة، عاد الدكتور آدم التائه متأخرا، وكانت هي في السرير وحاولت أن تصطنع النوم، لكنه كان ثملا قليلا، فأحست به من طريقة إرتمائه على السرير وعدم إهتمامه كونها نائمة أم صاحية، لأنه أخذ يمد يديه في أنحاء جسدها، ويثيرها بشكل ذكي، ثم خلعه لثوبها عنها وتقبيله لجسدها من مختلف الأماكن حيث وجدت نفسها مشتعلة، وحركته الثملة والعنيفة والمستعجلة في خلع ملابسه ليدخل فيها بعنف ويتمم:يا فاكهتي، يا فاكهتي.. ولم تكن حواء المؤمن تدرك أنه في تلك اللحظات كان يتصور حواء فكهاني التي قابلها اليوم في العيادة هي التي بين يديه.

بعد ذلك انقطع عنها، بل إنه تغير بالكامل بعد زيارتهما الثانية للطبيبة

الايرانية، فهو صار يتجنبها بشكل حقيقي ولا يتحدث معها، بل إنه ينظر إليها وفي عينيه أسئلة واتهامات وحزن واحتقار وغضب ويأس.

هل هو يدري بحملها؟ لا، كيف له ذلك وهو لم يقابل الطبيبة الايرانية، لكن لماذا صار يتجنبها بل ولا يرغب فيها؟ لماذا صار لا يخبرها بسبب خروجه أو إلى أين يذهب؟ هل إنتبه لعلاقتها بجارهم آدم اللبناني؟

فكرت حواء المؤمن أن تفاتحه بالطلاق؟ لكن مجرد التفكير في ذلك يصيبها بالرعب. لم تجد أي تبرير كي تطلب الطلاق منه إلا أن تعترف له بأنها زانية وأنها خانته وأنها حامل من جارهم اللبناني.

إنها تعترف بأنه كان طيبا معها، لم يسئ لها، ولم يبخل عليها، صحيح أن بينهما هوة فكرية وثقافية، لكنه كان يشاركها بعض الأمور المهمة بالنسبة له، فقد كان يسألها عن أبطال روايته مثلا. لكنه صامت معظم الوقت، في أعماقه حزن لا ينتهي، وهو تائه فعلا مثل لقبه، لا يستقر على حال، الشك مثل دودة تقضم تفاحة قلبه، الشك، الشك، الشك، هذا ما يرعبها فيه، فهو يشك في كل شيء.

لا، لا، أنها لا تستطيع أن تطلب الطلاق منه، صحيح أنها حينما أخبرت آدم اللبناني بحملها منه وأنها أقنعته بأنها لا تريد لابنها أن يتربى ليس عند أبيه الحقيقي، وانها لا تريد ابن زنا، لذا فأنها ستطلب الطلاق من زوجها، وتتزوج منه، وحينها اقتنع هو بما قالت وظل ينتظر، بل إنه في الشهر الأخير صار يلح عليها بطلب الطلاق، لكنها لا تستطيع، ما العمل إذن؟ ليس أمامها سوى الفرار مع آدم اللبناني، نعم ليس أمامها سوى الفرار، لكن إلى أين؟

الفصل السابع عشر

بصقة النهاية

إستيقظ الدكتور آدم التائه صباحا على رنين قوي لا ينقطع لجرس الباب انتبه إلى أن زوجته فتحت عينيها مستيقظة أيضا. نهض مسرعا وهو يقول لها:

- أعتقد انه ساعي البريد

فقالت بهدوء ممزوج بتوجس من شيء مخيف على عادة العراقيين:

- يا ساتر يا ربي

لملم الدكتور نفسه ولبس بنطاله بسرعة وخرج هابطا السلم بسرعة واضحة فقد كان وكأنما ينتظر بريدا يصله.

نهضت حواء المؤمن وخرجت إلى المطبخ لتعد الفطور فأشعلت الطباخ واخرجت عدة الشاي، بينما كان ضجيج أقدام زوجها وهو يصعد السلم يصل إليها صاخبة. وفجأة وجدته يقفز فرحا داخل الشقة وهو في حالة نشوة تطفح من عينيه ومن مفاصله وهو يمسك بيده رسالة قد وصلته وقلبت كيانه بهذا الشكل.

نظر إليها ووجهه يفيض فرحا:

- وأخيرا سنسافر إلى الخليج يا حواء. لقد حددوا لي موعدا للمقابلة للعمل كأستاذ جامعي

لم تستوعب حواء المؤمن الجملة بالكامل أول ما سمعتها لكنها أحست وكأن كارثة ستحل عليها. أحست بشيء من الدوار يلف رأسها فامسكت بالحوض الصفيحي.

انتبه هو لها فسألها:

– ما بك؟

– لا شيء..

– لا شيء؟

– لا شيء

لم يعرها اهتماما كبيرا، فقال وهو يتجه للحمام:

– عليّ الذهاب إلى المكاتب السياحية والسؤال عن تفاصيل الرحلات إلى دول الخليج

لم تجبه وانما استمرت لإعداد الفطور فأخرجت الجبن والزيتون والخبز التركي من الثلاجة، ووضعت الخبز في فرن التسخين الكهربائي.

فكرت بأن عليها أن تتخذ موقفا سريعا فهي لا تستطيع الذهاب معه إلى الخليج، أنها تريد أن تكون مع آدم اللبناني الذي وعدها بالزواج إذا طلقها زوجها، رغم أنه قال لها إنها أمام الألمان بحكم غير المتزوجين لأنهما لم يتزوجا زواجا مدنيا وفق القانون الألماني أو حتى وفق القانون العراقي، وبالتالي فيمكنهما الزواج في مكان آخر لو أرادا ذلك. عليها أن تراه حال أن يخرج زوجها وعليهما أن يقررا مستقبل علاقتهما بشكل حاسم.

لا يعرف الدكتور آدم التائه من أين جاءه الإحساس بأن زوجته لم تفرح للخبر وأنها لا تريد مغادرة ألمانيا، وتأكد من إحساسه هذا حينما وضعت صينية الفطور أمامه وغادرت الغرفة، وحينما دعاها للفطور معه إعتذرت منه بأن معدتها تؤلمها وأنها ستفطر بعد أن يخرج.

دفق الأحلام والأفكار التي تمخضت عنها هذه الرسالة التي وصلته من إدارة الجامعة الخليجية لم تترك له الوقت الكافي للتفكير والتأمل في وضع زوجته، فأسرع في فطوره وخرج.

مثلما حملت الرسالة التي وصلت الأحلام والفرح للدكتور آدم التائه

فانها كانت كابوسا حقيقيا بالنسبة لزوجته، فما أن خرج وتأكدت من أنه صار في الشارع حتى خرجت من شقتها وطرقت الباب على آدم اللبناني الذي فتح لها الباب وهو شبه عار إلا من سرواله الداخلي فدلفت داخلة وأغلقا الباب.

حينما جاء ساعي البريد صباحا وهبط الدكتور آدم التائه السلم مسرعا لاستلام بريده لاحظ أن السماء بدت مثل جدار سميك من غيوم سود وبيض كثيفة، لكن لم يرد في ذهنه قط أن السماء ستنشق عن برق ورعد وشلالات من المياه التي ستعطل الحياة في المدينة لساعات. فما أن خرج من البيت بعد الفطور ولم يصل بعد منتصف الطريق إلى المكتب السفريات السياحية حتى أهتزت المدينة بالرعد والبرق الذي شق قشرة السماء التي بدت للدكتور آدم الذي نظر إلى السماء عند لحظة ولادة البرق وكأن الأرض وما عليها ليست إلا بيضة كبيرة، فما وراء الشق الذي أحدثه البرق أحس بأن هناك عوالم هائلة وليست سماءنا إلا السقف الداخلي لقشرة البيضة الكبيرة. وكانت السماء تهطل بالمطر مدرارا وكأن شلالات علوية بدأت تنهمرعلى المدينة الصغيرة.

فكر الدكتور آدم التائه بأنه يجب أن يذهب إلى المكتب السياحي وعليه إنجاز الأمر بأسرع وقت ممكن، لاسيما وان وضعه الاقتصادي بشكل عام ليس بالسيء، فلديه مبلغ البطاقة ومبلغ إضافي آخر للإقامة لفترة ما هناك. لكنه انتبه بأن المسافة المتبقية إلى المكتب السياحي تكاد تكون عارية من أي غطاء أو سقوف فالمكتب يقع في شارع بيوته تصطف بشكل متسلسل وبالتالي عليه العودة إلى البيت واخذ المظلة لاسيما وان نصف المسافة المتبقية ما بينه وبين البيت تكاد تكون مجموعة من المطاعم الصغيرة والمحلات المتوسطة الحجم التي تمد مظلات على الرصيف، ورغم ذلك فقد ابتلت ثيابه وشعره.

حينما وصل الدكتور آدم التائه إلى البيت لم يشأ أن يصعد السلم

مسرعا، بل راودته فكرة أن يعرف ماذا تفعل زوجته بغيابه.

بينما كانت إحدى يدي الدكتور آدم التائه تفتش في جيب سترته عن المفتاح كانت يده الأخرى تمسك بمقبض الباب، وبحركة لا إرادية دفع الباب فوجده مفتوحا. إستغرب، لكنه دخل الشقة، وقف عند الباحة الصغيرة، نظر إلى غرفة الاستقبال المقابلة فعرف أنها فارغة، دخل المطبخ ومنه إلى غرف النوم فوجدها فارغة أيضا.

أين هي؟

خرج من غرفة النوم واتجه إلى الحمام فلم يجدها. وقف للحظات، أحس بتدفق الدم يصعد إلى رأسه، وبضغط قوي على صدغه، وبدون تفكير خرج من الدار غاضبا لكنه وقف أمام جارهم آدم اللبناني، ولا يعرف من أين هبط عليه الهدوء المفاجيء، وكأنما سكبوا عليه سطلا من الماء المثلج.

إقترب من الباب وأخذ يتنصت. سمع أصوات لهاث جنسي، وسمع صوت زوجته تقول وهي تلهث:

– أدخله كله، أدخله كله، أرجوك؟

وسمع صوت جارهم يقول وهو يلهث:

– كله فيك..

– لا تترك منه شيئا.. لا تترك منه شيئا. أرجوك.. أصير عبدتك بس ريحني..

لم يتمالك الدكتور آدم التائه نفسه، ولم يستطع أن يفكر، وفجأة، أقتحم الباب بكل قوته فأنفتح. لم يستطع أن ينسى ذلك المشهد. كانت حواء بثيابها وحجابها على الرأس متربعة بإنحاء على الأريكة وقد رفعت ثوبها كاشفة عن مؤخرتها عارية وسروالها الداخلي عند أحد قدميها بينما يتربع آدم اللبناني بسرواله المنزوع حتى ركبيتية وهو يدفعه فيها من الخلف بينما هي تمد يديها إلى الوراء ماسكة بفخذيه وهي تتوسل أن يدخله فيها بقوة.

جمد كلاهما، حتى أن آدم اللبناني لم يستطع أن يغير من وضعه مع حواء المؤمن التي سحبت يدها من فخذي آدم اللبناني ومسكت حجابها لتغطي به وحهها.

لم يفعل الدكتور آدم التائه شيئا، أحس بأن جسده قد تيبس، لحظات قليلة كانت أقسى من سنين. تقدم بهدوء شديد وأقترب منها، نظر إليها للحظات بينما أخذت تنزل ثوبها لتغطي عريها دون ان تتجرأ للنظر إليه، لم يفعل شيئا سوى أنه بصق عليها، وأطلق كلمات الطلاق الثلاث في وجهها، وخرج، بينما تعالى خلفه نحيب حواء المؤمن العالي وهي تعيد ترتيب حجابها.

الخاتمة

آدم البغدادي: لم أشأ أن انهي علاقة الدكتور آدم التائه وزوجته حواء المؤمن بهذه الطريقة المخزية، لكنني كنتُ مدفوعا بشكل لا إرادي إلى أن تجري الأحداث هكذا، لماذا وكيف؟ لا أعرف هذا حقا.

وبالرغم من أنه أباح تجنبت أن يكون هذا النص خطابا جنسيا لأسباب تتعلق بواقع الحياة الشرقية اليوم وأفق الحريات الفكرية، لتوقعي بأنه هذه الرواية ستواجه سوء فهم كبير، إلا أني انتبهت لمدى تراجع الحرية الفكرية في بلدان الشرق اليوم، لأني وجدت أن أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هجرية)، الذي يُعد أول من ألف كتبا ورسائل في الجنسانيات مثل كتبه: (في النساء) و(مفاخرة الجواري والغلمان) بل وحتى النتف التي جاءت في كتابيه (الحيوان) و(البيان والتبيين)، حيث أتخذ موقف اعتزاليا في أن الشريعة هي التي تنظم العلاقة بين الإنسان وشهواته، وبالرغم من أنه أباح المتعة بين الذكور والأناث دون قيد مؤكدا القول بالتحسين والتقبيح العقليين.

وإذا كان الجاحظ قد فتح الباب أمام الأخرين للكتابة عن النساء والجنس، فقد خصص ابن قتيبة الدينوري (ت 276 هجرية) المجلد الرابع من كتابه الشهير (عيون الأخبار) للنساء ووضع له عنوانا هو (النساء: أخلاقهن وخلقهن وما يُختار منهن وما يُكره).

وكذلك كتب أبو الفضل ابن طيفور (ت 280 هجرية) كتابا خاصا عنوانه (بلاغات النساء). وكذا يمكن ذكر أشهر الكتب التراثية (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني (ت 356 هجرية) الذي يُعد من أبرز الكتب التي تناولت الأخبار الجنسية عبر التاريخ العربي الإسلامي إلى عصره.

ونجـد مثـل هـذا الخطـاب الجنسـي عند ابن عبد ربه الأندلسـي (ت 328 هجرية)، وبديع الزمان الهمداني (ت 389 هجرية)، وكذا كتب أبي حيان التوحيدي (ت 414 هجرية) لاسيما (الإمتاع والمؤانسة) و(البصائر والذخائر).

بـل هنـاك علمـاء تقـاة فسـروا القرآن الكريم وفي نفـس الوقت كتبوا مؤلفـات فـي الجنـس والجنسـانية التي صارت مـن النصوص المهمة في خطاب الجنس مثل كتب جلال الدين السيوطي لاسيما في كتابيه (الوشاح في فوائد النكاح) و(مباسم الملاح ومياسم الصباح في مواسم النكاح).

وكـذا الأمـر عنـد ابن قيم الجوزية (ت 751 هجرية)في كتابه الشـهير (أخبـار النسـاء)، وابـن كمـال باشـا (ت 940 هجريـة) فـي كتابـه (رجوع الشـيخ إلى صباه في القوة على الباه). بل هناك عشـرات الكتب التراثية حول (الباه) وحول الأوضاع الجنسية،بل ولدينا الكتاب العربي الاسلامي الخالد (الف ليلة وليلة) المليء بالحكايا الجنسية.

ولا أريـد أن أقـدم جـردا للكتب التي شـكلت الخطاب الجنسـي في التراث العربي، وانما أوردتها لأقنع نفسي بأني لم أقترف خطأ أو خطيئة عندمـا توغلـت فـي أعمـاق الشـخصيات لأضعهـا أمام رغباتهـا الحقيقية الدفينـة، فمـن خـلال الجنس نسـتطيع أن نتلمس آلية السـلطة وإشـارات المعرفة.

لكنـي، وأعتـرف هنـا، كنـت متـردداً فـي التوغـل أكثـر، فثمة هاجس يدفعني لإنهاء هذه الرواية بأي شكل.

لا أدري، ربمـا خوفـي ينعكـس علـى عملـي الإبداعـي، وإلا لمـاذا إختزلت أحداث الشهرين الأخيرين بسرد تقريري؟

عليّ الانتهاء من هذه الرواية بأي شـكل لأنها صارت تشـكل خطرا علـيّ، لكـن لمـاذا اسـتمر فـي الكتابـة إذن لو كانت كذلك؟ أنا نفسـي لا أعرف لماذا اسـتمر في كتابتها؟ إنها متاهة لا نهاية لها. أبناء وبنات آدم يتناسلون في هذه المتاهة. ولا أجد أفقا للنهاية.

سبات آدم.. يقظة آدم

طوى آدم البغدادي آخر صفحة كان قد دون عليها ملاحظاته وتعليقاته علـى النـص الروائـي الـذي كتبـه والـذي أطلـق عليه عنـوان (متاهة آدم) مستغنيا عن العنوان السابق الذي وضعه لها وهو (السقوط إلى الأعلى). استرخى على كرسيه.

تأمل زاوية سقف الغرفة، وجد ثمة ذبابة عالقة في خيوط قد نسجها عنكبوت وهي تحاول أن تخلص نفسـها لكن بدون جدوى، فهي عالقة هناك ولا تستطيع الفكاك. ظل لفترة ربع ساعة وهو يحدق في تلك الزاوية منتظرا خلاص الذبابة، لكن دون جدوى، ولم يقطع تأمله وتحديقه سوى طرقات على الباب.

لـم يكـن آدم البغـدادي ينتظـر أحدا، وهو بشـكل عام يلتقي أصدقاءه مـن الأدبـاء والفنانيـن فـي مقهـى قريب، لذا أسـتغرب الأمر، فنهض عن كرسيه وأتجه ليفتح الباب.

فتح الباب. أطل عليه وجه يعرفه، يراه أحيانا في المقهى الذي يرتاده، لكن لا تربطه به علاقة وطيدة، لذلك استغرب وسأل نفسه: لماذا جاء؟

بادره الشخص الذي طرق الباب قائلا وعلى وجهه ابتسامة بريئة:

– تحياتي أستاذ آدم البغدادي

بادره آدم البغدادي بهدوء مستغربا لكن بأدب:

– أهلا وسهلا

– ممكن أتحدث معك في موضوع مهم

– ولكن ممكن أعرف مع من أتحدث؟

– عفوا... لم أقدم نفسي.. أنا آدم العراقي

– آدم العراقي؟
– نعم.. أنت آدم البغدادي... وأنا آدم العراقي، والحقيقة هناك موضوع مهم أود أن أكاشفك به
نظر إليه آدم البغدادي بتساؤل وقال:
– موضوع مهم.. خيرا إن شاء الله
فابتسم الشخص الآخر وقال ببراءة وبمودة:
– هل أبقى على الباب أم تسمح لي بالدخول لأشرح الموضوع؟
صمت آدم البغدادي للحظات وفكر مع نفسه بأن الشخص الذي اسمه آدم العراقي يبدو من ملامحه لا يحمل شرا، ليستمع إليه، لذا فتح الباب فدخل له، فبادره آدم البغدادي قائلا بترحاب بارد:
– تفضل
رد الشخص الغريب الذي اسمه آدم العراقي بجمل الترحاب البغدادية التقليدية:
– شكراً استاذ آدم
ولكي يكمل آدم البغدادي أصول الضيافة سأل:
– ماذا تفضل أن تشرب، شايا أم قهوة أم عصير فواكه؟
– عصير فواكه إذا ممكن
إتجه آدم البغدادي إلى المطبخ، فتح الثلاجة وأخرج الدورق الزجاجي الذي كان فيه بعض عصير البرتقال، وهم بسكبه في القدح الذي كان أمامه، فجأة، أحس بوخزة في مؤخرة رأسه، وخزة صغيرة لكنها مؤلمة لم تستمر سوى ثوان، أحس بالظلام، الظلام، وبخفة هائلة.
كان الشخص الغريب الذي أسمه آدم العراقي خلفه تماما في المطبخ وفي يده مسدسا كاتماً للصوت. إنهار آدم البغدادي على وجهه، وسقط الدورق الزجاجي متهشما على الأرض، وتدفق الدم على الأرض مشكلا بقعة صغيرة عند الرأس، حيث تجمد بعد لحظات.
كان القاتل الغريب الذي أسمه آدم العراقي شاحبا. ثمة ابتسامة صفراء

على وجهه. وضع المسـدس في حزامه خلف ظهره وخرج من المطبخ إلى الغرفة. مسـح الغرفة بنظرته، رفع رأسـه إلى الأعلى، إلى الزاوية في السقف، لاحظ الذبابة وهي تحاول الخلاص بينما قبض العنكبوت عليها. ابتسـم، وخـرج دون أن يغلـق البـاب، بينما ظـل آدم البغدادي ملقى على أرضية المطبخ مستغرقا في سباته الأبدي.

2011/ 9/ 20

بغداد – برلين – دبي – بيروت